بفضل الله تعالى قد تم قراءة هذا الكتاب، وقد أجزت به الأخ الشيخ أبو الجود محمد الملقب، نفع الله بالجميع آمين

٢ / ٣ / ٢٠٢١

الصوفية المظلومة

بسم الله الرحمن الرحيم

الصوفية المظلومة

دراسة تحليلية معاصرة

المؤلـــف

الشيـــــخ

صلاح الدين بن خضر فخري

دار الفتوى

مدير الشؤون الادارية

منشـــورات

دار الحديـــــــث

بيـــروت

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م

المقدمة

الحمدُ لله الحي الحكيم، الجوادِ البرِ الرحيم، معطي المواهب، الكبيرِ الرفيعِ العظيم، الذي بيدِه الأمرُ كلُّه، وإليه المرجعُ والمآب.

والصلاةُ والسلامُ على سيدِنا محمدٍ، وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد: فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تركَنَا على المَحَجَّةِ البيضاء، التي لا يزيغُ عنها إلا هالك، وبيَّنَ لنا سبيلَ الرشادِ، بما فيه مصالحُ العبادِ والبلاد، وهدانا إلى صفاءِ القلوب، وربَّى الأرواحَ والنفوسَ على مسالكِ السمو والرفعة، معتبراً أن من اتَّبعَ هذه المعاني العظيمةَ، فهو ضيفُ الإسلامِ، لذا فقد نادى مرةً أبا هريرةَ رضي الله عنه فقال: لبيك يا رسول الله، قال: إلْحَقْ إلى أهلِ الصُّفَّةِ فادعهم لي، وأهل الصُّفَّة، أضيافُ الإسلامِ، لا يأوونَ على أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ، ما قال ذلك إلا ليعرفَنا روعةَ هذه الصفات الكريمة، التي يكتسب المرء بها نوراً في قلبه وشروقاً في نفسه.

وقد سارَ الصحابةُ الكرام رضي الله عنهم على هذا المنوال، شاهدةً عليهم سيرتُهم الكريمة، وحياتُهم الرائعة، فقد كانوا فرساناً في النهار رهباناً في الليل، فقد تملكوا قيادةَ الزُهْدِ والمؤاثرة، قدوتهم في ذلك رسولُنا الأكرمُ عليه صلواتُ ربي دوماً .

ومن هنا نرى انَّ بعضَ ذوي العقولِ السقيمةِ، والأغراضِ الدفينة، دأْبُهم التحاملُ والإعتراض دوماً على مَنِ اتخذَ مبدأً لِيُظْهِرَ حقيقةَ مقاصدِه - خاصةً إذا كانتْ هذه الطريقة والمبدأُ ينفذانِ إلى الشريعةِ والدينِ وأصولِهما بحكمِ الاجتهادِ والتنويرِ والاختصاص - بل إنَّ الأكثريةَ منهم يتخذونَ هذا المنهجَ ليُعْرَفوا وليُميَّزوا من بينِ الخلقِ والعبادِ .

والغرابةُ كلُ الغرابةِ أن اعتراضَهم وتحاملَهم عند ظهورِ الحقِ للعيانِ ساطعاً بأدلتِه البالغةِ وبراهينِه اللامعة .

فهؤلاءِ بديهةً إنَّهم قد انحرفوا إلى طريقِ الظلمةِ والردى، ومَنْ يَعِشْ في الظلامِ والشكوكِ والوَهْمِ يَخافُ من النورِ .

واليقينُ والثباتُ والحقُ يقال: إنَّ هؤلاءِ وأشباهَهم إنْ بحثْتَ وراءهم وضمنَ طياتِ مناهجِهم رأيتَ أغراضاً يبتغونها تجعلُ الولدانَ شيباً .

وقد قيل:

إذ أنت لم تر الهلال فسلم لأناس رأوه بالأبصار

وممن نالهم التراشق بنبال غاياتهم وأهوائهم، ومفاتن كيدهم وغيرتهم، السادة الصوفية الأخيار، أصحاب التربية القلبية والروحية الأبرار.

فقد أُلقيت عليهم وابل التهم، والتخرصات الموهمة، والخالية من كل برهان، والدالة على ضعف في التفكير وبُعد عن الحقيقة والصواب.

ولطالما وُضع التصوف - الذي هو تربية الروح والقلب على التمسك بالشريعة ومخافة الله تعالى - في قفص الإتهام، ووصم بأوصاف فيها أوضار النفوس المتعالية، وهي لا تدلُّ على النقد الإصلاحي والتقويم الأمثل.

والجدير قوله: إن هؤلاء لم يفهموا الفَهْم الصحيح السليم على مناهجهم فألقوا الكلام جذافاً من غير تفكير ولا تمعن قال الشاعر:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفته من الفَهْم السقيم

وقيل: كيف يستقيم الظل والعود أعوج.

لذا ترى أن حججهم وبراهينهم في لُجج الخيبة تهبط وتذوب كما يذوب الملح في الماء، لأن طريقة القوم العلمية الروحية السليمة ستبقى راسخة كالجبل الشامخ

الأشم، برجالها الميامين الغُرِّ، ولن تؤثر فيها تلك الزوابعُ الفنجانية، والعواصفُ الوهمية.
ولن تحركها أمواجُ الأقذاح، بل كلما تراكمتْ عليها ازدادتْ رسوخاً ومجداً وبهاءاً.

"ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إنْ كنتم مؤمنين".

وإن الطريقةَ الصوفيةَ والتربيةَ الروحيةَ تسيرُ مع الشريعةِ حيث سارتْ ومع العلمِ والعقلِ الصحيح.

خاصةً وأن بدايتَها كانتْ من النورِ المصطفوي ومن الصحابة والتابعين بسندهم المبارك إلى زمننا هذا، فقد حملوا أمانتها بالأسانيدِ المتصلةِ من جيلٍ إلى جيلٍ حتى وصلتْ إلينا.

إن بعضَ الناس إذا سَمِعوا نكيرَ هذه الفئةِ على أصحابِ التربيةِ الروحيةِ، أو قرأوا بعضَ طروحاتِهم تتبلبل أفكارُهم، وتتكدرُ عقولُهم، لأنهم لا يملكونَ سعة إطلاعٍ وعمقَ تفقُّهٍ لواقعِهم، لأنهم ينظرونَ في سطوحِ الأمور، ويكتفُون بالقشور دون اللباب، ويظنونَ السرابَ شراباً فينخدعون ولا يتدبرون.

وقد قيل: ولا تَبْغِ الشرابَ من السرابَ.

لذا فقد رأيت من الضروري - مع اعترافي بالعجزِ والتقصير - أن أكتبَ هذا التأليفَ بمواضيعه الثَّرة، التي تحكي لغةَ القوم عن كثب، فقد مَحّصْتُ فيه الحقائقَ

وذكرت فيه الدقائق من أمور لمستُها، وحقائق شاهدتها، وأحوالٍ عايشتُها، وحاولتُ جاهداً أن أضعَ النقاطَ على الحروفِ، وأن أُلمسَ بأناملِ الصدقِ والتجردِ مواطنَ الألمِ، فأصفُ له الدواءَ المناسِب.

وخلال كتاباتي لم أقصدْ أحداً بسوءٍ، أو أذكرْ فئةً أو معرضاً بجهةٍ بل ضربتُ الأمثلةَ على سبيلِ التبينِ والإسترشادِ.

والله تعالى أسألُ، وبنبيه أتوسلُ أنْ أكونَ قد خدمتُ هؤلاءِ القومَ السادةَ الصوفيةَ أصحابَ القلوبِ العامرةِ خدمةً صادقةً، وأزلْتُ عن طريقهم كلَ التباسٍ وشبهٍ لتنْجَليَ الحقيقةُ وتظهرَ للناس.

وأسأله تعالى أن يقبلَ مني ويحفظني وإخواني وأحبابي وذريتي، وكلَ من سلكَ طريقَ أهل الله والتقوى والذكرِ والعبادة.

"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن اتبعن". صدق الله العظيم.

وكتبه الشيخ

صلاح الدين بن خضر فخري

غفر الله له

١٤١٨هـ ١٩٩٧م



لا تتسرعوا بالحكم على الصوفية

إياكم والحكم على الصوفية حكماً إرتجالياً من غير تفكير ولا تمعن، فالحكم على الشيء فرعٌ عن تصوره، فلا بدّ باديء ذي بدء من هضم فكرتهم، وفهم تصورهم، والوقوف على مبادئهم، والغوص في مقتضى أفعالهم، والبحث بين ثنايا عباراتهم، ومن ثمّ الحكم بحق عليهم، وإصدار ما أُبرم من الفتاوى المتعلقة بهم، أما أن يُحكم عليهم بمجرد الهوى، وميول النفوس، أو بالسماع المجرد عن المشاهدة المقرونة بالحقيقة فهذا محال وظلم، ووضع الشيء في غير نصابه، وتضييع الحق على اصحابه.

والحديث: "إذا رأيت مثل الشمس فاشهد وإلا فدع".

فأنا لي الفخر، ولي العزة، وأسمو بهما إلى رضاء الله تعالى، بأن أكون صوفياً على غرار نفحات بركاتهم، وجادةِ حقيقتهم، وعلى نهجهم وأسلوبهم المقرون بالحقائق، والمؤيد بالشواهد، والمدَّعم بالشريعة الغراء، المأخوذةِ صافيةً من غير تعكيرٍ من فم سيدِ الوجود سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام .

كما أنه لا يجوز مطلقاً الحكمُ على الصوفيةِ من خلال شطَحات بعض الرجالِ السابقين، وتجاوزات بعض الأشخاص الماضين، وذلك لشدة وجْدِهم وخروجِهم عن ضبط نفوسهم وأنفاسهم والاستغراق في التفكر والاعتبار حتى فقدوا ضوابط القواعد وخرجوا عن المعروف والمألوف .

وهذا معلوم ومُقَرٌّ بِه، أن لكل عالم هفوةً ولكل جواد كبوة ولكل نفس غفوة، فقد علا عليهم الوجد والحال وذلك لمعنى تذوقوه، أو لطيف لمسوه، أو صفاء شاهدوه، فهفوا، وكبوا وغفوا، وسيأتي فصل خاص نتكلم به عن هذا الموضوع ونعطيه حقه إن شاء الله تعالى .

مع اليقين أن ذلك الوجد والحال لم يستمرَّ معهم طويلاً، ولم يستقرَّ بهم نزيلاً، فإذا ما خلوا من وجدهم وتغيَّرَ حالهم وعادوا عادوا إلى طبيعة نفوسهم، فردوا الأمور إلى أُصولِها، ووزنوها بقواعدِها وفروعها على نهج الشريعة من غير التباس ولا تشويه.

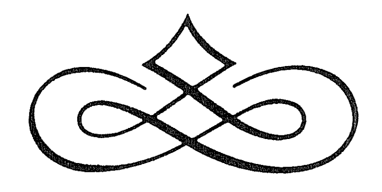
فإن كان الحكمُ على الصوفيةِ من خلال شطحاتِ الحلاَّج وأمثاله، فهذا خطأ مميت فادح، تعثر به من سلكه واتبعه، أو الحكم عليهم من تصرفِ مَنِ انتمى إلى الصوفية فلم يكمل حالُه، وينضوي تحتَ الشريعة أمره، فهذا لا يُنَظرُ إليه، ولا يُحكم على الغير من جراءِ هذا التصرف الخالي من ميزان الشرع والدين.

لهذا قيل:

لا تغترَّ برجلٍ يطيرُ	ولا فوقَ ماءِ البحرِ قد يسيرُ
ما لم يقفْ على حدودِ الشرعِ	فذلكَ مستدرَجٌ وبِدْعِ
والشرعُ ميزانُ الأمورِ كلها	وحاصلٌ لأصلها وفرعها

وإني أسوق إليك بعض الأمثلة التي شاهدتُها في حياتي من رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، من صلاحِهم وعلمِهم وصدقِهم، وأذكارِهم وعباداتهم وزهدهم، فقد تَقَلَّدوا بالكلماتِ الانسانية، وتزينُوا بالصفاتِ النبوية، وتألقوا أدباً وعلماً وأخلاقاً.

ولستُ الوحيدُ الذي يعترفُ بهذا ويثني عليهم، بل أهلُ عصرِهم ومصرِهم قد تواطؤا على صدقِ صفاءِ أقوالِهم وأفعالِهم، وما تحلُّوا بهِ من صفاتٍ وسماتٍ، كما أن ما تقلدوه من مناصبَ عليّةٍ رفيعةِ المستوى وصلوا بها إلى القمةِ العالية، لم تمنعهم من التحلي بقلادة الصوفيةِ الحَقّةِ الخالية من الشوائبِ والشكوكِ، وسأذكر لك كلام الجنيد في الفصول الآتية حيث يفيد كلامه قاعدة من القواعد الهامة في هذا المجال.



الحركــــة الصوفيــــة

لقد أتت الحركة الصوفية في العصر الأول وليدةً لقيام الاسلام قيامَ اعتدالٍ من أصحابها من غير تطرفٍ ولا غلوٍ ولا فساد في العقائد والعبادات .

وقد شمل ذلك كله قلوب الصالحين فجللوها بالخوفِ من الله تعالى وجعلوا محبتهم له صادقين، حتى تولد في قلوبهم عند ذلك الاستسلام المطلق لإرادته، وتسربلوا بعلامات الرضا الكاملة .

وبقي الأمرُ كذلكَ مقروناً بوابلِ الاتباع والاقتداء والمعرفة والعلم .

أما في القرن الثالث فقد بدا التصوُف في صورة مختلفة وجديدة تباين المواقف السابقة تمام التباين .

صور لا يمكن تفسيرها بعبارات مكتوبة، وألفاظٍ معدودة بلْ ان هذه الصورَ الفذة اندمجتْ فيها الصوفية على النمطِ الذي ذكرت اندماجَ الروحِ بالجسد حتى ازدادت عمقاً ورسوخاً، وكثرَ أهلها وروادُها في سلكِ رجالِها وأتباعها، وبدأ الدارسون يتلقون مناهجَ تعليم صفاءِ الروحِ والقلب مع مناهجِ العلم والمعرفة على يد رجال جمعوا بين الحقيقة والشريعة، وعمّ ذلك في أصقاع الأرض، وانطلقتْ المدارسُ الفكريةُ المعاصرةُ تتجاذبُ أصحابها حتى خاضوا في غِمارِ المنطِق والتحاور.

ولكن ما لمْ يعلمه غيرُهم وما خفى عليهم، أنهم لم يعلموا أنّ هذه هي الحلقةُ المفقودة المطلوبة، إنها اختصاصٌ ربانيٌّ يختصُ به المولى من يشاء، فيضعُه في بحرِ معارفه ويجعله في مصافّ أوليائه وأصفيائه.

ولذلك قيل: أن محبة اللهِ شيءٌ لا يُكتّسبُ بالتعلمِ وإنّما هي هبة من الله وفضل.

لذا فقد جرتْ أقوالُهم وأفعالُهم على طرازٍ خاص، يخالفُ تصرفاتِ وأفعالَ الآخرين، حتى غدوا مناراتٍ يُقتدى بهم، ولوامعَ قيمةً نادرةً.

إذْ كانتْ غايتهم تتجهُ نحوَ عمليةِ النجاةِ بالنفسِ من غرورِ الدنيا، والزهد منها والهروب من شهواتِها لذا فقد اشتغلوا بإصلاحِ القلوب، ليشعَ منها النورُ الذي يذكرهُم بأمورِ الآخرة.

ولما سُئل ذو النون كيف عَرف ربَه؟ أجاب: "عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفتُ ربي".

ويمكن القول: إن الصوفية قد ظهرت بذورها الأولى في الزهد الذي ساد الدنيا وعمَّها، وذلك في القرن الأول الهجري لقُربه من عهد النبوة والصحابة.

وسبب ذلكَ تقربُ الانسان إلى ربه وترك حطام الدنيا والتذكُر من الآخرة وعذابها، والاستغراقُ في الجَنة ونعيمها.

ثم ابتدأتْ تنمو ثمارها وتغدقُ أغصانُها، حتى غدتْ في القرن الثاني الهجري باسقة في أرجاءِ الدنيا، يستفيد منها الناسُ فانتشرت أشرعةُ سفينتهم وركبوا متنها للوصولِ إلى الغايات السامية.

ثم ابتدأ العصرَ الثالثُ والرابعُ وتمّ وضع دراساتِ النظام الصوفي، وتكاملتْ مراحله من الناحيتين النظرية العلمية، والعملية التطبيقية، وكان هذا كلهُ متفقٌ تامَ الاتفاق مع روح الشريعة، كتاب الله تعالى وسنةِ رسولِه صلى الله عليه وسلم من غير تباينٍ ولا تناقضٍ.

وأهل هذه الأنماط من الحياة لم يتركوا العلم والمعرفة جانباً، بل خالطتْ قلوبهم وأفكارهم. يقول ابن خلّكان: إن ذا النون المصري كان وحيدَ عصره، علماً وعبادةً وحالاً ومعرفة بالأدب وأنّه كان حكيماً فصيحاً بالعربية.

وها أنذا أشرع في تلخيصِ النقاط الهامةِ في معاني التصوفِ التي حصلتْ في القرنِ الأولِ والثاني والثالث والرابع.

١. الانقطاعُ إلى اللهِ والعزلةُ عن كلِ ما سواه في القرن الأول.

٢. التصوفُ نتيجةٌ للتعاليمِ الإسلامية في ذلك القرن الثاني.

٣. أضحى التصوّفُ مذهباً منتظماً خاصةً في الجزء الأخير من القرنِ الثالث.

٤. غدا للصوفيةِ أساتذةٌ وتلاميذُ وقاعدةٌ وسلوك وبذلوا الجهد للتوفيق بين التصوف والقرآن والسنة في القرن الرابع والتفصيل كان في القرن الرابع.

القرن الأول:

لقد كان الإقبالُ على الدينِ والزهدِ في الدنيا غالباً على المسلمينَ في صدرِ الإسلام فلم يكونوا في حاجةٍ إلى صبرٍ يمتازُ به أهلُ التقى، والعكوفِ على الطاعاتِ والانقطاعِ إلى الله، ولم يتسمَّ أفاضلُها في الجيلِ الأول بتسمية سوى صحبةِ رسولِ اللهِ، إذ لا أفضليةَ فوقها، فقيل لهم الصحابةُ، ولما أدركهم أهلُ الجيلِ الثاني سُمي من صَحِبَ الصحابة بالتابعين.

القرن الثاني:

فلمّا نشأ الإقبالُ على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح أكثر الناس إلى مخالطة المتاع الدنيوي، قيل للخواص ممن لهم شدةُ عناية بأمر الدين الزُهاد والعُبّاد، وكانت هذه الظواهر مُدعاةً لتمييز هؤلاء الخواص عن غيرهم حيث انفردُوا في سماتهم.

القرن الثالث:

وفي القرن الثالث كثرتْ الاتجاهاتُ، والادعاءاتُ والتمايزُ، واختلطت الدولُ بعضها، والاشخاصُ بغيرها، وتعددتْ المدارسُ المتنوعةُ، واسترسلَ الناسُ في الميول لهذه المدارس، فادّعى كل فريق أن فيهم زهاداً وعبّاداً، هنالك انفردَ خواصُ أهل السنة المُقْبِلُون على العبادة بإسمُ الصوفية والمتصوفة، واشتهرَ هذا الإسمُ بعد المائتين من الهجرة.

وحدث الاضطلاعُ والتعريفُ على أولئك الثُلة من القوم.

القرن الرابع:

وفي القرن الرابع تم وضعُ اللمسات الأخيرة على ما تكاملَ من علم التصوف نظرياً وعملياً، فلا تصوفَ من غير عمل ولا عملَ من غير علم.

كل ذلكَ ضمنَ القواعد الشرعية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

هذا ملخصُ الحركة الصوفية في بدايتها من القرن الأول إلى القرن الرابع حتى تكاملتْ أركانها وقواعدها.

حقيقة التصوف

التصوف : تعريفه . اشتقاقه . نشأته . تاريخه .

تعريف التصوف :

قال شيخ الاسلام زكريا الانصاري رحمه الله تعالى :

" التصوف علمٌ تُعرفُ به أحوالُ تزكيةِ النفوسِ، وتصفيةِ الأخلاقِ وتعميرِ الظاهرِ والباطنِ لنَيلِ السعادةِ الأبديةِ" .

ويقولُ الشيخ أحمد زروق رحمه الله :

" التصوف علمٌ قُصِد لإصْلاحِ القلوبِ، وافرادِها لله تعالى عما سِواهُ، والفقه لإصلاحِ العملِ وحفظِ النظامِ وظهورِ الحكمةِ بالأحكامِ، والأصولُ" علمُ التوحيدِ" لتحقيقِ المقدماتِ بالبراهينِ، وتحليةِ الايمانِ بالإيقانِ كالطبِ لحفظِ الأبدانِ وكالنحوِ لإصْلاحِ اللسانِ إلى غيرِ ذلك" .

وسُئلَ الجنيدَ عن التصوفِ فقالَ رحمه الله :

" هو أنْ تكونَ مع اللهِ تعالى بلا علاقةٍ .

وقال ابن عجيبة رحمه الله:

" التصوفُ هو علمٌ يُعْرَف به كيفيةُ السلوكِ إلى حضرةِ ملك الملوك، وتصفيةُ البواطنِ من الرذائل، وتحليتها بأنواعِ الفضائلِ، وأوله علمٌ وأوسطه عملٌ وآخره مَوْهِبَةٌ " .

وقال حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون عن التصوفِ :

" هو علمٌ يعرفُ به كيفيةُ ترقِّي أهلِ الكمالِ من النوعِ الإنساني في مدارجِ سعاداتهم إلى أن قال :

علمُ التصوفِ علمٌ ليس يَعْرِفُه	الا أخو فطْنَةٍ بالحقِ معروفُ
وليس يعرفُه مَنْ ليس يَشْهَدُهُ	وكيف يَشهدُ ضوءَ الشمسِ مكفوفُ؟

وقال الشيخ زروق في قواعد التصوف:

" وقد حُدَّ التصوفُ ورُسِمَ وفُسِّرَ بوجوهٍ تبلغ نحوَ الألفين مرجعها صدق التوجه إلى الله تعالى " .

فعمادُ التصوفِ تصفيةُ القلبِ من أوضارِ المادةِ، وقِوامُه صِلَةُ الإنسانِ بالخالقِ العظيمِ، فالصوفيُّ مَنْ صَفَا قلبُه لله، وصفتْ لله معاملتُه، فصفتْ من الله تعالى كرامتُه.

وجاء في مقدمة ابن خلدون في تعريف التصوف ص٣٢٨/ المطبعة البهية بالقاهرة.

"علمُ التصوفِ من العلومِ الشرعيةِ الحادثةِ في المِلَّةِ، وأصلُه عندَ سلفِ الأمةِ وكبارِها من الصحابةِ والتابعين، ومن بعدهم، طريقةُ الحقِ والهدايةِ، وأصلُها العكوفُ على العبادةِ، والانقطاعُ إلى الله تعالى، والإعراضُ عن زخرُفِ الدنيا وزينتِها، والزهدُ فيما يُقْبِلُ عليه الجمهورُ من لذةٍ ومالٍ وجاهٍ، والانفرادُ عن الخلقِ في الخلوةِ للعبادة.

وقديماً قيل: من تَفَقَه ولم يتصوفْ - يعني لم يعتنِ بطهارةِ قلبه ويخلصْ عملَه لله - فقد تفسَّقَ، ومَنْ تصوَّفَ ولم يتفقهْ فقدْ تزندقَ، ومَنْ جمعَ بينهما فقد تحقَّقَ.

وقال أبو يزيد البسطامي في نهاية الطريق: (لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى تربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة).

اشتقاق التصوف:

كَثُرتِ الأقوال في اشتقاق التصوف، فمنهم من قال" من الصوفة، لأن الصوفي مع الله تعالى كالصوفةِ المطروحةِ، لاستسلامه لله تعالى".

ومنهم من قال" من الصفاء، حتى قال أبو الفتح البستي رحمه الله:

تنازعَ الناسُ في الصوفيِّ واختلفوا	وظنَّه البَعْضُ مُشْتقاً من الصُوفِ
ولستُ أمنحُ هذا الاسمَ غيرَ فتىً	صَفَا فصوفيَ حتى سُمِّي الصوفيّ

وقيلَ: مأخوذٌ من الصفِ، واحدِ الصفوفِ، بمعنى أنَّ الصوفيَّ منْ حيثُ حياتُه الروحية والأذكار والعبادات والزهدُ في الصفِ الأول عند اللهِ، لأدائِه هذه الطاعاتِ ولاتصاله باللهِ تعالى اتصالَ صدقٍ وزُهْدٍ وعبادة، وكذلك نسبتُه إلى الصفِ الأول من أداء الصلواتِ في بيوتِ الله تعالى.

قال الإمامُ النقشبندي في رسالتِه: لقد انفردَ خواصُ أهلِ السنَّةِ المراعونَ أنفاسَهم مع اللهِ تعالى، الحافظونَ قلوبهم عن فوارقِ الغفلةِ باسمِ التصوف.

ومهما يكنْ من الأمرِ فإنّ كلمةَ التصوفِ قد شاعتْ وكثُرَ تداوُلها واستعمالُها في آخرِ القرنِ الثاني الهجري، أي في عصرِ الانتقالِ من دورِ الزهدِ إلى دورِ التصوفِ الحقيقي.

قال أبو نصرٍ عبدالله بن علي السراج الطولي المتوفى في سنة ٣٧٨هـ ٩٨٨م في كتابه اللمع في التصوفِ " وأما قولُ القائلين بأن اسمَ التصوفِ محدثٌ أحدثَه البغداديون فمحالٌ، لأنّه في وقت الحسنِ البصري كان يُعرف هذا الاسم ا.هـ.

وكان الحسنُ البصري رضي الله عنه المتوفى في سنة (١١٠) والذي أدرك جماعةً من أصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم، قد رُوي عنه أنه قال " رأيتُ صوفياً في الطوافِ فأعطيتهُ شيئاً فلم يأخذْه وقال معي أربعةُ دوانيق فيكفيني ما معي".

وروي عن سفيانَ الثوري رحمَهُ اللهُ تعالى أنه قال: لولا أبو هاشمٍ الصوفي ما عرفْتُ دقيقَ الرياء وأبو هاشم توفي سنة (١٥٠هـ) وقد ذكر في الكتابِ الذي جمعَ أخبارَ مكةَ عن محمدَ ابنِ اسحقَ بن يسارٍ وعن غيرهِ يذكر فيه حديثاً: إنه قبلَ الإسلامِ قد

دخلت مكة في وقت من الأوقات حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف، فإن صحّ ذلك فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان ينسب إليه أهل الفضل والصلاح والله أعلم.

ومن هنا نرى أن الله تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام، فنسبهم إلى ظاهر اللبسة فقال عز وجل: وإذ قال الحواريون " الآية، وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم الله تعالى إلى ذلك، ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها متوسمين، فكذلك الصوفية.

والظاهر، والله أعلم أنهم نسبوا الى ظاهر اللباس ولم ينسبوا إلى نوع من أنواع العلوم والأحوال التي هم بها متوسمون، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين، وشعار المساكين المتنسكين.

وقيل في تسمية أصحاب عيسى عليه السلام بالحواريين، إنهم كانوا قصّارين يغسلون الثياب، أي يحورونها وهو التبييض.

وقال بعضهم: إن الصوفية نسبةٌ إلى الصُّفة التي يُنسب إليها كثيرٌ من الصحابة، فيقال أهل الصفة، وأهل الصفة هم زهّادٌ من مهاجري الصحابة، فقراء غرباء، كانوا سبعين، ويقلّون حيناً ويكثرون لا مسكن لهم ولا مال ولا ولد، يسكنون صُفّة المسجد، وهو موضعٌ مُظلّلٌ في مسجد المدينة. يصاحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم على شبع بطونهم ليحملوا ويأخذوا عنه العلم والمعرفة وزعيمهم أبو هريرة رضي الله عنه.

أو نسبة إلى "صوفة بن مضر" وهو الغوث بن أد بن طابخة بن الياس ابن مضر، كانوا يخدمون الكعبة في الجاهلية، ويجيزون الحاج أي يفيضون بهم، وكانت العرب إذا حجت وحضرت عرفة لا تدفع منها حتى يدفع منها صوفة.

وأرجح الأقوال وأقربها إلى العقل: مذهب القائلين بأن الصوفي نسبة إلى الصوف، وأن المتصوف مأخوذٌ عنه أيضاً، فيقال تصوّف إذا لبس الصوف.

وجمهرة الصوفية يميلون إلى رد أسمهم إلى الصفاء حيث هذا هو مرادهم وهدفهم وغايتهم. والله تعالى أعلم وأعز وأكرم.

ومهما يكنْ من أمرٍ، فإن التصوفَ أشهرُ من أنْ يحتاج في تعريفه إلى قياسٍ لفظٍ واحتياجِ اشتقاق.

وإنكارُ بعض الناس على هذا اللفظِ بأنَّه لم يُسْمَعْ في عهدِ الصحابةِ والتابعين مردودٌ، إذْ كثيرٌ من الاصطلاحاتِ أُحْدِثَتْ بعدَ زمانِ الصحابةِ واستُعْمِلتْ ولم تُنْكَرْ كالنحوِ والفقهِ والمنطِق.

وعلى كلٍ فإنَّنا لا نَهتمُّ بالتعابيرِ والألفاظِ بقدرِ اهتمامِنا بالحقائقِ والأُسسِ، ونحن إذْ ندعُو إلى التصوفِ إنَّما نَقْصِدُ بهِ تزكيةَ النفوسِ وصفاءَ القلوبِ وإصلاحَ الأخلاقِ والوصولَ إلى مرتبةِ الإحسان، نحن نُسَمّي ذلك تصوفاً وإنْ شئتَ فَسَمِّهِ الجانبَ الروحي في الإسلام، أو الجانبَ الإحساني، أو الجانبَ الأخلاقي، أو سَمِّهِ إنْ شئتَ مما يتفقُ مع حقيقتهِ وجوهرِهِ، إلاَّ أنَّ علماءَ الأمةِ قد توارثوا اسمَ التصوفِ وحقيقتَه عن أسلافِهم من المرشدينَ مُنْذُ صدرِ الإسلامِ حتى يومنا هذا فصارَ عُرْفاً فيهم.

نشأة علم التصوف :

يقول الدكتور أحمد علوش: قد يتساءل الكثيرون عن السببِ في عدمِ انتشارِ الدعوةِ إلى التصوفِ في صدرِ الإسلام، وعدمِ ظهورِ هذه الدعوةِ إلا بعد عَهْدِ الصحابةِ والتابعين، والجوابُ عن هذا:

إنّه لم تَكُنْ من حاجةٍ إليها في العصرِ الأول، لأنّ أهلَ هذا العصرِ كانُوا أهلَ تقوى وورع، وأربابَ مجاهدةٍ وإقبالٍ على العبادةِ بطبيعتهم، وبحكم قُرْبِ اتصالِهم برسولِ الله صلى الله عليه وسلم فكانُوا يتسابقونَ ويتبارَوْنَ في الإقتداء به في ذلكَ كله، فلم يكنْ ثَمَّةَ ما يدْعُو إلى تلقينِهم عِلْماً يرشدُهم إلى أمرٍ هم قائمونَ بهِ فعلاً، وإنّما مثلُهم في ذلك كلهِ كمثلِ العربي القح، يعرفُ اللُّغَةَ العربيةَ بالتوارثِ كابراً عن كابرٍ حتى أنّهُ ليَقْرِضُ الشعرَ البليغَ بالسليقةِ والفِطْرَةِ دونَ أنْ يعرفَ شيئاً من قواعدِ اللُّغةِ والإعْرابِ والنَظْمِ والقَريضِ، فمِثْلُ هذا لا يلْزمهُ أنْ يتعلمَ النحوَ ودروسَ البلاغةِ، ولكنْ علمُ النحوِ وقواعدُ اللُّغةِ والشعرِ تُصْبحُ لازمةً وضروريةً عند تَفَشّي اللحنِ وضعفِ التعبيرِ، أو عندما يصبحُ هذا العلمَ ضرورةً من ضروراتِ المجتمعِ كبقيةِ العلومِ التي نشأتْ وتألفتْ على توالِي العصورِ في أوقاتها المناسبة.

فالصحابةُ والتابعون. وإن لم يَتَسموا باسم المتصوفين. كانوا صوفيين فعلاً وإنْ لم يكونوا كذلك إسماً، وماذا يُراد بالتصوفِ أكثرَ من أنْ يعيشَ المرءُ لنفسه، ويتحلى بالزُهْدِ وملازمةِ العبوديةِ، والإقبالِ على اللهِ بالروحِ والقَلْبِ في جميعِ الأوقاتِ وسائرِ الكمالاتِ التي وَصَلَ بها الصحابةُ والتابعون من حيثُ الرقيُّ الروحي إلى أسمى الدرجاتِ، فهم لم يكتفوا بالإقرارِ إلى عقائدِ الإيمان بل قَرَنوا الإقرارَ بالتذوقِ والوجْدانِ وزادوا على الفروضِ بالإتيانِ بكلِ ما استحبهُ الرسولُ عليه الصلاةُ والسلام، من نوافلَ وعباداتٍ، وابتعدُوا عن المَكْرُوهاتِ فضلاً عن المحرمات، وكذلك كان شأْنُ التابعينِ وتابعي التابعين، وهذا العصورُ الثلاثةُ كانتْ أزهى عصورِ الإسلامِ وخيرَها على الإطلاق، وقد جاءَ عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قوله: "خيرُ القرونِ قرني هذا، فالذي يَليهِ والذي يليه".

فلما تقَادمَ العهدُ، ودخَلَ في الإسلامِ أممٌ شتى وأجناسٌ عديدةٌ، اتسعتْ دائرةُ العلومِ وتَقَسّمتْ وتوزعتْ بينَ أربابِ الإختصاصِ قامَ كلُ فريقٍ بتدوينِ الفنِ والعلمِ الذي يجيدهُ أكثرَ من غيرِه، فَنَشَأَ بعدَ تدوينِ النَحوِ في الصدرِ الأول، علمُ الفقه، وعلمُ التوحيد وغيرُهما.

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية وبالقلب والهمة مما دعا أرباب الزهد إلى أن يعملوا هم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وإجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم ـ كما يظن ذلك خطأً بعض المستشرقين ـ بل كان يجب أن يكون سداً للنقص واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بدّ منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى.

وقد بنى أئمة الصوفية الأولون أصول طريقتهم على ما ثبت في تاريخ الإسلام نقلاً عن الثقات الاعلام.

تاريخ التصوف:

أما تاريخ التصوف فيظهر في فتوى الإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه الله، فقد سئل عن أول من أسس التصوف؟ وهل هو بوحي سماوي؟ فأجاب "أما الأول ممن أسس الطريقة، فليعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو واحد من أركان الدين الثلاثة التي جعلها

النبيُ صلى الله عليه وسلم بعد ما بيّنها واحداً واحداً بقوله صلى الله عليه وسلم (هذا جبريلُ عليه السلام أتاكُم يعلمُكم دينَكم) وهو الإيمان والإسلام والإحسان.

فالإسلام طاعةٌ وعبادةٌ، والإيمانُ نورٌ وعقيدةٌ، والإحسانُ مقامُ مراقبةٍ ومشاهدةٍ "أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ فإنْ لمْ تكنْ تراهُ فإنَّه يراك".

ثم قال السيدُ محمد صديق الغماري في رسالته تلك: فإنَّه كما في الحديثِ عبارةٌ عن الأركانِ الثلاثةِ فمن أخلَّ بهذا المقام (الإحسان) الذي هو الطريقة، فدينُه ناقصٌ بلا شكٍ لتركِه ركناً من أركانه، فغايةُ ما تدعو إليه الطريقةُ وتشيرُ إليه هو مقامُ الإحسانِ بعد تصحيحِ الإسلامِ والإيمانِ.

قال ابنُ خلدون في مقدمته "وهذا العلمُ ـ يعني التصوف ـ من العلوم الشرعيةِ الحادثةِ في المِلَّةِ؟ وأصْلُه أنّ طريقةَ هؤلاء القومِ لمْ تزلْ عندَ سلفِ الأمةِ وكبارِها من الصحابةِ والتابعينَ ومَنْ بعدَهم طريقةُ الحق والهدايةِ، وأصلُها العكوفُ على العبادةِ والإنقطاعُ إلى اللهِ تعالى، والإعراضُ عن زُخْرُفِ الدنيا وزينتِها والزهدُ في ما يُقْبِلُ عليه الجمهورُ من لَذةٍ ومالٍ

وجاهٍ والانفرادُ عن الخلقِ والخَلْوةُ للعبادةِ وكان ذلك عاماً في الصحابةِ والسلفِ، فلما نشأَ الإقبالُ على الدنيا في القرنِ الثاني وما بعده وجَنَحَ الناسُ إلى مخالطةِ الدنيا اختصَّ المقبلونَ على العبادةِ بإسمِ الصُوفية.

ويَعْنِينا من عبارةِ ابنِ خلدون الفقرةُ الأخيرةُ التي يُقرِرُ فيها "أنَّ ظهورَ التصوفِ والصوفيةِ كانتْ نتيجةَ جُنُوحِ النَّاسِ إلى مخالطةِ الدنيا وأهلِها في القرنِ الثاني للهجرةِ" فإنَّ ذلكَ من شأنِه أنْ يتخذَ المقبلونَ على العبادةِ اسماً يميزُهم عن عامةِ النَّاسِ الذينَ ألْهَتْهُمُ الحياةُ الدنيا الفانية.

ومِنْ هذه النصوصِ السابقةِ يتبينُ لَنا أنَّ التصوفَ ليسَ أمراً مستحدثاً جديداً بل هو مأخوذٌ من سيرةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وحياةِ الصحابةِ الكرام، كما أنَّه ليسَ مستقىً من أصولٍ لا تَمتُ إلى الإسلامِ بصلةٍ كما يزعمُ أعداءُ الإسلامِ مِنَ المستشرقينَ وتلاميذِهم الذين ابتدَعُوا أسماءَ مبتكرةً، فأطلقوا أسمَ التصوفِ على الرَّهْبَنةِ البوذيةِ والكهانةِ والنصرانيةِ وغيرِها فقالوا تصوفٌ بوذيٌ وهندي.

ومن المعلوم أنهم يريدون بذلك تشويه اسم التصوف من جهة، واتهام التصوف بأنه يرجع في نشأته إلى هذه الاصول القديمة والفلسفات الضالة من جهة أخرى، ولكن الانسان المؤمن لا ينساق بتياراتهم الفكرية ولا يقع بأحابيلهم الماكرة ويتبين الأمور ويتثبت في البحث عن الحقيقة، فيرى أن التصوف هو التطبيق العملي للاسلام وأنه ليس هناك إلا التصوف الإسلامي فحسب.



أساس التصوف كما نفهمه ونعرفه

التصوف ثمرة الشريعة

فالتصوف هو علمٌ بأصولٍ يُعْرفُ بِهَا إصْلاحُ القلبِ وسائرِ الحواس.

فائدتُه: إصلاحُ أحوالِ الانسانِ لما فيه من الحَثِّ على تَصْفِيةِ الإعتقادِ وكمالِ الأعمالِ والسدادِ.

وما أحسنَ ما أُنْشَدَهُ ابنُ الحاجِ في كتابهِ المَدْخَل:

ليس التصوفُ لبسُ الصوفُ ترقعُه ... ولا بكاؤكَ إنْ غَنَّى المغنونا

ولا صياحٌ ولا رقصٌ ولا طربٌ ... ولا اختباطٌ كأنْ قدْ صِرْتَ مجنونا

بـل التصوف أنْ تصفو بلا كدرٍ وتتبع الحق والقرآن والدينـا
وأنْ تُـرى خاشعـاً مكتئباً على ذنوبك طول الدهرِ محزونـا

<u>ونظرة أخرى</u>

أطلق لفظ الصوفي والمتصوف بادئ الأمر مرادفاً للزاهد العابدِ، وللفقير المفتقر إلى رحمة الله تعالى المعرض من الدنيا .

وقد كانتْ أحكامُ الشريعةِ تُتلقى من صدورِ الرجالِ، ثـم نشأ تدوينُ علمِ الحديثِ، فكان أول ما توجهتْ إليهِ الهمـمُ، وانصرفتْ إليه الأفكارُ علـمُ الشريعة، بمعنى الأحكامِ العملية . وقد اعتبر الناسُ أن الاشتغال بهذا العلـم أي التصوف بعداً عن الدين .

وهنالك تطوّر معنى التصوفِ إلى ما يناسبُ الكمالَ في الدينِ الذي وُضع له اللفظُ أولاً كما سنُبيّن:

وقد ذكر ابن تيمية في رسالته "الصوفية والفقراء" أن الأمور الصوفية التي فيها زيادة في العبادة والأحوال، خرجت من البصرة، فافترق الناس في أمر هؤلاء الذين زادوا في أحوال الزهد، والورع والعبادة والاحوال، ما عُرِفَ من حال الصحابة، فقومٌ يذمونهم ويُنقصونهم، وقومٌ يجعلونَ هذا الطريقَ من أكملِ الطرقِ وأعلاها .

والتحقيق أنهم في هذه العباداتِ والاحوال يجتهدونَ، كما أنَّ جيرانَهم من أهل الكوفةِ مجتهدونَ في مسائلِ القضاءِ والإمارةِ ونحوِ ذلك .

وزاد قائلاً: لقد عُرِفَ أنَّ منشأَ التصوفِ كان من البصرة، وأنَّه كان فيها من يَسْلُكُ من طريقِ العبادة والزهد ماله فيه إجتهاد، وهؤلاء نُسبوا إلى اللَبسةِ الظاهرة، وهي لباسُ الصوف، فقيل في أحدهم صوفي، وليس طريقُهم مقيداً بلباسِ الصوفِ، ولا هم أوجبُوا ذلك، ولا علَّقوا الأمرَ به، لكن أُضيفوا اليه لكونِهِ ظاهرُ الحال ا .هـ .



والتصوف ظاهره وباطنه سيان

انقسم علم الشريعة إلى قسمين: الأول أنه علمٌ يدلُّ ويدعو إلى الأعمال الظاهرة التي تجري على الجوارح والأعضاء الجسمية، وهي العباداتُ، كالطهارة والصلاة والزكاة والصوم إلى آخره، وأحكامُ المعاملاتِ كالحدودِ والزواجِ والطلاقِ والعتقِ والبيوعِ والفرائضِ والقصاصِ، وسمي هذا العلمُ علمَ الفقهِ، وهو مخصوص بالفقهاءِ وأهلِ الفتيا في العبادات والمعاملات.

والثاني: علمٌ يدلُّ على الأعمال الباطنةِ ويدعو إليها، والأعمالُ الباطنةُ هي أعمالُ القلوبِ، وسُمي هذا العلم الثاني علمَ التصوف، وسمى المتصوفون أنفسَهم أربابَ الحقائقِ وأهلَ الباطن، وسموا من عداهم أهل ظواهرِ وأهل رسوم.

لذا ترى أخي القارئ حقيقةَ مرادِ الصوفيةِ، وأنهم قد أناطوا كلَ أعمالهم بالأحكام الشرعيةِ من غير تفريط ولا إضاعة، وأنا أرى أنْ لا فرقَ بينَ علماءِ الشريعةِ والحقيقةِ، وإن كانَ المؤرخونَ والكتّاب قسّموا ذلكَ وباينوه فعلمهُم -أي الصوفية- من الشريعةِ وللشريعةِ.

والتصوفُ في هذا المعنى عبارةٌ عن الأخلاقِ الدينيةِ، ومعاني العبادةِ التي تجمعُ بين العلمِ والعملِ، والتذوقِ والتلذذِ بهذا العملِ، حيثُ هو تطبيقٌ عمليٌّ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو كما ذُكِر العلم المبني على الإرادةِ التي هي أساسه ومجمعُ بنائِه، وهو يشتملُ على تفاصيلِ أحكامِ الإرادةِ وهي حركة القلب والسر، ولهذا سمي علم الباطن، كما أن علم الفقه يشتمل على تفاصيل أحكام الجوارح، ولهذا سمي علم الظاهر، وبذلك يتبين أن أولى خطوات التصوفِ في سبيلِ التكوين العلمي، كانت عبارةً عن نشأةِ علمِ الأخلاقِ الإسلامي قولاً وعملاً وفعلاً.

وذكروا أنَّ كل مَن يحيدُ عن هذهِ الطريقِ، ويبتعدُ عن أهلِ التحقيقِ، ويخالفُ ظاهرُهُ باطنَه، وباطنُه ظاهرَه، ويخلُّ بالقواعدِ الشرعيةِ المستنبطةِ من الكتابِ والسنةِ وإجماعِ الأمة، فهو خروجٌ عن الدينِ، وابتعادٌ عن طريقِ الخيرِ والنورِ والعلمِ والمعرفة، يستحق صاحبها الطرد من غيرِ هوادةٍ، ويستحق المقت من الله تعالى.

الصوفية المظلومة

مفهومُ الصوفية هو الصوفيةُ المفهومة، إذ هي الواضحةُ وضوحَ الشمس في رابعةِ النهار، وشرطيةُ ذلك موافقتُها لكتاب الله تعالى وسنةِ رسوله صلى الله عليه وسلم واتباعِ الصحابة رضي الله عنهم، في اتساقِهم وتناسقِهم مع سيد الرسالات جناب الحبيبِ المكرمِ رسولِنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

ومن الظُّلمِ في مكانٍ أن تتهمَ الصوفية وتُرمى بالضلالاتِ والمفارقات، وأن تُجعلَ في مصافِّ أهل البدعِ والزندقةِ والمارقةِ الفاسدين.

وشتانَ بين هذا وذاك، إذ البونُ عظيمٌ والفرقُ شاسعٌ. فالصوفيةُ نهجٌ واتباعٌ ونمطُ حياةٍ فذةٍ وبرمجةٍ غريبةٍ عجيبةٍ، وصمودٌ في الدين والواقعِ، وعلوٌ في الهمةِ، وانصهارٌ في بحرِ المعرفةِ، وذوبانٌ في باب التسليمِ، وثباتٌ على مناهج الرضا، والسيرُ في مسْلكِ تهذيبِ النفسِ وترويضِها على المخالفاتِ التي تدعو إلى الكمالِ.

أما تلك فهي ابتعادٌ عن نهج الله تعالى، وانحرافٌ عن سبيل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وانجرافٌ في تياراتِ الهوى، ومروقٌ من الضوابطِ الشرعيةِ وتحررٌ من الواجبات الربانية، وتخبطٌ في ضلالاتِ الفسْقِ والظلمةِ، وسيرٌ في جوْرِ النفسِ وانكماشِها عن اتباع الفطرةِ، وسعيٌ وراءَ سرابٍ من الأوهامِ، وتأبطُ الشكوكِ والريْبةِ، وكفرانُ النعمِ، وكفرٌ بالمنْعمِ، وتركُ جانبِ الهدى، والغوصُ في مضلاتِ الفتنِ والردى.

والانسانُ العاقلُ المنْصِف، والعالمُ المفكرُ الواعي، والذي هو أداةُ خيرٍ لدينه وأمته، هو من يَزِنُ الأمورَ كلَها بميزانِ الشرْعِ والدين. إذ الشرعُ ميزانُ الأمورِ كلِها، وحاصلُ لاصلِها وفرعِها. لا بميزانِ الهوى والغاياتِ النفسيةِ المميتة. ولا بالعاطفةِ الجاهلةِ التي لا تعي حقائقَ الأمورِ، بل ينبغي على المنْصفِ العادلِ أن يضعَ الأمورَ في نصابِها، ويعطي الحقوقَ

لأصحابها، ونسب الفضل لأهله، وأن لا يداهن بحكمه وعلمه وعدله، فقيوم السموات والأرض مطلعٌ عليه، لا تخفى عليه خافيةٌ في الأرض ولا في السماء.

وأكثرُ البلايا التي أحاطت بالأمة إحاطة السوار بالمعصم، وأغلب المحن التي رُميت بها الأمة، هي التعصب والهوى وإعجاب المرء بنفسه وعلمه، هذه الصفات وغيرها قد ألحقت بالأمة الأذى وجعلت بين أفرادها تفرقاً وتمزقاً وعداوةً وحسداً وبهتاناً وشماتةً وبغضاً.. وغير ذلك.

إذ كل فريق بما لديهم فرحون، يبتهجون ويتباهَوْن ويتنزاهون ويتمارَوْن، ويترفعون مرة بادعاء العلم الصحيح على غيرهم، ومرة بالقوة والضغط، ومرة ببذر الأموال يمنة ويسرة، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً ويُسْدُون للدين خدمةً لم يقدم أحدٌ مثلها، ولا يمكن أن يُقدم مثلها، وفوق هذا كله ينادُون بأنهم هم الفرقة الناجية، وهم الذين اقتدوا بأهل الخيرية الأولى، وأنهم هم السابقون إلى الجنان، وهم فقط على نهج السنة النبوية يغترفون منها وينهلون من نبعها.

وأطلقوا على أنفسهم لقباً خاصاً، ميزوا به أنفسهم، ولبسوا دثاراً خاصاً، ومسوحاً معينةً، وأرادوا أن يُلفتوا نظرَ العالم، فأتوا كما زعموا بالفوائدِ والفرائد، وتزودوا بالعجائب والغرائب، وتسربلوا بوابل من الحبائل، وزهدوا بالذين اجتهدوا وصانوا الدين، وقلبوا لكثيرٍ من العلماء ظهر المجن وتنكبوا عن طريق الحق لمجموعة كبيرة من العلماء الافذاذ .

وادعوا بجرأة أنهم هم الذين يحملون من علمِ أفاد الأمة جمعاء، وادعوا أحقيتَهم بوسائل عديدةٍ وغريبةٍ ومثيرة، وظلموا بهذه الأساليب العديدَ من المخلصينَ العاملين، وقلَّ من سَلِمَ من لسانهم وأقلامهم .

وعلى رأسِ أولئك المظلومينَ الصوفيةُ التي لم يفهموا عليها، فحُرموا لوامع أنوارِها وبهاء صفائها، وصواب منهجيتها .

ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم .

الصوفي هو
العالم العامل

الصوفي هو من صفا قلبه لله تعالى من شواغل الدنيا، وفرّغ نفسه لطاعة مولاه بصدقٍ لا يخالطه كذب، وسكن قلبه لخالقه مع التسليم المطلق، واستغرق كله حب الله تعالى فاستكمل الايمان، ووجد حلاوة الايمان فتقلّده حتى ظهرت ينابيع الحكمة على لسانه وقلبه ويديه، وتقلّب مستغرقاً في نعم الله يلهج لسانه بالذكر والشكر والثناء على المنعم المتفضل، وأسهر ليله بأداء الطاعات والعبادات، وأظمأ نهاره بالالتزامات والصيامات، وسعى بكدِّه لكسب الحلال من الرزق حتى يستنير قلبه، وكفّ نفسه عن الميول إلى ما في أيدي الخلائق، ومتأسياً في كل ذلك بسيد المخلوقات رسول الله إلى العالمين سيدنا ومولانا عليه صلوات ربي دوماً .

هذا هو الصوفي في مفهومنا، وتعاليمنا، ونظرتنا، وأسلوبنا، عملٌ دائمٌ وشغلٌ متواصلٌ من غير كللٍ ولا مللٍ. يحوطُ ذلك تواضعٌ لا مثيلَ له من غيرِ غرورٍ ولا تكبرٍ ولا ترفعٍ.

وبصدقٍ نقول: تلك هي القواعد الأساسيةُ التي سطَّرها الصوفيةُ أهلُ اللهِ والتي قد دلت بجملها على عقيدةٍ راسخة، وتوكلٍ كبيرٍ، وثباتٍ على أوامرِ الله، وعلمٍ رصين، وصيانةٍ لشرع الله، وعدمِ تناقضٍ في الدين، كما أنها امتلاءٌ من الفكرِ الرائعة كالإيثار عند الوجودِ، وعدمِ الإشراك عند أداءِ الواجب لله المعبودِ، وعدمِ الاشراك عند القيام بالأعمال والدعوات مع سلامةِ القلب، وصدق المناجاةِ، وتركِ حطامِ الدنيا، ومحاسبةِ النفس، وتركِ الآمالِ الزائفةِ، والمحافظةِ على الأعمال الصالحة.

وإني أضع بين ناظريك ـ أخي القارئ المنصف ـ هذه النماذج الرائعة من أقوال السادة الصوفية أهل الطريق ليتبين لك حقيقة نهجهم وسلوكهم، وصفاء حياتهم، وحقيقة نفوسهم، ورقة قلوبهم، وبعد نظرهم، وهذا من خلال تلك القواعد العظيمة التي خرجت من بين ثناياهم يحوطها الاخلاص والصدق والوفاء. حتى غدت قواعد رصينة مثبتة، سليمة

من الكذب والشوائب مهما حاول المغرضون تعميتها أو إزالة آثارها، أو تشويه صورة حقيقتها، فألسنتهم على مدى الدهر ناطقة لا تتغير ولا تتبدل شامخة شموخ الجبل الأشم .

انظر وتأملْ في القاعدةِ الرائعةِ التي هي رأس مال الصوفيةِ، ونظرتهم إلى هذه الطريقة الجلية الواضحة .

قال أبو القاسم الجنيد رحمة الله عليه:

عِلْمُنا هذا مقيدٌ بالكتاب والسنة، فمنْ لم يقرأْ القرآن، ويكتبِ الحديثَ، لا يصْلُحُ له أن يتكلمَ في عِلْمِنا، أو قال: لا يُقتَدَى به .

وقال أبو عثمان النيسابوري من أمَّرَ السنةَ على نفسِه قولاً وفعلاً نطقَ بالحكمةِ، ومن أمَّرَ الهوى على نفسِه قولاً وفعلاً نطقَ بالبدعةِ، لأنَّ الله تعالى يقولُ في كلامه القديم: "وإن تُطِيعُوه تَهْتَدُوا" .

وانظر إلى جمال قول الامام الشيخ معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠ هجرية عندما قال: "التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الناس" .

عندها تزداد همتك حتى تنهل من العلم وتأخذ بالحقائق التي خلت من كدورات العقائد، وفوق هذا تترك ما في أيدي الناس تسليماً لقضاء الله تعالى.

وهذا تفسير لقول سيد الخلق صلوات ربي عليه دوماً عندما سُئل: من قبل الصحابي الجليل يا رسول الله دلّني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس قال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس.

وقد أحسن الصوفي بشر الحافي المتوفى سنة ٢٢٧ هجري، والذي أفصح عن المقاصد الحسنة، والمعاني السامية حيث وصف الصوفي وصفاً مطابقاً لما يَحْمِل من اسم طيب فقال: "الصوفي من صفا قلبه لله" فإذا كان القلب لله تعالى لا يحمل غشاً ولا خداعاً ولا كذباً ولا زوراً ولا بهتاناً فقد صفا وهو صوفي.

وقد قال الله تعالى: "يومَ لا ينفعُ مالٌ ولا بنونَ إلاَّ من أتى اللهَ بقلبٍ سليم" الشعراء ٨٨ ، هذا هو القلبُ المرادُ المعولُ عليه والمقصودُ، كما ذكر رسولُنا الأكرم: "إنَّ في الجسدِ مضغةً إذا صلُحت صلُحَ الجسدُ كلُه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُه، ألا وهي القلب" . أخرجه البخاري .

والقلوبُ كما ذُكِر أربعة:

الأول: قلب أجرد فيه السراجُ يُزْهِرُ، فهو قلبُ المؤمنِ سراجُه نورٌ .

الثاني: قلبٌ أغلفُ مربوط عليه غلافه وهذا قلبُ الكافرِ الضّال .

الثالث: قلبٌ منكوس. مقلوب. فهذا قلبُ المنافقِ الذي عَرَفَ فأنْكَر .

الرابع : قلب مُصَفَّحٌ وهو قلبٌ فيه إيمان ونفاق .

فمثلُ الإيمانِ فيه كمثلِ البَقْلةِ يمدُها الماءُ الطيب، ومثلُ النفاقِ فيه كمثلِ القرحةِ يمدُها القيحُ والدم، فأي المادتينِ غلبتِ الأخرى غلبتْ عليه . لذا فإنَّ القلبَ يحتاجُ دوماً لعلاجٍ فعّالٍ مؤثِر .

كما أنَّ أولَ من بحثَ في المعرفةِ وتعمقَ بها ونظرَ فيها نظراً دقيقاً هو ذو النونِ المصري، حيثُ كانَ شيخَ الطائفةِ فقد أخذوا منه وإليه انتسبوا .

فقد رأى رضي الله عنه أنَّ غايةَ الحياةِ الصوفيةِ ومقصدَها العالي، أنْ يصلَ الصوفيُّ إلى مقامِ المعرفةِ، وهو مقامٌ تتجلى فيه الحقائقُ من غيرِ لبسٍ فيدركها إدراكاً يتذوقُه لا أثرَ فيه للعقلِ ولا للفكرِ والروية .

وهذا المقامُ لا يكونُ إلاَّ لمنْ خصَّه اللهُ تعالى وجعلَه من أهلِه .

وورد عنه أنه قال: بمقدارِ ما يَعْرِفُ العبدُ من ربِه يكونُ انكارُهُ لنفسِه .

ولما سُئِلَ عن الصوفيةِ قال: هم قومٌ آثروا اللهَ على كلِ شيء، فآثرهم اللهُ على كلِ شيء .

ومن البديهي القولُ إن روائعَ أقوالِهم المتناسقةِ مع أفعالهم، هي بحرٌ لا ساحلَ له، حتى وقفَ الناس على شواطيء علومِهم ينهلونَ منها ويصطادون من موائدِها .

لذا قيل إنّ ذا النون المصري المتوفى سنة ٢٤٥ هـ هو أول من بحث في المعرفة.

ويسوقنا المقام لنسمع ما هو التصوف المنوط بالصوفي من الولي العارف بالله السري السقطي المتوفى سنة٢٥٧هـ رحمه الله تعالى فقد قال التصوف اسم لثلاثة معان:

أولاً: هو الذي لا يُطفىءُ نورُ معرفتِه نورَ ورعِه.

ثانياً: هو الذي لا يتكلمُ بباطنٍ من علمٍ ينقضُه عليه ظاهرُ الكتابِ والسنة.

ثالثاً: هو الذي لا تحمله الكراماتُ على هتكِ أستارِ محارمِ الله.

ما أروعَ هذه الكلمات، وأحلى تلكَ العبارات التي هي قواعدُ راسخةٌ عليها مدارُ التصوفِ ومسالكُ أهلِ الطريقِ والتحقيق. وكلُ ما جاوزَ ذلك فهو سقيمٌ لا خيرَ فيه، ولا فائدةَ تقتضيه، ولكل فذ من أهل طريق التحقيق أسلوبُه، كما أن له نظرته السديدة الرشيدة.

وقد قال سهل بن عبد الله التستري المتوفى سنة ٢٨٣ هـ.

الصوفي من صفا من الكدر.

وامتلأ من الفكر.

وانقطع إلى الله من البشر.

واستوى عنده الذهب والمدر.

وهذا كلام فيه غاية الإبداع، رسماً لسلوكِ أهل هذا الطريق، ودليلاً على سلامةِ أهدافهم، وحتى لا يتركوا لأي مغرض أو ذي عقل جامد أي أعتراض أو تشويه.وقد ذكر الأمام الجنيد رضي الله عنه المتوفى سنة ٢٩٧ هـ أجمل وصف للصوفي الصادق المستسلم لله في كل أموره وأحوالِه.

فقال: التصوف هو من يكون مع الله بلا علاقة.

ومن أحسَّ قلبُه السلامةَ من الدنيا، كما أحسَّها قلبُ ابراهيمَ أطاع أوامر الله.

ومن كانَ تسليمُه كتسليمِ اسماعيل.

وحزنُه كحزنِ داودَ.

وفقرُهُ كفقرِ عيسى.

وشوقُه كشوقِ موسى في مناجاته.

واخلاصه كإخلاصِ محمدٍ صلى الله عليه وسلم.

فهذا الذي يصدقُ عليه هذا اللقبُ السَّامي المكرَّم

وخلاصة ما تقدم أن العلم والتصوف على المعنى الذي مضى. توأمان لا ينفكان، فكيف يكون عابداً صوفياً على غير علم ومعرفة، ولم يصل أولئك الصالحون إلى المراتب العالية إلا بالعلم والعمل.

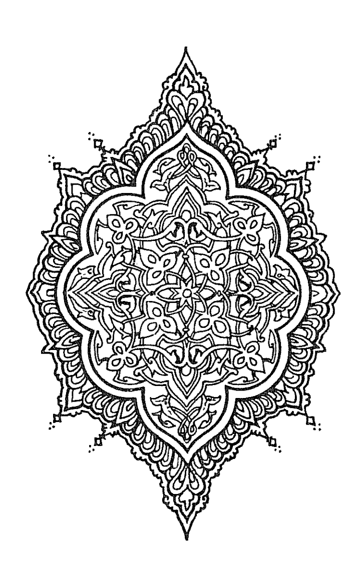
قال الحسن البصري رحمه الله تعالى مقتبساً من معاني أقوال الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه: "لو كان للعلم صورة لكانت صورته أحسن من صورة الشمس والقمر والنجوم والسماء".

وقد قال معاذ بن جبل رضي الله عنه:

"العلم حياةُ القلوبِ من الجهل، ومصباحُ الأبصارِ من الظلمة، وقوةُ الأبدانِ من الضعف، يبلغُ بالعبدِ منازلَ الأحياءِ والأبرار، والدرجاتِ العلى في الدنيا والآخرة،

والتفكر فيه يعدل الصيام، ومذاكرته تعدل القيام وبه توصل الأرحام، ويعرف الحلال من الحرام، وهو إمام والعمل تابعه، ويلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء .

نقله الحافظ ابن رجب في شرح حديث العلم ص ٣٥/٣٣ .



التصوف والتحلل من الشريعة الاسلامية

في كل مجال وميدان من الميادين، تجد الأدعياء، تجدهم في الميدان الديني، وفي الميدان السياسي، وفي الميدان العلمي، وتجدهم كذلك في ميدان التصوف، وهدف هؤلاء الأدعياء في هذه الميادين معروف: إنه الاستفادة المادية من أقصر الطرق، والوصول إلى الوجاهة الاجتماعية، والعلو والرفعة، وكما لا يضر الدين، ولا يضر العلم أن ينتسب إليه الأدعياء المزيفون لأن الله حافظ دينه ووعد على ذلك كذلك الأمر فيما يتعلق بالتصوف، إذ لا يضر من ادعى انتسابه إليه من غير وجه معتبر ومن غير بينة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وكما أن للدين وللعلم حقائقَ معروفة، وسماتٍ معينةً وحدوداً من شأنها أنْ تُظهرَ زيفَ المزيّفين، وباطلَ المبطلين، كذلك الأمر في الجانب الصوفي. فمن أسرَّ سريرةً ألبسهُ اللهُ رداءَها ولو بعدَ حين، وقد ظهرتْ بدعةٌ ضالةٌ في الجانبِ الديني عموماً، وفي الجانبِ الصوفيِّ خصوصاً، وهذه البدعة ترى أنَّ الشخصَ الذي وصلَ إلى مرتبةٍ معينةٍ من المعرفةِ يُسْقِطُ عنه التكاليفَ الشرعية، فليسَ عليه صلاةٌ ولا زكاةٌ ولا حجٌّ.. ولا غيرُ ذلك مما يلتزمُه المسلمون.

وقد رأيتُ وعلمتُ أنَّ بعضَهم لا يصلي، ولا يصوم، مدعياً أنَّ له حالةً غريبةً مع الله فيترِكُ صلاةَ الجمعةِ والجماعةِ.

ومن المؤسفِ أنْ تكونَ هذه الفكرةُ قد نشأتْ بينَ رجالٍ درسوا التشريعَ، ويزعمونَ أنهم وصلوا إلى درجةٍ من المعرفةِ الصوفية العليا، إلى حَدٍ لا تجبُ عليهم فيه التكاليفُ الشرعيةُ، إما مؤقتاً أو عندما يشعرون بأحوالهم خاصة، وإذا بحثت عن مصدرِ هذه الأحوال ترى أن الشيطانَ قد سوّلَ لهم وأغراهم، والطامة أنَّ لهم مريدين وأتباعاً

يصدقونهم ويسيرونَ معهم ويدافعون عنهم . فأولئك كما ذكر الإمام الجنيد رضي الله عنه أنهم وصلوا ولكن إلى سقر.

وهؤلاء قد أضروا الدينَ من ناحيتين:

الناحيةُ الأولى أنهم استمالوا قلوبَ الضعفاءِ من النّاسَ فسخروهم لخدماتِهم، وتسلطُوا عليهم بنفوذِهم، وتبيان ألسنتِهم، وكذب ادعاءاتِهم، وانْ حاولَ أحدُهم الاستفسارَ عن ما يجولُ في خاطرِه اتهموا عقلَه بقصورِ فهمِ مقاصدِهم وعلوِ حالهم . . فضلوا وأضلوا .

ومنذُ سبع سنوات أتاني رجلٌ كبيرٌ في السن، ذو لحيةٍ طويلةٍ متعثكلة، وتحتَ رأسِه شعرٌ قد تدلى فوقَ أذنيه، وفي وجهه تقاسيم الكذبِ والخداع، يسترُ خداعَه وغرورَ ادعاءه تحتَ السنينَ التي أطالتْ عمرَه، وقد تأبطَ مصحفاً، وكان وقتُ صلاة الظهر فأديناها جماعةً فلم يصلِ معنا، فجالسَني وحادثَني إلى أنْ أسرَّ لي، بأنه نبيٌ من الأنبياء، وأنَّ الله قد أوحى له، وأمره أن يبلغَ الدعوةَ إلى العلماءِ في لبنان .

ثـم حصلتْ مناقشةٌ محكمةٌ بيني وبينَه فوجدتُه خاويَ الوفاض، مفلساً من كلِ جانبٍ لا يُحْسِنُ تلاوةَ القرآن، ولا يحفظُ حديثاً ولا فقهاً، فهو أشدُ الناسِ جهلاً، فناقشتُه وجادلتُه وناظرتُه، فلو رأيتَه حينَ خروجِه على قفاه، يجرُ ثوبَ الخيبةِ والعارِ والانكسارِ وراءه.

ولو كنتَ في دولةٍ تقيمُ حدودَ الله لاستحق الحدَّ والتنكيل، فما أكثرَ الذين يدَّعون الكمال، وهم أراذلُ الناسِ وسفاؤهم، وكمْ من مدعٍ ظهرتْ له علاماتُ الحقِ فاخرستْ لسانَه.

ومنذ سنتين خلتْ، أتاني شابٌ يافعٌ بلغَ من العمرِ ثلاثين سنةً، وهو طبيبٌ متمرسٌ كان يحضرُ مجالسَ التدريس والإقراء في المسجد، ولكني كنتُ أرى بينَ عينيهِ سراً لعيناً، وضلالاً دفيناً، إلى أن أتاني زائراً إلى المنزل، فنادمني ساعةً من الزمن، وعلمتُ أنه تاركٌ للعباداتِ والصلواتِ، مدعياً أن له عروجاً إلى السموات، يأخذ هذه الأسرارِ من شيخٍ كذابٍ مثلِه، إلى أنْ أخرجَ من جيبِهِ وريقاتٍ فيها نمطٌ من الكلمات، يريدُ بها أن يُسلّكني عندَه، وأن يجعلَني من المريدين لديه، والويلُ لي انْ لمْ أتبعْه، وهو مأمورٌ بذلك كما يدّعي، فبينت

له ضلاله، وأوضحت له أخطاءه، وعرفته أنه غارق في بحر الباطل، ومزالق الشيطان والهوى، فلم يلتفت إلى ذلك فصرفته بالتي هي أحسن، ولم أعد أرى له وجهاً أو خبراً .

وغير أمثال هؤلاء كثيرون، ما زال زمن الباطل يجود بمثلهم، ويتبعهم ضعاف العقول والقلوب .

الناحية الثانية:

أن هؤلاء وأمثالهم، سلطوا الألسنة على صفاء هذا الطريق، فأضحى رجال دينهم قياس الحق على الباطل وقياس الزور على الخير، والنور على الظلمات .

فإذاً طريق أهل الله الصوفية، هو طريق الحق والخير والنور، فإذا ما رأى الناس تصرف هؤلاء الجماعة وما هم عليه من الباطل والزور والظلمات، خلطوا الحابل بالنابل، ومزجوا العالي بالسافل، وسووا بين العلم والجهل .

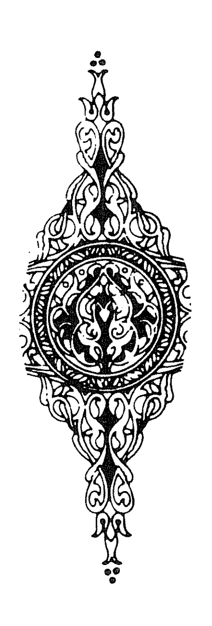
فكان هؤلاء هم السبب في تضييعهم وتجردهم واختلاطهم .

ولو نظروا بعينِ الحقِ والعدلِ لأنصفوا وفرقوا وعلموا أن للجنةِ أهلاً وللنارِ أهلاً .

ولا نقول إنهم معذورون لالتباسِ الحقِ عليهم ، ولاشتهارِ هؤلاءِ الصنفين بل ينبغي عليهم التبصرُ والاستعلامُ والنظرُ بعينِ الحقِ والعدلِ والعلمِ .

اللهم إنا نبرأ إليك مما يفعلون من باطل ومما يعتقدون بأن ترك العمل بالشريعة جائز .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



الشطحات الصوفية

كما هو معروف ومألوف أنه ما من قاعدةٍ إلا ولها شذوذ، وما من عملٍ إلا ويشوبه شيءٌ من النقصِ والتغيير والتبديل. وبعضُ الصوفية جرتْ على ألسنتِهم شطحاتٌ غيرُ مألوفة، وتجاوزاتٌ غيرُ معروفة، كما أنه بدتْ منهم أفعالٌ لا تستقيم ظاهراً، وحصلت منهم تصرفاتٌ يمجّها العقلُ والطبع، ولا يستسيغها الشرعُ ولا تقرها العقولُ السليمة.

وربما تجدُ من يبررُ ذلكَ ويأخذُ نصوصَهم ويتبع أساليبَ التأويل، ويجعلُ الأعذار وغير ذلك.

فما هو الموقفُ الذي ينبغي أن يقفَه المرءُ من غير تعصبٍ ولا مغالاة.

من البديهي القول، أنّ القاعدةَ المتبعةَ والتي تؤيدُها الشريعةُ الغراءُ من كتابٍ وسنةٍ واجماعِ أمة، أنّ كلَ من نطَقَ أو فعلَ أو تصرفَ أو أتى بما يناقضُ ظاهرَ الشريعةَ الاسلامية، والنصوصَ النبويةَ المتواترة، فهو قد أخطأَ الصوابَ، ومالَ عن طريقِ الحق، وابتعد عن النهجِ السويِّ، واتّبعَ طريقَ الردي.

ولذلك لمّا صدرَ من الحلاجِ الحسينِ بنِ منصورٍ أفعالٌ وكلماتٌ تناقضُ جوهرَ الإسلامِ وتغيرُ طريقَ أهلِ الله، أفتى العلماء بإقامة حدِ القتْلِ عليه فقتل، حتى قال الجنيد: قتلناه بظاهرِ الشريعة.

فلا يجوز لامرىءٍ أن يُلقْيَ الكلامَ جزافاً يمنةً ويَسْرةً، ويدّعي بعد ذلكَ بأن ذلك شطحاتٍ جرتْ على لسانه ويديه.

بيدَ أنَّ هناكَ بعضَ الأقوالِ والأفعالِ التي تجري على يدِ بعضِ الخواص، أو يكونُ لهم حالٌ مع الله تعالى، أو يكونُ فعلُهم أو كلامُهم جواباً عن سؤالٍ، أو اتمامَ فائدةٍ، أو يقصدونَ في ذلك كلِه مخاطَباً معيناً معلوماً عندهم، عندها لا ينبغي أن يُحملَ كلامُهم على وجهِ الإطلاق او العموم، لأنه مخصوصٌ لجماعةٍ معينةٍ، وأشخاصٍ قصدوا خطابَهم ذلك، وهذا ينبغي أن يُعلمَ بالقرائنِ والاستقراءِ، حتى لا نتهم الآخرين، ونقللَ من شأنِهم، ونُعرِّضَ إيمانَهم وإخلاصَهم للزلل والانهيار.

ومن هذا الجانب الدقيق كان لأصحابِ الخصوصياتِ من أهلِ هذا الطريق أحْوالٌ عند الله تعالى، يناجونَ فيها خالقَهم ويتلذذونَ بمناجاتِه ومخاطبتِه بقلوب المشاهدةِ، وهذا خاص بهم ولهم، فلا يُعمَّمَ كلامُهم مطلقاً.

حتى أنني سمعتُ من شيخي الشيخ الولي العارفِ باللهِ الشيخ محمود بعيون الرنكوسي رحمه الله تعالى أنه قال مرةً لبعض تلاميذِه وكنت منهم:

قال: يا أولادي إن بعضَ الناسِ لم يفهموا على الولي العارفِ باللهِ الشيخ محي الدين بن عربي فكفّروه، كفّروه من خلال أقوال في فتوحاته المكية، ولم يَعْلمُوا أنّ هذا الكتاب كان جواباً عن سؤالٍ لتلميذٍ سألَه إياه من بلادِ التّكرور، فردّ عليه بهذه الأسفار فكانت جواباً عن سؤاله.

وهذا أروع مثلٍ يدلك أنه ليس كلُ كلامٍ يصدرُ من إنسان يؤخذُ فيه ويُحْكَمُ عليه به، بل ينبغي الوقوفُ حقيقةً على مرادِ الأحوال والأقوال والنصوص، وعلى معرفةِ المرادِ من هذه الأقوالِ والنصوصِ والأحوالِ، عندها نَحْكُم، حتى لا نَظْلِمَ أحداً، أو نضعَ الحقَ في غيرِ نصابِه، ونستعملَ العقلَ في غيرِ صوابِه.

وحقيقةُ هذه العباراتِ والأقوالِ والتصرفاتِ والأفعالِ مشاهداتٌ جسّدها الله تعالى لأوليائه فأنار قلوبَهم، فرأوها حقيقةً قبل حدوثِها وصدورِها، أو بإلهامٍ منه جلَّ جلاله.

والدليل على ذلكَ، أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى الصحابي الجليل حارثة رضيَ الله عنه فقالَ له: كيف أصبحتَ يا حارثة، قال: أصبحتُ مؤمناً ولله الحمد يا رسول

الله. قال: انظرْ ماذا تقول فإنّ لكلِ شيءٍ حقيقة ما حقيقة إيمانك، قال يا رسول الله: أظمأتُ نهاري، وأسهرتُ ليلي، فاستوى عندي تراب الدنيا وذهبها، ونظرت إلى عرشِ ربي فرأيته بارزاً ورأيتُ أهلَ الجنةِ في الجنةِ يتنعمون، وأهلَ النارِ في النارِ يتعذبون، قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حارثة عرفتَ فالزم.

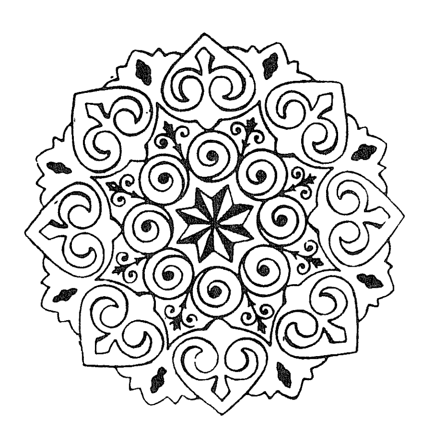
نعم هذه هي الطريقة المتبعة التي رَامُوا بها الوصول إلى الحقيقة الصافية فوصلوا إليها وزالَ اشتباهُهم وعادَ إلى الصواب اشباهُهم، أخرجُوا أنفسَهم من دائرةِ الظلمِ والظلامِ، إلى وابلِ النورِ والخيرِ والإقدامِ.

ولا يقال هذا شطح، لأنَّه مهما ذكر -مَنْ أنارَ الله قلبه- من مكاشفات وان كان ظاهرها على غير حقيقة القواعد، فلا بد أن يعود ويرجع لأن أولياء الله يحفظهم الله تعالى من التخبطِ والضلال.

ولا يحتاج هذا إلى كثيرٍ من التفكيرِ، ولا إلى ما يُطرح على مائدةِ التفسيرِ للحكم عليهم بمخالفةِ الكتابِ والسُنَّةِ وأهلِ العلمِ والمعرفةِ بهذه الفِعَالِ والأعمالِ،

والأقوالِ ولا يُنْكِر ما ذكرتُ إلا مغْرِضٌ صاحبُ هوى استعملَ هواه وتَحَكَّمَتْ به شهوتُه، أو مُعْجَبٌ بنفسِه يميلُ معهَا من غيرِ النَظرِ الجَليّ إلى كمالِ هذهِ القواعدِ المقتبسةِ من رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم.

وما قصةُ الخضرِ مع موسى عليهما السلامُ إلا دلالاتٌ واضحةُ المعاني، بينةُ المباني لا يزيغُ عنها إلا مخطئٌ ولا يتهمُ أصحابَها بالسوءِ إلا قصيرُ الباعِ والنَّظرِ.



أسئلـــة مهمـــة

إنه لمن المؤكد في علم السلوك. علم التصوف. أسئلة تطرح نفسها وتظهر للعيان أجوبتها ليدرك البعيد حقيقة السلوك، ويزداد القريب قرباً وروحاً وصفاءً واخلاصاً، وإني رافع بين ناظريك أسئلةً أراها حتمية لمن أراد أن يستوضح ما أبهم عليه، ويصل إلى باب التفصيل مما أجمل في ذهنه: والأسئلة هي:

أولاً: علام بُني التصوف؟

قال ابو محمد رويم رضيَ الله عنه:

التصوف بُنيَ على ثلاثِ خصالٍ: التمسكُ بالفقرِ والإفتقار، والتحققُ بالبذلِ والإيثار، وتركُ التعرضِ والاختيار.

وقال معروفُ الكرخي:

التصوفُ هو الأخذُ بالحقائقِ، واليأسُ مما في أيدي الخلائق.

وقال سهلُ بنُ عبد الله:

الصوفي مَنْ صفَا من الكدرِ، وامتلأَ مِنَ الفكرِ، وانقطعَ إلى اللهِ تعالى عن البشرِ، واستوى عنده الذهبُ والمَدر.

ومن هنا نرى أنه قد تعدد التفنُن لإقتباس ما بُنِيَ عليه التصوف من هذه المعاني الرائعة التي تخالط بشاشة القلوب، وترقق النفوس. فاتحدتْ فيها صفات لا تدرك إلا بأحاسيس ذاتية شفافة رائعة.

ثانياً: ما هي أصول طريق التصوف؟

هي خمسة:

١ـ تقوى اللهِ في السرِ والعلانيةِ، وتحقيقُها بالورعِ والإستقامة.

٢ـ اتباعُ السنَّةِ في الأقوالِ والأفعالِ، وتحقيقُها بالتَّحفُظِ والعملِ وحُسْنِ الخُلقِ دوماً.

٣ـ الإعراضُ عن الخلقِ في الإقبالِ والإدبارِ، وتحقيقُها الإعراضُ عن الخلقِ بالصبرِ والتوكلِ والمصابرةِ والتسليمِ .

٤ـ الرضا عن اللهِ تعالى في القليلِ والكثيرِ، وتحقيقُه بالقناعةِ والتفويضِ والرضا بالقضاء .

٥ـ الرجوعُ إلى اللهِ في السراءِ والضراءِ، وتحقيقُه بالشكرِ له في السراءِ والالتجاءِ إليه في الضراء .

وأصولُ ذلك كلِه خمسة:

١ـ علو الهمةِ، فمن علتْ همتُه ارتفعتْ رتبتُه .

٢ـ حفظُ الحُرمةِ، ومَنْ حفظَ حرمةَ اللهِ حفظَ اللهُ حرمته .

٣ـ حُسْنُ الخدمةِ، ومن أحسنت خدمته وجبتْ كرامتُه .

٤ـ نفوذُ العزيمةِ، ومن نفذتْ عزيمتُه دامتْ هدايتُه .

٥ـ تعظيمُ النعمة، ومن عَظَّمَ النعمةَ شكرَها ومن شكرَها استوجبَ المزيدَ .

ثالثاً: كيف يكون توجيه الظاهر والباطن، الروح والبدن؟

لقد أشار الغزالي رحمه الله إلى كيفية مدار الإنسان مع ما يملك من المكونات الظاهرية كالبدن، والباطنية كالروح، فالروح التي هي أمر الله تعالى، والتي لو تركت لسمت بتقبل الفيوضات والنفحات من العابد عنده تعالى، فلذلك يوصي العالم العابد الصالح ويقول: إجعلها دائماً ذات همة عالية. لأن النفس الأمارة بالسوء لها شغوف دائم بحب الشهوة والجاه والمال، فهذه ان لم تكسرها بالمخالفات والاحجامات تقطعك، فعليك بإخضاعها لله رب العالمين، والقضاء على كبريائها بالعبادة والتضرع أمام ابواب رحمته.

وأما البدن فهو أيضاً بحكم كونه مخلوقاً مما يشترك فيه الأنعام -الحيوانات- يكون تابعاً لهوى النفس ان لم تخوفه بالموت وعذاب النار واقناعه بأن الحياة واللذة في الخلود والنعيم الأبدي، قادك إلى المهالك والردى، لأن الجسم يدعوك دائماً للدّعة والراحة والتهاون.

وقدوة أهل هذا الفن وهذا الطريق العارف بالله سيد الطائفتين أهل الشريعة والحقيقة الشيخ الجنيد رحمه الله الذي كان من كبار الصوفيين الحقيقيين والزهاد الأتقياء، قد

ارجعَ الصوفيةِ إلى الالتزامِ الكاملِ بالإسلامِ فقد قال مرة: "مذهبُنا هذا مقيدٌ بالكتابِ والسنةِ فمن لم يقرأ القرآنَ ويكتبِ الحديثَ لا يُقتدى به في مذهبنا وطريقتنا"، ومن كلامِه (الطريقُ إلى اللهِ مسدودٌ على خَلْقِه إلا على المقتفين آثارَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم).

وقد قيل له كيفَ الطريقُ الى الله؟ فقال (توبةٌ تُحِلُ الأضرار، وخوفٌ يزيلُ العزةَ، ورجاءٌ قوي إلى طريقِ الخيراتِ، ومراقبةُ اللهِ في خواطرِ القلوب.

وقال: (الزهدُ خلوُ القلبِ عما خلتْ منه اليد، واستصغارُ الدنيا ومحوُ آثارِها من القلبِ، والخشوعُ خذلانُ القلوبِ لعلاّمِ الغيوب.

وكان يشجع مريديه على قراءةِ أو سماعِ الحكاياتِ والقَصصِ، فقال في تعليل ذلك: الحكاياتُ جندٌ من جنودِ الله يقوي بها قلوبَ المريدينَ لأن الله يقول (وكلاً نقص عليكَ من أنباءِ الرسلِ ما نثبتُ به فؤادك) سورة هود آية ١٢٠.

فقد ظلَّ سيدنا الجنيد عالماً معلماً مربياً يتخرجُ على يديهِ دعاةُ الحق لا ينشغلُ بقلبه ولسانِه عن ذكرِ الله تعالى وتسبيحِه والتضرعِ إليه، فكانتْ يدُهُ مشغولةً بالتجارةِ وظاهر بدنه وباطن روحه مع الله إلى أن لقيَ ربَّه وهو ساجد في سنة ٢٩٨ وقيل سنة ٢٩٧هـ .

من هنا نرى روعة توجيه الظاهر والباطن ليكون كل ذلك مشغولاً في طاعة الله ورضاه سواء على صعيد النفس والروح وإبعادهما عن كل كدورات الدنيا .

أو على صعيد العمل للبدن الظاهر للسير على طريق القواعد الكلية التي وضعت ليضمن السالك صفاء مسيرته وقلبه وقبوله عن خالقه .

رابعاً: ما هو المقصود بأهل الله وطريقتهم ؟

إن أهلَ اللهِ الصوفيةَ الذين نقصدُهم، هم أهل الصدقِ والصفاءِ والذوقِ والوفاءِ والمتجردون من الدنيا، والمتجردون من الآخرة والمتجردون إلى المولى، والمتجردون من الدنيا بترك حطامها وخداع بريقها، وعدم الخوض في ظلها الزائل وأمرها الحائل، وأن يستوي

عندهم تراب الدنيا وحجرها وذهبها. والتجرد من الآخرة هو الإلتفات إلى رضاء الله، والتزود من العبادات والوصول إلى الغاية السامية، وهي حيازة النور بلوامع هذا الرضا، والتجرد إلى المولى بالاكثار من خدمته بالعبادة، والذكر والطاعة والعيش في طريق المشاهدة ضمن سلسلة الذهب البراقة: الله معي، الله شاهدي، الله ناظري، الله مطلع علي.

وهذه الخصال لا تُحصّل بالقراءة والدرس والمجالس، بل لا تُحصّل إلا بصحبة الشيخ العارف الذي يجمعُ بين الحال والمقال، يدلُ بمقاله وينهض بحاله (أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده).

أولئك هم أهل الله الذين وصلوا إلى أنجح الطريق وأقرب المسالك، لأنهم شيدوا دعائم الشريعة بالعلم والعمل، وبعدها رفعوا الهمة للغوامض من أحكام العلم وحكم العمل يعلمون أنَّ مجلس علم أفضل من عبادة سبعين سنة "أي من العبادات الزائدة عن المفروضات التي يتعبدُ الرجلُ بها ربه بغير علم.

والله قال: (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون أم هل تستوي الظلماتُ والنور).

إنّ أشياخ الطريقة وفرسان ميادين الحقيقة يقولون خذوا بأذيال العلماء ولا يقولون تفلسفوا، ولكن يقولون تفقهوا، ويقولون "من يُرِدِ اللهُ به خيراً يفقهه في الدين"، والله تعالى ما اتخذ اللهُ ولياً جاهلا ولو اتخذه لعلّمه، والولي لا يكونُ جاهلاً في فقه دينه بل يعرفُ كيف يُصلي، كيف يصومُ، كيف يزكي، كيف يذكر، ويتيقنُ في علم المعاملة مع الله، فمثل هذا الرجلُ وإن كان أمياً فهو عالم، ولا يقول له جاهل إلا من جهل العلم المقصود،

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجامعُ

وعليه فإن طريقَ أهلِ اللهِ هو الطريقُ الواضحُ فهو صلاةٌ وصومٌ وحجٌ وزكاةٌ وتوحيدٌ والشهادة لرسول الله عليه الصلاة والسلام بالنبوةِ.

وهي كذلك اجتنابُ المحرماتِ والبعد عن الموبقات والمهلكات.

فأهلُ الطريقِ هم أهل التقوى، العاملونَ بما علّمهم اللهُ، وهم الأولياء على الحقيقة، وحرمتُهم عندَه محفوظةٌ، قال عليه الصلاة والسلام "من عَمِلَ بما يعلمُ ورّثه اللهُ علمَ ما لم

يعلم "، وقال صلى الله عليه وسلم "العلماءُ ورثةُ الأنبياء" فهم ساداتُ الناسِ وأشرافُ الخلقِ والدالُّون على طريق الحق.

خامساً: من هو الصوفي وأحواله وعلاماته؟

الصوفي هو الفقيرُ إلى اللهِ، المتعبدُ بكُلِّيته إلى العبادة، المعرضُ عن الدنيا الزاهدُ قلباً بجميعِ ما فيها من المتاعِ والزينة، وله انتماءٌ إلى العلماء العاملينَ وثيق، ورابطةٌ متينةٌ تربطُه بهم في السَّعةِ والضيق، ثابتٌ لا تهزُّه الزعازعُ والأطوار، مستسلمٌ لمولاه، ساكنٌ تحتَ المشيئة، راضٍ بتصرفِ الأقدار، متحققٌ بالافتقارِ في سائرِ ظروفِه وأوقاتِه لمعبودِه وملجأه في حياتِه وبعد مماته. وهو باطنُه كظاهرِه، وظاهرُه ظرفٌ لباطنِه، ويحافظُ على طهارةِ ظاهرِه وهو جسدُه، وباطنِه وهو قلبُه، لأنَّه لولا الظاهرُ لما بطنَ ولولا الباطن لما ظهر.

وأصول علاماته خمسة:

طلبُ العلمِ للقيامِ بالأمر، وصحبةُ المشايخِ والإخوان للتبصرِ، وتركُ الرُّخَص والتأويلاتِ للتحفظ، وضبطُ الأوقاتِ والأورادِ للحضور، واتهامُ النفسِ في كلِّ شيءٍ للخروجِ من الهوى، والسلامةِ من العطب.

وأصول ما تداوي به علل النفس خمسة:

تخفيفُ المعدةِ بقلةِ الطعامِ والشرابِ، والإلتجاءُ إلى الله تعالى مما يُعرض له. والفرارُ من مواقفِ ما يَخشى الوقوعَ فيه، ودوامُ الاستغفارِ مع الصلاةِ على النبي صلى الله عليه وسلم آناءَ الليلِ وأطرافِ النهارِ، وصحبةُ من يدلك على الله حاله ويقربك إلى المولى مقاله.

سادساً: ما هو حال الصوفي، مع معلمه، مع علمه، مع مجتمعه، مع أخلاقه؟

إنَّ الصوفيَّ المتدرجَ المتأدبَ الصالحَ هو من اكتملتْ أهليتُه، وظهرتْ ديانتُه وبدا ذلك على جوارحه فيقدر ويحترمُ معلمه، ويعتقدُ رجحانَه على طبقتِه، فذلك أقرب لانتفاعِه به، ولا يقول له:

فلانٌ قال خلافَ ما تقول، ولا يغتابُ أحداً في مجلسِه، ولا يَملُّ من صحبتِه وإذا اغتابَ أحدٌ شيخَه ردَّ غيبتَه فإنْ لـمْ يقدرْ فارقَ المجلسَ احتراماً ووفاءً لشيخِه، وإذا دخلَ على شيخِه استأذنَ وسلَّم على الحاضرينَ، وخصَّ شيخَه بتحيةٍ خاصةٍ، وليتأدبْ مع رفاقِه، ولا يكثرِ الكلامَ بدونِ حاجةٍ إليه، وأن يتحملَ جفوةَ شيخِه، فإن جفَاهُ بادرَ الشيخَ بالاعتذارِ، وأن يَحرِصَ على التعلمِ ولا يقنع بقليلِه مع تمكنِه من الكثيرِ، وعليه أن يجتهدَ

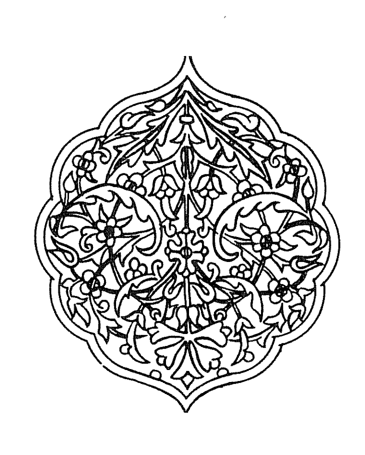
في تحصيلِ العلم أوقاتَ فراغه ونشاطه قبلَ انشغالهِ وارتفاعِ منزلته، فقد ورد عن سيدنا أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "تفقهُوا قبل أن تُسوَّدُوا" أي اجتهدوا في كمالِ أهليتِكم قبل ان تصيروا سادةً عندها تمتنعون من العلمِ لارتفاعِ منزلتكم وكثرةِ مشاغلِكم وبالله التوفيق .

وكذلك الصوفي من أحسنِ أهلِ زمانه خُلقاً وأوسعِهم صدراً وأكثرِهم حلماً، يقضي الايامَ بين ذكرٍ وخشوعٍ ويمضي اللياليَ بين صلاةٍ وخضوعٍ، ويخلعُ رداءَ العظمةِ، بأوامر الله سبحانه مؤتمراً، يأمرُ بالمعروفِ وينهى عن المنكرِ بالقولِ الحسنِ الجميل، يحيي أمر اسمِ الطريقةِ النبوية، ويعلي معالمَ الحقيقية المصطفوية .

يسكت حتى يقال إنه لا يتكلمُ، فإذا تكلم فبعذوبةِ كلامِه القليل داوى العليل، يترك نفسَه ويتواضعُ للناس من غير حاجة، ويكظمُ غيظَه من غيرِ ضجرٍ. لينُ العريكةِ، هينُ المؤنةِ، سهلُ الخُلق، كريمُ النفس، حسنُ المعاشرةِ، بسّاماً من غيرِ ضحك، محزوناً من غيرِ عبوس، متواضعاً من غيرِ ذلة، جواداً من غيرِ إسراف، اجتمعت فيه مكارمُ الأخلاق، فقيهاً قارئاً مجوداً .

هذا هو المطلبُ والغايةُ الأسمى التي نريدها من المريدِ بسلك هـذه الطريقةِ الآمنة التي تقودُه إلى مُبتغاه، فيُوجَه التوجيه الصحيح السليـم من المخاطرِ والشوائبِ حتى تغرس في قلبه جلّ هذه المعاني العظيمة .

وهذا هو العالم الذي نبتغيه، وهـذا العارفُ الذي نتطلعُ إليه، وإنْ شئتَ فقل عنه إنه الصوفي الـذي يحتاجُـه مجتمعنا ليسيِّر دروب الطالبين المؤمنين بقدوته الحسنة وأخلاقه العظيمة . "إنّ أقربكم منّي مجلساً يوم القيامةِ أحاسنُكم أخلاقاً" صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

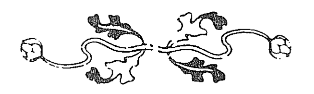


هذه هي طريقتنا

قال الشيخ الشعراني عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه كشف الغمة:

"كل طريق لم يمش فيه الشارع صلى الله عليه وسلم فهو ظلام، ولا يكون أحد ممن مشى فيه على يقين من السلامة وعدم العطب".

وقال: دوروا مع الشرع كيف كان، وأكثروا من مطالعة كتب الفقه، عكس ما عليه المتصوفة الذين لا حث لهم بارقة من الطريق فمنعوا مطالعة الفقه وقالوا: إنه حجاب جهلاً منهم.



هذه هي طريقتُنا، وهذا هو نهجُنا وسلوكُنا وأسلوبُنا، طريقُ علمٍ ومعرفةٍ واتباعٍ بإخلاص.

أما أنْ يأتيَ أحدٌ من المغرضينَ وأصحابِ العَمَهِ ممنْ يتبعونَ الهوى والظن، فيأخذَ عمَّنْ شذَّ عن الطريق، وتنكبَ عن أهلِ التحقيق، وذمَهُ أهلُ الله، وحذَّروا منه لمخالفتِه ظاهرَ الشريعة، وفوقَ هذا يستدلُ بأعمالِه وأقوالِه وتصرفاتِه، ويتبجحُ بذلك متهماً الصوفيةَ بأنَّ هذه عاداتُهم ومبادئُهم، ويحكمُ على الكلِ بحكمِ الجزء، ويحاسبُ الجميعَ بتصرفِ الفرد، ويهدمُ القاعدةَ لتصرفٍ شاذٍ بدا من أحدِهم، فهذا ظلمٌ وافتراءٌ، واتهامٌ، وتزويرٌ على أعيانِ البشرِ من أهل الصفاء من عباده.

أما الذينَ خالفوا وشذُّوا وأفرطُوا وغالَوْا وشطحوا بما لا يوافقُ الشرعَ الكريمَ، وقصدوا من ذلك جعلَه ديناً ومبدأً، وتركوا ظاهرَ الشريعة الغراء، تركوا الوقوفَ على النصوصِ المتفقِ عليها وعطلوا الأحكام.

فهؤلاءِ كما قال عنهم الجنيدُ وغيرُه من العارفين: إنهم وصلوا . . ولكن وصلوا إلى سَقَر.

وهذا من أعظم خداع الشيطانِ وغرورِه لهؤلاء، إذ لم يزلِ الشيطانُ يتلاعبُ بهم ويُمَنّيهم ويُسَوّلُ لهم، حتى أخرجهم عن دائرةِ الاسلامِ والإيمانِ.

وقد أجمع أهل الله تعالى رضي الله عنهم على الإهتمامِ بالمريدِ ظاهراً وباطناً.

ظاهراً: يتقيد بأمورِ الشريعةِ تقيداً من غيرِ ميولٍ ولا تعليلٍ ولا تبديلٍ ولا تغييرٍ.

وباطناً: يحافظ على نفسِه، وقلبِه، وروحِه، وطريقتِه، متوكلاً غيرِ متواكل.

ولذا كانت الوصية للمريدين بقولهم: حافظوا على الأركانِ الأربعةِ الكامنةِ في الإنسان الصوفي:

<u>النفس</u>: التي هي شرٌ محضٌ لأنها مركزُ الشهوات "إنّ النفسَ لأمارةٌ بالسوءِ" وتجبُ مخالفتُها بجميعِ الوسائل، وهي ما تُسمى عند أَهلِ الطريقِ بالجهاد الأكبرِ.

والقلب والروح: وهما مركزُ الاهتمامِ عند أهل الطريق، ولا يُقصدُ بالقلب تلكَ المضغة الكامنة في الصدر. "إن في ذلك لذكرى لمنْ كانَ له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد" الآية، بل المقصودُ بها الجوهرُ اللطيفُ الذي يُدركُ به حقائقُ الأشياء، وينعكسُ عليه كما تنعكس الصورةُ على المرآة، وهذا مرهونٌ بصفائهِ ورُقيه، واللهُ وحدَهُ هو مطهرُ القلوب.

الطريقة: هي إنكارُ الذاتِ المتمثلِ بالزهدِ في الدنيا ومتاعِها ولذاتها. وفي الصدق بالقولِ والعملِ من غيرِ النظرِ إلى مدحِ الناسِ أو ذمهم، والصبر والخشوع والإحسانِ والشفقةِ على الخلق والصبر والجد كما جدّ أولوا العزم من الرسل.

والتوكل والاذعان: وهذا لا بُدّ له من المراقبةِ والذكرِ، مع التسليمِ بأنّ الوصول إلى كمالِ هذه الطريق لا ينال بالكسب بل هو هبة يهبها الله لمن يشاء. ما كتبه الله لك سيأتيك على ضعفك، وما لم يكتبه لك لن يأتيك على قوتك.

وزادوا على ذلك فقسموا الأمور إلى أقسام ثلاثة وأمروا بالعمل بها، حيث هي مقاييس ومعايير على ميزان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والأقسام الثلاثة هي:

أولاً الشريعة: وهي القيام بشعائر الدين بكل دقة واهتمام وتمسك .

ثانياً الطريقة: القيام بالواجبات والنوافل والسنن والآداب والاخلاق .

ثالثاً الحقيقة: مراقبة القلوب والاخلاص للعمل بعيدين عن الرياء والتشوُّف، ووقفوا عند محاسبة نفوسهم، ونظروا إلى العبادات نظرة متأمل متعمق . واعتبروا أنَّ الشريعة ومراعاتها والالتزام بها جزءٌ لا يتجزأ من السير في طريق الصوفية .

وشددوا على المريدين أن يحفظوا جوارحهم وأغراضهم

فالقلب: غرضُه بعد الإيمان التوبة والإخلاص .

والبصرُ: غرضُه الغضُ عن المحارم وتركُ التطلع فيما حُجب وسُتر .

واللسانُ: غرضُه الصدقُ في الرضى والغضب وكفُ الأذى في السر والعلن .

واليدانِ والرجلان: غرضُهما عدمُ بسطهما إلى محظورٍ ولا غوصهما بالضلال والحرام.

والسمْعُ: غرضُه عدمُ السماعِ إلى مُحرَّمٍ إذْ كلُ ما لا يَحِلُ لكَ الكلامُ فيه والنظرُ إليه لا يحل لكَ استماعُه.

والشمُ: وغرضُه حفظُه عن الممنوعاتِ إذْ كلُ ما أُحلَ لك استماعُه ونظرُه جازَ لك شمُّه.

وقد توسعوا أكثر من ذلك، واستعملوا عباراتٍ قصدوا منها الروعةَ في الوعظِ والإرشاد. حتى قال حاتمُ الأصم الموتُ أربعة:

موتٌ أبيض وهو: الجوع، وفيه الصبرُ والتوكلُ والسعي وراء الحلال.

موتٌ أسود وهو: احتمالُ الأذى من الخلق، لينال درجةَ الصالحين، إذ ما من نبي إلا أُوذي فصبر.

موتٌ أحمر وهو: العملُ الخالصُ من الشوائب ومخالفة الهوى، لأنه نوع من الجهادِ الأكبر.

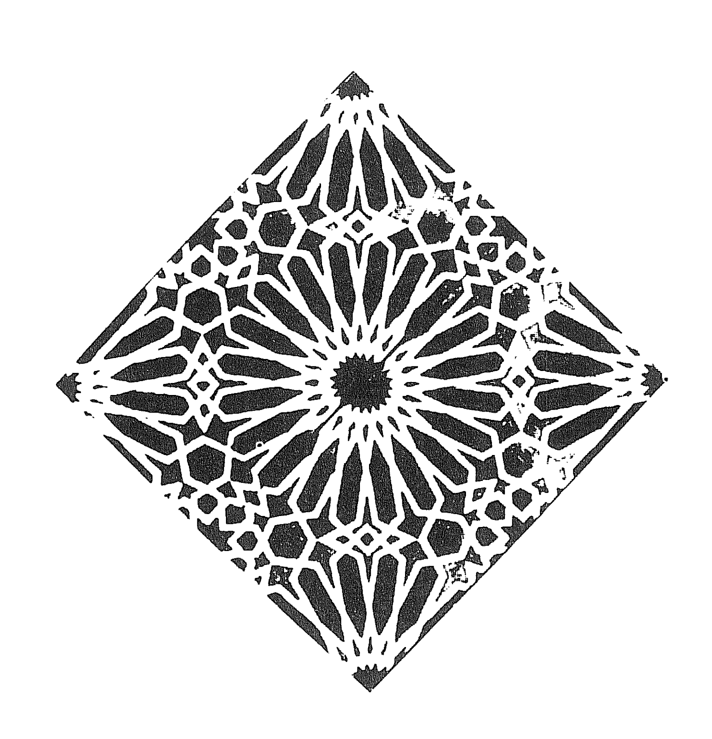
موتٌ أخضر وهو: طرحُ الرقاعِ بعضها على بعض، لأنَّه إذا كان ملبسه حرام، ومطعمه حرام لا يستجاب له دعاء.

وهذا كلام إن سُقْتَه ووضعتَه على جادةِ الشريعةِ وجدتَه متلازماً معها .

فالطريقة هي الشريعة، والشريعة هي الطريقة

إياك نعبُد شريعة، اتباع لكتابِ الله وسنة رسوله .

وإياكَ نستعين طريقة، التوكل والاستعانة بالله وترك الخلائق .



التاريخ يعيد نفسه ولو بصورة أخرى

وكأنّي باليوم الذي نحن فيه، كالأمس الذي مضى، ففي أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث للهجرة، كان النكير على من اتبع طريقاً غير طريق الاشتغال بالحديث رواية وكتابة وارتحالا .

وكان لأولئك المحدثين والرواة، نظراتٌ ناقدةٌ لكل مَنْ تحوّل عن طريقتهم، وسلك مسلكاً آخر من طريق العلم .

وقد اتخذ بعض مَنْ خصّه الله تعالى سبيلاً غير سبيل أهل الحديث، وطريقاً غير طريقهم، وذلك لغرس التأسي والقدوة في القلوب والنفوس، ونهجوا نهجاً جديدا، فاشتغلوا

بالتوجيهِ والإرشادِ، بأسلوبٍ قلَّ نظيرُهُ ومثيلُه، فتفرغوا لذلكَ وتصدَّروا بينَ الخلائقِ لكشفِ عيوبِ النفسِ وآفاتِها، وعظاً وبكاءاً وترغيباً، لسبرِ غَوْرِ تصفيةِ القلوبِ على نَسَقٍ رائعٍ في الزهدِ، وتركِ الدنيا وحطامها، والحذرِ كلِ الحذرِ من غرورِها وبينوا أنَّ الذنوبَ تورثُ الغفلة، والغفلةُ تورثُ القسوةَ، والقسوةُ تورثُ البعدَ عن الله، والبعدُ عن الله يورثُ النار.

وأنَّ الذين يتفكرونَ بهذه المعاني، هـمُ الأحياءُ البررة، أما الأمواتُ فهـم الذين أماتُوا أنفسَهـم بحب الدنيا.

وقد اعتبر أهلُ الحديثِ أنَّ هذا النسقَ، والاسلوبَ والنهج الجديد، خروجاً عن المألوفِ وبعداً عن المعروف، وأنَّ ما يقومُ به أولئك المتصوفةُ من الرجال، يحتاجُ الى إعْمَالِ الرأيِ في الحديثِ والأثرِ، وأنَّ هذا مخالفٌ لنهجِ السلفِ. عندها نالَهم منهم ما نالَهم، وبدأتْ هذه الفكرةُ تُعارضُ من قِبَلِهم، حيثُ جمَّدوا عقولَهم عند النصوص وتداخلتْ فيهم بعضُ أهواءِ النفوسِ، وهذه هي الطامةُ الكبرى، والمصيبةُ العظمى، فقد وضَعوا الشيء في غيرِ موضعه، شكلاً ومضموناً.

ولم يعلموا أن التصوفَ يقومُ على الدعوةِ إلى تصحيحِ العلمِ والعملِ، ومراقبةِ اللهِ تعالى، وتزكيةِ النَّفسِ وتطهيرِها من الأدرانِ، وتقريبِها من رضوانِ اللهِ عز وجل، وهذا منهجٌ شرعيٌّ شريفٌ، يُشكرُ صاحبُه عليه ويثابُ به إن شاء الله تعالى.

وقد وقفَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم على أهلِ الصُّفَّةِ مرةً فرأى فقرَهم وجهدَهم وطيبَ قلوبِهم فقال: "أبشروا يا أصحابَ الصفةِ فمنْ بقيَ منكم على النَّعتِ الذي أنتم عليه اليومَ، راضياً بما هو فيه، فإنَّه من رفقائي يومَ القيامة".

بعد هذا الحديث أقول: لذا فإنَّ اسمَ الصوفي لم يُعرفْ إلى المائتين من الهجرة، لأنه في زمنِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، كانَ يُسمى من صَحِبَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم صحابياً لشرفِ صحبته.

ثم بعد انقراضِ عهدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فَمنْ أخذَ عن الصحابةِ العلمَ يُسمى تابعياً.

ثم لما تقدم زمان الرسالة، وتوارى النور المصطفوي، واختلفت الآراء، وتفرد كل ذي رأي برأيه، وتزعزعت بالفتن قلوب المتقين، واضطربت بالحروب والمصائب عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات، وكثرت العادات وتزخرفت، وكثر خطابها، تفردت طائفة بالأعمال الصالحة واغتنموا العزلة والوحدة، واتسموا بأهل الصفة رضي الله عنهم، وتهيأ لهم صفاء الفهوم، فصاروا كحارثة الصحابي الجليل، عندما أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: كيف أصبحت يا حارثة، قال: أصبحت مؤمناً حقاً يا رسول الله، قال له: فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك قال: أسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، فاستوى عندي تراب الدنيا وذهبها، ونظرت إلى عرش ربي فرأيته بارزاً ونظرت إلى أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يتعذبون، فقال له رسول الله: يا حارثة عرفت فالزم أو كما قال عليه الصلاة والسلام .

وقد ذكرت ذلك قبلاً وأعدته هنا تأكيداً

هذا هو الذي أوصل أهل التصوف إلى هذه المقامات العلية العالية، حين صفت نفوسهم من الكدورات، وسموا بهذا الاسم، وحدث اسم التصوف أو الصوفية .

ومن أجل وضع هذه الطريقة في موضعها، وتقعيد أصولها وضبط شواردها، وإرشاداً

لطلابها، ففي سنة ١٠٤٥ ميلادية أَلَّفَ القشيريُّ رسالتَه المشهورةَ في علمِ التصوفِ، يُذَكِّرُ أهلَ عصرِهِ من الصوفيةِ بما كانَ عليهِ قدماؤُهم من الورعِ والتقوى في القولِ والعملِ، وما آلَ إليه التصوفُ من بعدِهم، فقد زالَ الورعُ واشتدَّ الطمعُ، وضاعت حرمةُ الشريعةِ من بعضِ القلوبِ، ورُفِضَ التمييزُ بينَ الحلالِ والحرامِ، وطُرِحَ الاحتشامُ والاستخفافُ بالعبادات

هذه الصيحةُ التي صَاحَها القشيريُّ لم تذهبْ سدىً، فقد أخذَ الامامُ الغزاليُّ بمجامعِ ما قاله، فإذا به قد مزجَ التصوفَ بالقرآنِ والحديثِ مزجاً تاماً، واستخرجَ من المجموع مادةً واحدة، وقد بقيت كتبُه، على الأيامِ شاهدةً على ذلك، إذ هي من إملاءِ عقله وحده، بل لأنها كانتْ نتيجةً لرغبةٍ صادقةٍ مُلِحةٍ في تحصيلِ حياةٍ روحيةٍ مُطمئنة، أي أنَّ الغزاليَّ قد حلَّ مشكلتَه في نفسِه قبلَ أن يضعَ نتائجَها في كتبِه فاعتزلَ منصبَ التدريسِ في بغدادَ حيثُ كانَ استاذاً للفقهِ والتوحيدِ بالمدرسةِ النظامية، وذلك بعد ظهورِ القشيريِّ بخمسين سنة، ثمَّ تقلَّد الحياةَ الصوفيةِ، وقد خلَّف لنا صفحاتٍ عظيمةً كالاحياء، والاربعين في أصولِ الدين، والمنقذ من الضلال، وغيرِهم .

حاجةُ الناسِ إلى مرشد

لقد أرسلَ اللهُ تعالى الرسلَ الكرامَ ليدلُوا الناسَ إلى حقيقةِ الدين، ويرشدُوهم إلى التكاليفِ الشرعيةِ التي أوجبها الله تعالى عليهم، وقد بدأَ اللهُ ارسالَ الرسلِ الكرام بآدمَ عليه السلام، وانتهاءً بصاحبِ الرسالةِ الكريمةِ خاتمِ الأنبياءِ سيدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلَّغَ الناسَ ما يحتاجونَ من أمورِ دينهم، وأرشدَهم إلى جمالِ الأمورِ وروعتِها، وأخذَ بأيدي الأمةِ إلى طريقِ العلمِ والمعرفةِ، وحَمَلَ عنه بعدَ ذلكَ أولياءُ اللهِ الصحابةُ الكرام، فأَوْضحُوا للناسِ المعالمَ، وبينُوا لهم مناهجَ الدينِ والتربية.

فغدا الاسلامُ منارةَ هدايةٍ وعلمٍ وعطاءٍ ومعرفةٍ، ومِنْ بعدِهم قامَ التابعونَ وتابعُوهم إلى يومِنا هذا.

ومن هذا كله نعلمُ أنّه لا بدّ للمكلَّف مِنْ مرشدٍ كاملٍ يرشدُه، وموجهٍ عالِمٍ يوجهُه ويفتحُ له أبوابَ العلمِ، ويرغبُه بصدقٍ في الأقوالِ، وبحسنِ الأعمالِ والأفعالِ، ويدله على طريقِ النورِ، ويعرّفه بعيوبِ نفسِه، ويصفُ له الدواءَ المناسب.

وهذا النمطُ من الإرشادِ ليس بدْعياً، ولا اختراعاً، ولا افتراءً، إنّما أخذَهُ أصفياءُ الله المرشدونَ من تعاليمِ رسولِ الله صلواتُ ربي دائما عليه.

وسببُ كتابةِ هذا الموضوع وإدراجه ضمن طياتِ هذه الرسالة أنني قد قرأتُ للشيخِ عبدِ الفتاح "أبو غدة" حفظه الله كلاماً في تعليقاتِه على رسالةِ المسترشدين للحارثِ المحاسبي، الطبعةِ الاولى ص٣١، فقد ذكر صاحبُ الرسالةِ أنّ "فريضةَ كتاب الله هي العملُ بمحكمِه من الأمرِ، والنهي، والخوف، والرجاء، لوعدِه ووعيده، والإيمان بمتشابهه والاعتبارِ بقصصه وأمثاله، فإذا أتيتَ بذلك فقد خرجتَ من ظلماتِ الجهلِ إلى نورِ العلمِ، ومن عذابِ الشكِ إلى روحِ اليقينِ، قال الله جل ذكرُه: "اللهُ وليُّ الذين آمنوا يخرجُهم من الظلماتِ إلى النورِ".

فقد علق الشيخ عبد الفتاح "أبوغدة" حفظه الله على ذلك بقوله:

هذا الكلامُ من الإمامِ أبي الحارث عبدِ الله المحاسِبي رحمه الله تعالى: يُفيدُ أنَّ أمرَ الاهتداءِ إلى اللهِ تعالى، وصلاحَ النفسِ وتزكيتِها لا يتوقف على التزامِ "شيخٍ، وبيعة"، وإنما يتوقفُ على الالتزامِ بالعلمِ والعملِ الذي أمرَ الله به.

هذا الكلامُ من حيثُ الظاهرُ صحيحٌ وسليمٌ، ولكنْ لا أرى الاستدلالَ بكلامِ المحاسبي رحمه الله على نفي اتخاذِ شيخٍ وبيعةِ مرشدٍ اكتملتْ فيه الأوصافُ الارشادية، مع التسليمِ أنّه يرشدُ ويأخذُ بيدِ الجاهلِ إلى طريقِ العلمِ، ويبصّرُ المغرورَ بعيوبِ نفسِه، ويذكّرُ بوابل وعظةِ ضمائرَ المخطئينَ من المريدينَ، ويغرسُ في أفئدتِهم حبَ اتباعِ رسولِ الله صلواتُ ربي عليه دائماً في أعماله كلها، ويَحْرِصُ على الجميعِ رعايةً وحفظاً ودرايةً وعلماً.

وإنْ كانَ الشيخُ أبو غدة حفظَه الله يقصدُ بذلك أنْ يتخذَ المرءُ شيخاً لا يستفيدُ منه ولا يغترف من بحرِ فوائده بل مجردَ اتباعٍ من غيرِ هدفٍ يُذْكَرُ، أو فائدةٍ، فقد أصاب الشيخُ وأحسن.

وإنْ كانَ يقصدُ من البيعةِ أنْ يبايعَ المريدُ الشيخَ بيعةً من غيرِ موافقةِ العلمِ للعملِ أو العملِ للعلمِ بل بيعةَ جسمٍ لا روحَ فيها ولا تشريعاً، فقد أجاد الشيخُ وأبدع.

وأنا أظنُّ الحسنَ من الظنِ بأنه لا يريدُ إلا ذلك.

أما إذا كان يقصدُ النفيَ المطلقَ من اتخاذِ شيخٍ عالمٍ ومبايعةِ مرشدٍ صالحٍ، واتباعه في علمه وعمله وقوله وفعله الموافقِ لكتابِ اللهِ وسنةِ رسوله صلى الله عليه وسلم، ويقصدُ بأنَّ كلَ منْ تلا كتابَ اللهِ فَهِمَهُ من غيرِ معلمٍ، وأنَّ كلَ من قرأَ سنةَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم عرفَ مقاصدَها من غيرِ شيخٍ مرشدٍ، وأنَّ كلَ مَن اطلعَ على سيرةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وأحوالِه وحياتِه يستطيعُ أنْ يستنبطَ منها، ويُقعّدَ لنفسِه القواعدَ، فهذا أمرٌ خطيرٌ وجليلٌ، يحتاجُ إلى تعمقٍ، وإعادةِ النظرِ من قائلِه، لأنَّه يغيرُ الكثيرَ من المعاييرِ ويقلبُ الحقيقةَ التي لا تقبلُ التغييرَ.

فهذا القصدُ زَلَّةُ قلمٍ، وهفوةٌ غيرُ مقصودةٍ، وكبوةٌ غيرُ متعمدةٍ، إذْ لكلِ عالمٍ هفوةٌ وإنِ اكْتَمَلَ علمُه، ولكلِ جوادٍ كبوةٌ وإنْ سلمتْ طريقُه.

بيد أنّ الناظرَ المتفكرَ، والمستبصرَ المعتبرَ، يجدُ أنّ أبا حنيفةَ رحمه الله تعالى كان جلُّ تلاميذه قد اتخذوه شيخاً ومرشداً ومعلماً.

وهذا لا يحتاج إلى دلالةٍ وبرهانٍ وبيانٍ، فأبو يوسف يعقوبُ الذي اشتهرَ في علمه وتقواه وصلاحِه وقضائِه، تتلمذَ على شيخِه واستاذِه أبي حنيفةَ النعمان رضي الله عنه، وكذلك الامام محمد بن الحسن بن الحنفية الذي أخذ العلم والمعرفة والتوجيه من أبي حنيفة رضي الله عنه.

وكم من مرة نقلَ الشيخُ عبد الفتاح "ابوغدة" حفظه الله، ما وقع له في حياتِه سواء مع شيوخه كالكوثري وغيره، أو نقل عنهم ما يفيد، وكان يعطي هذا الاسلوب الافاضة في تعمقه وتثبيته. انظر كتاباً اسمه صفحات من صبر العلماء فقد ذكر فيه ذلك.

فكمْ من حاملٍ لكتابِ الله وحافظٍ له لا يدري ما هي المقاصدُ منه، وما هي الأحكامُ المتعلقةُ به، وكذلكَ السنةُ النبويةُ التي فيها من الأحكامِ والقواعدِ الشيءُ

الكثير، وكم مِنْ ورَّاقٍ قرأ على مِقْدارِ فَهمِهِ فأَضَلَّ وأَضَلَّ، ظناً منه القدرةَ على العبورِ من غيرِ عالمٍ ومرشدٍ وموجهٍ، يأخذُ بيدِه إلى شاطئِ العلمِ وبرِ المعرفة.

وكمْ من إنسانٍ - وهم الكثرةُ من النّاس - يغلبُ عليهم الكبرُ وتَشَوُّفُ النفسِ والتعالي والغرورُ، فغرتْهمُ الحياةُ الدنيا فاحتاجُوا إلى أطباءِ القلوبِ والنفوسِ فأصلحوا - بإذنِ الله - ما فسدَ من قلوبِهم، وجمحَ من نفوسِهم، فأخذوا بتلابيبِ نفوسِهم المتعاليةِ وأوقفُوها عند حدودِها، فذكَّروهُم بالمواعظِ، وهذَّبوا قلوبَهم بالرقائقِ، وهزُّوا أرواحَهم وضمائرَهم بكتابِ الله، والوقوفِ عندَ حدودِه، وذكَّروهُم بالآخرةِ ووعيدِها ونارِها وجحيمِها، ورغبوهُم بالجنانِ الفاخرةِ، والأنهارِ الناضرةِ فاطمأَنَّتْ منهمُ القلوبُ، وصَفَتْ منهمُ النفوسُ، وتعالتْ فيهم الروحُ إلى المعالي، ورقّتْ ضمائرُهم، حتى أصبحوا من العلماءِ والأولياءِ العاملينَ المتقين.

وأنا أعلمُ أنَّ للشيخِ عبدِ الفتاح "أبي غدة" اتباعاً وطلاباً سرُّ نجاحِهم وعلوُّ كعبِهم وانتفاعُ الناسِ بعلومِهم اتباعُهم له، وثقتُهم به وبما يحملُ من علمٍ، وفوقَ هذا كلِه ما يتميزُ بِهِ من روحٍ وقلبٍ ونفسٍ. وأنا لا أُزكي على اللهِ أحداً بلِ اللهُ يزكي من

يشاء، بيد أنَّ من صاحبَ أمثالَ الشيخِ الزاهدِ العالِمِ زاهد الكوثري رحمه الله، وصاحبَ العلم والقلم الشيخ مصطفى صبري آخر شيوخ الاسلام في الدولة العثمانية، الذي يقول عنه: كان شيخنا الكوثري رحمه الله زاهداً حقاً عند كل عارفيه فكان من الذين إذا وجدوا آثروا، وإذا فقدوا صبروا وشكروا، فرحمه الله تعالى وأعلى مقامه في الصابرين. [1]

فمن أخذَ عن أمثالِ هؤلاءِ وغيرهم من العلماء والأولياء أخذَ بحظٍ وافرٍ، فمنهم نهلَ ومن معينهم غرفَ ومن نِعَمِهم استفاد.

فهم السادةُ الصوفيةُ العلماء.

وهم السادةُ المخلصونَ الأتقياء.

وهم السادةُ العاملونَ الأصفياء.

---

(١) وعند كتابتي هذا الموضوع وصلنا نبأ وفاة **الشيخ عبد الفتاح أبو غدة** رحمه الله الذي وافاه الأجل المحتوم فجر يوم الأحد الثامن من شوال ١٤١٧هـ - ١٦ شباط ١٩٩٧ م في مدينة الرياض بالمملكة العربية السعوية.

وقد عُرفَ العلاّمة الراحل بمشاركته في كثير من العلوم والمعارف، فكان من أبرز علماء الحديث رواية ودراية، كما كان فقيهاً محققاً قلَّ نظيره بين علماء هذا العصر.

له العديد من الكتب والتحقيقات، زادت على الستين مؤلفاً، من أشهرها: صفحات من صبر العلماء وقواعد في علوم الحديث، ورسالة المسترشدين. وصُلى عليه في المسجد النبوي الشريف حيث وارى الثرى في مدافن البقيع.

وفي الحديثِ الصحيح: أنَّ سيدَنا عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، لمَّا أرادَ الذهابَ لأداءِ العمرةِ استأذنَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأذنَ له وقال له: "لا تنسَنا من دعائك يا أخي".

هذا كانَ وما زالَ من مبادئِ الصوفيةِ التي لا بدَّ لسالك الطريقِ من شيخٍ يرشدُه ويؤدبُه، ويتبعُ الطريقَ الذي خطَّه الله وأمر به لصفاء السلوك، سواءٌ كان برنامج علمٍ أو مجالسَ وعظٍ، أو حضورَ ذكرٍ.

فالشيوخُ بالنسبةِ للمريدين كبوصلةٍ، ترشدُ القاصدينَ بسهمٍ إلى هدفِهم، فيتبعونَهم في أقوالِهم وأوامرِهم ونواهِيهم وتوجيهِهم المستنبطِ من كتابِ الله وسنةِ رسول الله، وسيرِ الصالحين وحياتِهم.

وأخذوا عليهم العهدَ على العلمِ والذكرِ والتقوى والتأدبِ بكتابِ الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتركِ النفسِ والهوى وطرحِ الشهواتِ والظنِ والشكِ.

والايثار والمؤاثرة والخدمة والاختلاء لصفاء النفس .

وترك رغباتهم في الدنيا، ومراقبة الله تعالى ويعبدونه لذاته، والحرص على أن لا تتطرق الغفلة إلى قلوبهم .

والطريقة هي مجموعة القواعد والأسس التي يذكرها الشيوخ المريدين ويأخذوا العهد عليهم بها .

فإذا ما أصبحت هذه الصفات عنده - أي المريد - عادة يرتقي بها إلى درجات الكمال، ضف على ذلك التوبة، والإلتجاء إلى الله والتفرغ مما في أيدي الخلق .
فقد وضع نفسه وحياته وكله على الطريق السوي النقي .

المقصود:

ومن هنا نجزم أن الناس والخلق يحتاجون إلى مرشد وشيخ وعالم يرشدهم ويدلهم ويعلمهم، ويأخذ بمجامع قلوبهم إلى العلم والذكر والوفاء والخير والثناء، والعطاء والصدق، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين" .

وهذا من الأقوالِ التوافقيةِ، والأمورِ الاجتماعية التي أضحتْ أمراً ظاهراً واضحاً بيّناً، لا يختلفُ فيها اثنانِ مطلقا .

وقد رأيتُ كلاماً حولَ هذا الموضوع لابن تيميةَ في فتاويه .

قال: وأمّا انتسابُ طائفةٍ إلى شيخٍ معين: فلا ريبَ أن النّاس يحتاجونَ من يتلقونَ عنه الإيمانَ والقرآن، كما تلقى الصحابةُ ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم وتلقّاه عنهم التابعون، وبذلك يحصلُ اتباعُ السابقينَ الأولينَ بإحسان، فكما أنّ المرءَ له من يعلمُه القرآنَ ونحوه، فكذلك له من يعلمُه الدين الباطن والظاهر .

وقال في غيرِ موضع: إنْ كانَ لا يُمْكِنُه -أي الطالب أو المريد- أنْ يَعْبُدَ اللهَ بما أمرَه إلا بذلك -أي باتباع شيخ- مثلَ أن يكونَ في مكانٍ يضعفُ فيه الهدى والإيمانُ والدين، أو يكونَ باتنسابه إلى شيخٍ يزيدُ في دينِه وعلمِه، فإنه يفعلُ الأصلح لدينه .

وإني سأسوقُ لك الأمثلة على رجالٍ كانوا قدوة في العلم والصلاح والتقوى، وقد أكرمهم الله تعالى حتى كانوا سادةً في الإرشاد والتوجيه .

أهميــــة الصحبــــة

ملازمة الشيخ المربي، الوارث المحمدي

إن للصحبةِ أثراً عميقاً في شخصيةِ المرءِ وأخلاقِهِ وسلوكِهِ، والصاحبُ يكتسبُ صفاتِ صاحبِهِ بالتأثرِ الروحيِّ والاقتداءِ العملي، والإنسانُ إجتماعيٌّ بالطبعِ لا بُدَّ أن يُخالِطَ الناسَ ويكونَ له منهم أخلاَّءُ وأصدقاءُ، فإن اختارَ أهلَ الفسادِ والفسوقِ والعصيانِ انحطتْ صفاتُهُ تدريجياً دونَ أن يَشعُرَ حتى يصلَ إلى حضيضِهم ويهوي إلى دَرَكِهِم، وإن اختارَ الصحبةَ الصالحةَ من أهْلِ الإيمانِ والتَّقْوى والاستقامةِ ومعرفةِ الله تعالى فلا يلبثُ أن يرتفعَ إلى أوجِ عُلاهُم ويكتسبَ منهم الخُلُقَ القويمَ، والإيمانَ الراسخَ والمعارفَ الإلهيةَ ويتحررَ من عُيوبِ نفسِهِ، وبهذا تُعْرَفُ أخلاقُ الرجالِ بمعرفةِ أصحابِهِ وجُلَسائِهِ.

قال الشاعرُ الحكيم:

إذا كُنْتَ في قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهم ... ولا تَصْحَبِ الأردى فتردى مع الرَّدِي

عن المرءِ لا تسل وسَلْ عَنْ قَرِينه ... فَكُلُّ قرينٍ بالمُقَارِنِ يَقْتَدِي

وما نالَ الصحابةُ رِضْوانُ الله تعالى عليهم هذا المقامَ الساميَّ والدَّرَجَةَ الرفيعةَ بعد أنْ كانوا في ظُلُماتِ الجاهليةِ إلاَّ بمُصَاحَبَتِهم لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم ومجالستِهم له، وما أحْرَزَ التابعونَ هذا الشرفَ العظيمَ إلاَّ باجْتِماعِهم بأصحابِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

وبما أنَّ رسالةَ سيدِنا محمد صلى الله عليه وسلم عامةٌ خالدةٌ إلى قيامِ الساعةِ، فإنَّ له عليه الصلاة والسلام وُرَّاثاً من العلماء العارفينَ وَرِثُوا عنهُ العلمَ والخُلُقَ والإيمانَ والتقوى فكانوا خُلَفاءَ عنه في الهدايةِ والإرشادِ والدعوةِ إلى الله تعالى، يقْتَبِسونَ مِنْ نورِهِ ليُضِيئوا للإنسانيةِ طريقَ الحقِ والإرشادِ، فمَنِ اتصلَ بهم وجالسَهم ونَهَلَ من علومِهم وارتشفَ من معارفِهم واتَّبعَ نَهجَهم، فقد استَقى مِنْ نَبعِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فهؤلاءِ الذين

قال عنهم النبي صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك" أخرجه مسلم في صحيحه.

وهؤلاء الوارثون هم المرشدون الموجهون لمن صاحبهم وخالّهم وجالسهم، فالصحبة دواء من كل داء دخل النفس من طمع وعُجْب وكِبْر، فمرافقتهم هي العلاج العملي الفعال لإصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق، فهذه الأمور لا تُنال بقراءة الكتب ومطالعة الكراريس، إنّما هي خصال وجدانية تُؤخذ بتأثر الروح بالمصاحبة ومحبة هذه الصحبة، قال تعالى: "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً". سورة الكهف ١٠٣.

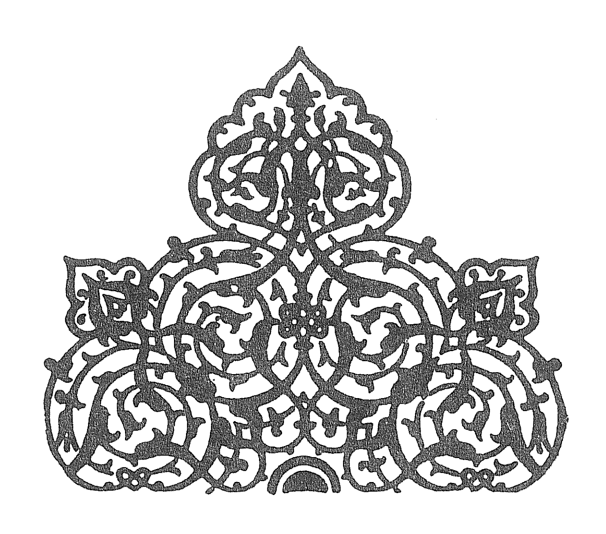
فكما أنّ المرء لا يرى عيوب نفسه إلاّ بمرآة صافية مستوية تكشف له عن حقيقة حاله، فكذلك للمؤمن أن يتخذ أخاً صالحاً يرشده إلى الصواب، ويوجهه إلى جادّة الحق ويبصره بعيوب نفسه ويكشف له عن خفايا أمراض قلبه، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام (المؤمن مرآة المؤمن).

وعلى المؤمن أنْ يتخذ المرآةَ الصافيةَ المستويةَ، وليست المرآةَ التي لا تُعطيه صورته الحقيقية، فعليه بالشيخ الكامل والمرشد الصادق الذي صَقَلَتْ مرآتُه بصحبة مرشدٍ كاملٍ ورِثَ عَنْ مرشد قَبْلَهُ، وهكذا حتى يَتصِلَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى "لقدْ كانَ لكمْ في رسول الله أُسوةٌ حسَنةٌ لمَنْ كانَ يرجُو اللهَ واليومَ الآخرَ وذكرَ اللهَ كثيراً" وعليك أيضاً أن تجتنبَ مَنْ يُدخلُ إلى قلبك الغُرورَ والعُجْبَ أو يذمك حتى تيأسَ وتقنطَ من إصلاح نفْسِكَ.

ومن هنا يتبينُ خطأُ مَنْ يظنُ أنَّه يستطيعُ بنفْسِه أنْ يعالجَ أمراضَهُ القلبيةَ وأنه يستطيع أنْ يتخلصَ مِنْ عِلَلِه النفسيةِ بمُجرد قراءةِ القرآنِ الكريم، والاطّلاع على أحاديثِ النبي صلى الله عليه وسلم، لأنَّ الكتابَ والسنةَ وإن جمَعا أنواعَ الأدويةِ لمختلفِ العللِ النفسيةِ والقلبيةِ، فلا بدَّ معهما من طبيبٍ يصفُ لكلِ داءٍ دواءَه ولكلِ علةٍ علاجَها.

فقد كانَ سيدنا النبيُ محمد صلى الله عليه وسلم يُطببُ قلوبَ الصحابةِ ويُزكّي نفوسَهم بحالِه ومقالِه وأعمالِه وأفعالِه وإرشادِه الشريف.

فإذا ثبت في الطب الحديث أنّ الإنسان لا يستطيع أنْ يُطبب نفسَهُ بنفسِه ولو قرأ كُتبَ الطبِ، بل لا بدّ له مِنْ طبيبٍ يكشِفُ خفَايا عِلله، ويطّلعُ على ما عمي عليه من دقائق مرضِه، فإنّ الأمراضَ القلبية والعللَ النفسية أشدُ احتياجاً للطبيبِ من غيرِها، لأنها أعظمُ خطراً وأشدُ خفاءً وأكثرُ دقةً.



والدليل على أهمية الصحبة من كتاب الله تعالى:

قال تعالى: "يا أيها الذينَ آمنُوا اتقوا اللهَ وكُونوا مع الصادقين" وهـم الذينَ عناهُـم "مِنَ المؤمنينَ رجالٌ صدَقُوا ما عاهدُوا اللهَ عليه".

وقال تعالى: "واصْبِرْ نفسكَ معَ الذينَ يَدْعونَ ربَهـم بالغَداةِ والعَشِي يريدونَ وجْهَه ولا تَعْدُ عيناكَ عنهم . . ".

وقال تعالى: "ويومَ يَعَضُّ الظَالِـمُ على يَديه يقول يا ليتَني اتخذْتُ مع الرسولِ سبيلاً يا ليتني لمْ أتخِذْ فلاناً خليلاً لقد أضلَّني عَنِ الذكـرِ بعـدَ إذْ جاءني وكانَ الشيطانُ للإنسانِ خذولا".

قال تعالى: "الأخِلاَّءُ يومئذٍ بعضُهـم لبعضٍ عدوٌ إلا المتقين".

وقال تعالى: "واتَّبِعْ سبيلَ من أنابَ إليَّ".

قال تعالى: حاكياً على لسانِ سيدِنا موسى حينَ التَقى بالخضرِ عليه السلام "هل أتبعُكَ على أنْ تُعَلِمني مما عُلِمتَ رُشْدا، قال إنَّك لنْ تستطيعَ معيَ صبْرا".

والدليل من السنة المطهرة:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"إنَّما مثلُ الجليسِ الصالحِ وجليسِ السوءِ كحاملِ المسكِ ونافخِ الكيرِ، فحَاملُ المسكِ إمَّا أنْ يُحْذِيكَ (يعطيك) وإمَّا أنْ تَبْتاعَ منه، وإمَّا أنْ تجِدَ منْهُ ريحاً طيباً، ونافخُ الكيرِ إمَّا أنْ يَحْرِقَ ثيابَك وإمَّا أنْ تجِدَ منْهُ ريحاً مُنْتنَةً".

عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

قيل يا رسولَ الله أيُّ جلسائِنا خير؟ قال: "من ذكَّرَكُم اللهَ رؤيتُه وزادَ في علْمِكُم منطِقُه وذكَّرَكُم في الآخرةِ عملُه".

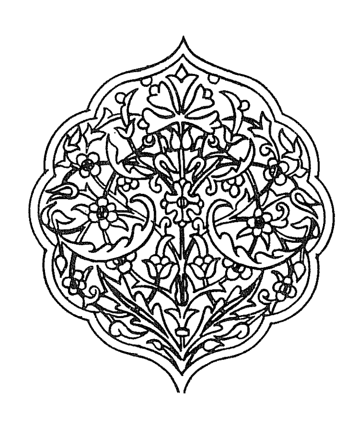
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:

"الرجلُ على دينِ خَليلِه، فلينظُرْ أحدُكُمْ منْ يُخالِل" رواه أبو داود، والترمذي.

عن عمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:

"إِنَّ مِنْ عِبادِ اللهِ لأُناساً ما هُمْ بأنبياء ولا شُهداء، يَغْبِطُهم الأنبياءُ والشُهداءُ يوم القيامةِ بمكانِهم من اللهِ قالوا يا رسول الله فَخَبِّرنا مَنْ هُمْ ؟ قال: هُمْ قوم تحابُّوا بروحِ اللهِ على غيرِ أرحامٍ بَيْنَهم ولا أموالٍ يتعاطَوْنَها، فواللهِ إنَّ وجوهَهم لنورٌ، وإنَّهم لعلَى نورٍ، ولا يَخافُونَ إذا خافَ الناسُ ولا يحزنونَ إذا حَزِنَ الناسُ، وقرأ هذه الآيةَ: "ألا إنَّ أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزنونَ" .

عن أبي ذرٍ رضي الله عنه قلتُ يا رسولَ الله، الرجلُ يُحِبُّ القومَ ولا يسْتَطيعُ أنْ يَعْمَلَ عملَهم ؟ قال: "أنتَ يا أبا ذرٍ مَعْ مَنْ أَحْبَبْتَ" .



أقوال الفقهاء والمحدثين في أهمية الصحبة وآدابها

ابن حجر الهيتمي:

يذكر ابن حجر الهيتمي في كتابه الفتاوى الحديثية قوله في الصحبة:

"والحاصلُ أنَّ الأَوْلى بالسالكِ قبلَ الوصولِ إلى هذهِ المعارفِ أن يكونَ مُديماً لِمَا يأْمرُهُ بهِ استاذهُ الجامعُ لطرفي الشريعةِ والحقيقة، فإنَّه هُو الطبيبُ الأعظمُ، فبمقتضى معارفهِ الذوقيةِ وحِكَمهِ الربانيةِ يُعطي كلَّ بدنٍ ونفسٍ ما يراهُ هو اللائقَ بشفائِها والمُصلحَ لغذائِها.

الامام فخر الدين الرازي:

قالَ الامام فخرِ الدينِ الرازي في تفسيرهِ المشهورِ عندَ تفسيرهِ سورةِ الفاتحةِ: عند قولهِ تعالى "صراطَ الذينَ أنْعمتَ عليهم"، وهذا يَدُلُ على أنَّ المريدَ لا سبيلَ لهُ إلى الوصولِ إلى

مقاماتِ الهدايةِ والمكرمةِ إلاّ إذا اقتدى بشيخٍ يهديهِ إلى سواءِ السبيلِ ويجنبُهُ عنْ مواقعِ الأغاليطِ والأضاليلِ، وذلكَ لأنَّ النقْصَ غالبٌ على أكثرِ الخَلْقِ وعقولِهم غيرُ وافيةٍ بإدراكِ الحقِ وتمييزِ الصوابِ عن الغلطِ، فلابُدَّ مِن كاملٍ يقْتدي به الناقصُ حتى يتقوى عقلُ ذلكَ الناقصِ بنورِ عقلِ الكاملِ، فحينئذٍ يصلَ إلى مدارجِ السعاداتِ ومعارجِ الكمالات.

الشيخ ابراهيم الباجوري:

قال الشيخُ الباجوري في شرْحِهِ على جوهرةِ التوحيد عند قول اللقاني:

فكُنْ كما كانَ خيارُ الخَلْقِ حليفَ حلمٍ تابعاً للحقِ

أي كُنْ مُتصفاً بأخلاقٍ مثلِ الأخلاقِ التي كانَ عليها خيارُ الخلقِ إلى أنْ قال: وإذا كانتِ المجاهَدةُ على يدِ شيخٍ من العارفينَ كانتْ أنْفعَ لقولِهم: حالُ رجلٍ في ألفِ رجلٍ أنْفعُ مِنْ وعْظِ ألفِ رجلٍ في رجل، فينبغي للشخصِ أنْ يلزمَ شيخاً عارفاً بالكتابِ والسُّنةِ، بأنْ يزِنَهُ قبلَ الأخذِ عنْهُ، فإنْ وجدَهُ على الكتابِ والسُّنةِ لازمَهُ وتأدبَ معه فعساه يكْتسِبُ مِنْ حالِه ما يكونُ به صفاءُ باطِنه، واللهُ يتولى هداه".

ابن قيم الجوزية:

قال ابنُ القيم في كتابه الوابلِ الصيبِ في الكَلمِ الطيِّبِ: "فإذا أرادَ العبدُ أنْ يقْتدي برجُلٍ، فلينظرْ هلْ هُوَ منْ أهْلِ الذكرِ أم الغافلينَ، وهلِ الحاكمُ عليه الهوى فإذا كانَ الحاكمُ عليه الهوى وهو من أهلِ الغفْلةِ كانَ أمْره فرطاً . . إلى أنْ قال: فينبغي للرجلِ أنْ ينظُرَ في شيخه وقدوته ومتبوعه، فإنْ وجدَه كذلكَ فليبعد عنه، وإنْ وجدهُ ممّنْ غلبَ عليه ذكرُ اللهِ تعالى، واتباعُ السُّنةِ وأمْرهُ غيرُ مفْروطٍ عليه بلْ هو حازمٌ في أمْرهِ فلْيسْتَمسِك بغرزهِ.

بعدَ هذا العرْضِ للأدلةِ على الصُحبةِ وأهميتِها في القرآنِ والسنةِ وأقوالِ الأئمةِ أهلِ الذوقِ يتضحُ لنا عدةُ أشياءَ منها: أنَّ الإنسانَ كما يحتاجُ جسدُهُ للماءِ والغذاء فيحتاجُ عقلُه للعلمِ والدرايةِ، ولا يستطيعُ تحصيلَ العلمِ إلا باتّخاذِ المُعلّمِ والمُرْشدِ ليُنيرَ لهُ الطريقَ ويكونَ له خيرُ صديقٍ.

وقد قيل: صديقُكَ مَنْ صدَقكَ وليس مَنْ صادَقك

والصديقُ هُنا هوَ الشيخُ المربي الوارثُ المحمديُ وشروطُ تلكَ المرتبةِ حتى يكونَ أهلاً للإرشادِ والتوجيه أربعة:

١. أنْ يكونَ عالماً بالفرائضِ العينية.

٢. أنْ يكونَ عارفاً باللهِ تعالى.

٣. أنْ يكونَ خبيراً بطريقِ تزكيةِ النفوسِ ووسائلِ تربيتها.

٤. أنْ يكونَ مأذوناً بالإرشادِ مِنْ شيخِه.

والقولُ بأنَّ مَن لا شيخَ لهُ فشيخُه الشيطانُ، فالمرادُ منهُ أن المريدَ حتمٌ سيقعُ بالجهلِ في كثيرٍ من الأمورِ لأنَّه يتبعُ الهوى الشيطاني، فمنْ كانَ لهُ معلمٌ يرشدُهُ إلى الصوابِ خيرٌ مِن رجلٍ لم يتخذْ معلماً، فضلَّ الطريقَ لأنَّه اتبعَ هواهُ ولم يعرفْ قدرَ مولاهُ ومثالُ ذلك:

رجلٌ رفضَ أن يأتي بمعلمٍ أو مدرسٍ يذاكرُ معَهُ القرآنَ فقررَ أنْ يقرأهُ وحدَهُ دونَ قيدٍ أو شرطٍ فإذا بهِ يخطئُ كثيراً سواءٌ في المعنى وفهمِه أو في اللفظِ ونُطْقِه فمنهم من يقرأ ألِفْ لآمْ ميمْ (ألـمْ) وهذا خطأ.

ومنهم قالَ إنّ اللهَ حرَّمَ النِساء (بكسر النون) وقال بأنَّه زيادةٌ في الكفرِ ولكن الصحيحُ النَّسيءُ .

ومنهم مَن يقفُ عندَ الوقفِ المُحرَّمِ ويبدأُ منه أيضاً، كقوله: "يدُ اللهِ مغلولةٌ أو عيسى ابنُ الله"، ومِنَ الجهْلِ أيضاً أنّ هذا القارئ إنْ قرأ آيةً منسوخةً وهو لا يدري الناسخَ والمنْسُوخَ فيحكُمُ بالمنسوخِ ويقيمُ الحُجَّةَ عليه وبذلك يكونُ مخطأً .

وقد أتى أحدُهم إلى سيدِنا عمرَ رضي اللهُ عنه وقال: يا عمر إنّ عيسى عليه السلام هو في النار قال له لِمَ، قالَ: قال اللهُ تعالى: "إنَّكم وما تعْبُدونَ من دون اللهِ حصَبُ جهنَّم أنتمْ لها وارِدُون" فقالَ له سيدُنا عمرُ ما أجهلكَ بلُغَةِ قومِك . فقوله (ما) هيَ لغيرِ العاقلِ أي الإنسان .

وآخر يُحرِّمُ أكلَ الفُرُوج (أي الدجاج) على السرُوجِ لورود النهي بالحديث الشريفِ ولكن قوله صلى الله عليه وسلم: "لعنَ اللهُ الفروجَ على السروج"، المرادُ به تشبُّه المرأةِ بالرجلِ .

أمّا مَن اتخذَ مُعلِماً لا يقعُ بهذِهِ الأخطاءِ الفادِحةِ التي تؤدي به الخروجَ من دائرةِ الإيمانِ.

والنفسُ أيضاً تحتاجُ إلى ترويضٍ، فهي تحمِلُ ما هو أشدُّ من الجهلِ فهي تحمِلُ الكِبرَ والعُجبَ والحسدَ، وكلُّ هذه الامورِ تجعلُ بينه وبينَ اللهِ حجاباً، فالذي عِندهُ شيخٌ يهذِبهُ ويعلمُه كيفَ يزيلُ الكِبرَ والعُجبَ من صدرِهِ ليكونَ عبداً حقاً فهو يسْلم غالباً من غوائلها. أمّا الذي لا يتخذُ من يقوِّمهُ إلى جادةِ الحقِ يظلُّ في الكِبرِ والعُجْبِ والحسدِ، واللهُ تعالى لا يُدخلُ مَنْ كانَ في قلبهِ مثقالُ حبةٍ من كِبرٍ إلى الجنةِ، لذا قالوا شيخُه الشيطانُ أي هواهُ قال تعالى في هذه الأمورِ: "وَبُرِّزَتِ الجحيمُ لِمنْ يرى، فأمّا من طغى وآثرَ الحياةَ الدنيا فإنَّ الجحيمَ هي المأوى، وأمّا من خافَ مقامَ ربِهِ ونهى النفسَ عن الهوى فإنَّ الجنةَ هي المأوى.

والقولُ بأنَّ مَنْ لم ينفعْهُ أدبُ المربي لمْ ينفعْه الكتابُ والسنة.

فهذا القولُ ينطبقُ على مَنْ كملتْ فيه الأوصافُ الرضيةُ الشرعية

وما رحالُ المربي والمرشدِ العالمِ بالكتابِ والسنةِ والفقيهِ بحالِ الأمةِ، فلا يأمرُ إلاَّ بما أمرَ اللهُ ورسولُه، ولا ينهى عن شيءٍ إلاَّ بما نهى عنهُ اللهُ ورسولُه، فإنْ لمْ يأخُذْ عنهُ وخالفَه لم ينتفعْ مِنه بما يفيدُهُ القرآنُ وبما أمرَ بِهِ لأنَّه سقيمُ النظرِ، فقدْ يقرأُ القرآنَ ولا يدري

ما أمره الله لجهله بالعربية وبعلوم القرآن، فيقرأه ولا ينتفع بالمعاني وهي تطبيق ما أوجب الله على عباده من أخلاق حميدة وأوصاف مجيدة، فيقرأ آية تحريم السرقة والخمر والزنا وغير ذلك من الأمور فلا يؤثر ذلك بقلبه، فيكون كما قال عليه الصلاة والسلام: "رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه"، قال الله تعالى: "قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً" الكهف ١٠٣.

والقول: إن من قال لشيخه: لم؟ لم يفلح أبداً.

كل هذه المعاني تتعلق بالشيخ وهمته وتعود إلى قربه ومكانته، والسادة الصوفية يستدلون بقصة سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام مع الخضر، لوجوب الالتزام والطاعة والسماع مع تفضيل موسى على الخضر عليه السلام. فبعد مطالعتك قصة الخضر قد ظهر أن ما فعله الخضر من خرق السفينة وقتل الولد وإقامة الجدار كان فيه من الحكمة الإلهية التي يعجز عن إدراك أسرارها وبواطنها كثير من الناس

وإذا وثق بدين الرجال الأصفياء، وأنهم من عباد الله الصالحين فلا ينبغي أن يُسألوا عن أمور تصدر عنهم مخالفةً لهوى الناس، وليست مخالفةً لشرع الله، وقد حرّم النبي صلى الله عليه وسلم القيل والقال وكثرة السؤال وقد ذكروا في الفقه أنّ المسلم إن دعاك إلى مائدته ليس لك أن تسأله من أين أتيت باللحوم أو من أين أتيت بالمال لأنّ ذلك طعنٌ في دينه .

والمراد أنّ القائل لشيخه لِمَ لا يُفلح لأنّه يبادر دائماً بالإعتراض دون قيد أو شرط، فقوله لِمَ ليست للإستفهام الذي يحصل عنه العلم إنّما لِمَ أي "من قال لك ذلك فالأمر خلافه" هذا معنى لِمَ .

وقد روى البخاري في الصحيح عن أبي سعيد رضي الله عنه أنّ رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إنّ أخي يشتكي بطنه فقال اسقه عسلا ثم أتاه الثانية فقال اسقه عسلاً ثم أتاه الثالثة فقال اسقه عسلاً ثم أتاه فقال: صدق اللهُ وكذب بطنُ أخيك اسقه عسلاً فسقاهُ فبرأ" ، في هذه القصة وإنْ لم يقل الرجل لِمَ إلاّ أنّه استغرب من الدواء الذي يسبب ما يسببُ في المعدة فإنّ العسل يزيد مرضها كما يعتقدُ فكان يتناول الدواء إلاّ أنّه

لم يعتقدْ أنّ اللهَ قدْ وضعَ فيه شفاءً لمرضِهِ، فعندما صدّقَ وجدَ ما اعتقدَهُ فحينما اعتقدَ الشفاءَ شُفيَ بإذنِ اللهِ تعالى.

أما القولُ باستحضارِ المشايخِ والصحابةِ ورسولِ اللهِ أمامَهم في الذكرِ فهذا يزيدُهم في الطاعةِ للهِ وعدمِ الإخلالِ بها والمرادُ في ذلك المراقبة.

وفي حديث جبريل عليه السلام الطويل "أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّك تراهُ"، فالإنسانُ في خلْوتهِ بينَه وبينَ نفسِهِ قد يَفسدُ حالُه فيتهاون بالأذكارِ حتى في الصلاةِ خالياً إنْ لمْ يشعرْ بأنّ اللهَ يراقبُه ومطلعٌ على حالِهِ تجدُهُ كثيرَ السهوِ لأنَّه لمْ يجدْ أمامَهُ أحداً يراقبُ حركاتِهِ وسكناتِه، وحيثُ أنّ الانسانَ ضعيفُ الحالِ فيتذكرُ كلامَ شيخِهِ الذي علَّمَه آدابَ الذكرِ، ويتذكرُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أنَّه أمامَه فهلْ سيعْصِي أمامَهم ؟؟ أبداً بل سيجلسُ كما كانَ أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وسلم -رضي الله عنهم يجلسون وكأنَّ على رؤوسِهم الطيرُ فليسَ الاستحضارُ سوى رادعٍ عن السهوِ ومجذبٍ له على طاعةِ اللهِ جل وعز.

ارتباط المريد والطالب بالمرشد

مما لا يختلف فيه اثنان أنَّ المريدَ إذا ارتبطَ بعالمٍ مرشدٍ مخلصٍ صالحٍ، فاهمٍ للإسلام على حقيقته، مندفعٍ له مجاهدٍ في سبيله، مطبّقٍ لحدوده وأحكامِه، وقّافٍ عند أوامرِهِ وزواجرِهِ، لا تأخذُه في الحقِ لومةُ لائم . . لا يختلف اثنان في أنَّ هذا المريد يكتملُ إيمانياً وخلقياً، وينضجُ عقلياً وعلمياً، ويتكوّنُ جهادياً ودعوياً، ويتربى بشكلٍ عامٍ على العقيدة الراسخة، والإسلام الكامل . .

فالمرشدُ الربانيّ والعالمُ الواعي الناضج هو الذي يُعطي القدوةَ الكاملة عن الإسلام، فلا يجوز له في دينِ الله أن يكتمَ علماً، أو أن يسكتَ عن حق .



كما أنَّه لا يجوز له أن يتغاضى عن منكر، أو يتساهل في واجب، أو يُحرِّف الكَلِمَ عن بعض مواضعه، أو يَخشى أحداً من ذوي الجاه والسلطان، أو يجدَ في حق الله مقالاً ثم يسكت عنه . . . وإذا فعل شيئاً من هذا فيكون كاتماً لما أنزل الله من البيّنات والهدى، بل كانَ من الذين لا ينظر الله إليهم ولا يزكّيهم يومَ القيامة. بل كان ممَّن يلعنُهم الله ويلعنهم اللاعنون. قال تعالى:

"إن الذينَ يكتمونَ ما أنزلنا من البَيِّنَاتِ والهدى من بعدِ ما بيّنّاه للنّاسِ في الكتابِ أولئك يلعنُهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذينَ تابُوا وأصلحُوا وبيّنوا فأولئك أتوبُ عليهم وأنا التوّابُ الرحيم".

(البقرة: ١٥٩. ١٦٠)

وقال أيضاً:

"إن الذينَ يكتمونَ ما أنزلَ الله من الكتابِ ويشترونَ به ثمناً قليلاً أولئكَ ما يأكلونَ في بطونهم إلا النار ولا يكلّمُهم الله يومَ القيامة ولا يزكّيهم ولهمْ عذابٌ أليم . . ".

(البقرة: ١٧٤)

والرسول صلوات الله وسلامه عليه قد أنذر بجهنم وساءت مصيراً كل من يكتم علماً ينفع الله به في أمر الدين، أو يسكت عن حق معلوم من الدين بالضرورة.

فقد روى ابن ماجه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "مَنْ كَتَمَ علماً مما ينفعُ اللهُ به في أمرِ الدينِ ألجمَهُ اللهُ يومَ القيامةِ بلجامٍ من نارٍ".

إن المرشدينَ المخلصينَ، والعلماءَ الربانيين، الذينَ حملوا في الماضي إمامةَ الإصلاحِ والتربية والإرشادِ، وتزكيةِ النفوس.. كانوا في الحقيقة على جانبٍ عظيمٍ من الفهمِ الإسلامي الكامل، وكانوا على درجةٍ كبيرة من الورع والتقوى، والتزامِ المنهج الإسلامي المتمثلِ في كتاب الله عز وجل، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، كانوا يعطون الصورة الصادقة عن الإسلامِ في سلوكهم الاجتماعي، وفهمهم الإسلامي، ومهمتهم الإرشادية، وتوجيههم التربوي. بل كانوا لا يسكتون عن منكرٍ رأوا من الواجبِ تغييرَه، ولا يتغاضون عن حقٍّ وجدوا من المصلحة أن يتكلموا فيه، ولا يتقاعسون عن جهادٍ مقدس دعت الحاجة إليه...

أما تمسكهم بالشريعةِ والتزامُهم للقرآن والسنةِ فلنستمعْ إلى ما يقولُه كبارُ هؤلاء الأئمة المرشدين، والعلماء الربانيين:

- يقول الإمام العارف الشيخ عبدُ القادر الكيلاني في كتابه "الفتح الرباني" ص٢٩: "كلُ حقيقةٍ لا تشهدُ لها الشريعةُ فهو زندقة، طِرْ إلى الحق عز وجل بجناحَيْ الكتابِ والسنة، أدْخِلْ عليه ويدكَ في يد الرسول صلى الله عليه وسلم".

ويقول: "تركُ العبادات زندقة، وارتكابُ المحظورات معصية، لا تَسْقُطُ الفرائضُ في حال من الأحوال".

- ويقول الإمام سهل التستري رحمه الله: "أصولُ طريقنا سبعة: التمسكُ بالكتاب، والاقتداءُ بالسنة، وأكلُ الحلال، وكفُّ الأذى، وتجنُّبُ المعاصي، ولزومُ التوبة، وأداءُ الحقوق".

- ويقول الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله تعالى: "إذا تعارضَ كشفُك مع الكتابِ والسنة، فتمسكْ بالكتابِ والسنة، ودعِ الكشف، وقل لنفسك: إن الله تعالى

ضَمِنَ لي العصمةَ في الكتابِ والسنة، ولم يضمنْها في جانبِ الكشف، ولا الإلهام، ولا المشاهدة إلا بَعْدَ عرضِه على الكتاب والسنة" .

- ويقول الإمام أبو سعيد الخراز رحمه الله تعالى: "كلُ باطنٍ خلافُه الظاهرُ فهو باطل" .

- ويقول شيخ الأئمة الربانيين محي الدين بن العربي رحمه الله تعالى: "لقد أجمعَ رجال التصوفِ جميعاً على أنه لا تحليلَ ولا تحريمَ بعد شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخاتم النبيين، وإنما هو فَهْمٌ يُعطى في القرآن لرجال الله، وفيضٌ من العلم يَهَبُهُ الله لمَنْ أطاعه فألهمه، وجعلَ له نوراً" .

بل نجدُ من هؤلاءِ الأئمةِ الربانيين من يُنَبِّه إلى خَطَرِ أولئكِ الأدْعياءَ الباطنيين الذين يُسْقِطونَ عن أنفسِهم وأتباعِهم التكاليف، ويعطّلون أحكامَ الشريعة، ويؤوّلون النصوصَ على خلافِ ما تحتمل، ويسيرونَ في سلوكهم وتوجيههم على غيرِ سنن الإسلام . . بل نجدُهم يحذرون من مصاحبتهم ومجالستِهم، ويتبرّؤون من ضلالاتِهم وانحرافاتِهم، ويشهرون بآرائهم وأباطيلهم.

- يقول أبو يزيد البسطامي رحمه الله لبعض أصحابه: "قم بنا حتى ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مقصوداً مشهوراً بالزهد، فمضينا إليه، فلما خرج من بيته ودخل المسجد رمى ببزاقة تجاه القبلة، فانصرف أبو يزيد ولم يسلّم عليه، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه".

ويقول أبو يزيد أيضاً: "لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى تربّع في الهواء فلا تغترّوا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة".

- ويقول سهل بن عبد الله التستري: "احذر صحبة ثلاثة أصناف من أصناف الناس: الجبابرة الغافلين، والقراء المداهنين، والمتصوّفة الجاهلين".

- ويقول الإمام الرباني الجنيد رحمه الله: "مذهبنا هذا مقيدٌ بأصول الكتاب والسنة. الطرق كلها مسدودة في الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم..".

- ويقول الإمام الشعراني في كتابه "اليواقيت والجواهر" "كلُّ من رمى ميزانَ الشريعةِ من يده لحظةً هلك".

أما صرختهم لإعلاءِ كلمة الحق، ووقوفهم أمامَ الباطلِ والمنكر، وجهادِهم المقدس في سبيل الله فلنستمعْ إلى ما يقوله كبارُ الكتّابِ المحققين عن أئمةِ هؤلاءِ المرشدينَ الربانيين في مواقفهم البطولية وأعمالهم الجهادية، وتأثيراتهم الدعوية، وإرشاداتهم الإصلاحية والتربوية.

يقول الشيخُ الجليل أبو زهرة رحمه الله: التصوفُ في عصورِنا المتأخرةِ كان له مزايا، وكانتْ له آثارٌ واضحة، فالمسلمون في غربِ افريقيا، وفي وسطها وفي جنوبها، كان إيمانُهم ثمرةً من ثمرات التصوف.

والإمام السنوسي الكبير عندما أرادَ أن يُصلحَ بين المسلمين اتجهَ أوّلَ ما اتجه إلى أن نهج منهاجاً صوفياً، وكان منهاجُه في ذاتِه عجيباً غريباً، فإنه اتخذَ المريدين، ثم أرادَ أن يجعلَ من هؤلاء رجال أعمالٍ، ولذلك أنشأَ الزوايا، وأول زاوية أنشأها في جبلِ حولَ مكة

ثم انتقل بزواياه في الصحراء، وهذه الزوايا كانتْ واحاتٍ عامرة في وسط الصحراء، وبعملِ رجالِهم وقواتِهم، استنبطَ الماءَ وجعل فيها زرعاً وغِراساً وثماراً.

ويقول الكاتب الإسلامي الكبيرُ الأمير شكيب أرسلان في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) تحت عنوان (نهضة الإسلام في أفريقيا وأسبابها) في القرن الثامن والتاسع عشر: أنه قد حصلتْ نهضةٌ جديدة، وتحدّثَ عن الشاذليةِ وأهلِها وقال: أما الشاذلية فنسبتها إلى ابي الحسنِ الشاذلي الذي أخذ عن عبد السلام بن مشيش الذي أخذَ عن أبي مدين.. وهي من أوّلياتِ الطرق التي أدخلت التصوف إلى المغرب، ومركزُها في مراكش، وكان أشياخُها سيدي العربي الدرقاوي (المتوفى سنة ١٨٢٣م) الذي أوجد عند مريديه حماسَةً دينيةً امتدتْ إلى المغرب الأوسط، وكان للدرقاوية دورٌ فعالٌ في مقاومة الفتح الفرنسي.

ويقول الأستاذ صبري عابدين في ندوة لواء الإسلام: "والواقعُ أن الصوفية ينشرون الإسلام في العالم، وأذكرُ لكم أنه منذ خمسين عاماً كتب الشيخ البكري كتاباً ذكرَ فيه نقلاً عن المبشرين يقول: "إن هؤلاءِ يقولون: ما ذهبنا إلى أقاصي المناطقِ

البعيدة عن الحضارة والمدينة في أفريقيا، وأقاصي آسيا إلا وجدنا الصوفي يسبقنا إليها، وينتصر علينا".

ليت المسلمين يفهمون ما في الصوفية من قوة روحية مادية، فجنودهم مجندون للإسلام.

ورأيت على حدود الحبشة، والسودان، وأرتيريا، بعثة سويدية للتبشير، ووجدت إلى جانبهم أكواخاً أقامها الصوفيون، وأفسدوا على المبشرين السويديين إقامتهم أربعين سنة، ولذلك أرجو أن نتعاون لإخماد هذه الحركات التي تؤذينا دينياً وسياسياً، وإن الذين يحملون على الصوفية ليسوا فوق مستوى الشبهات، بل غارقون في الشبهات".

ويقول الداعية الكبير أبو الحسن الندوي في كتابه "رجال الفكر والدعوة في الإسلام" عن العالم الرباني الشيخ عبد القادر الجيلاني: "كان يحضر مجلسه نحو من سبعين ألفاً، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من "الأشقياء" أكثر من خمسمائة ألف، وفتح باب البيعة والتوبة على مصراعيه، فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا الله، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم

ويشرفُ عليهم وعلى تقدمهم، وأصبحَ هؤلاء التلاميذ الروحانيون، يشعرون بالمسؤولية بعد البيعةِ والتوبةِ وتجديدِ الإيمان، ثم يجيزُ الشيخُ كثيراً منهم ممّن يرى فيه النبوغَ والاستقامةَ والمقدرةَ على التربية.

فانتشروا في الآفاق يدعونَ الخلقَ إلى الله، ويربونَ النفوس ويحاربونَ الشركَ والبدعَ والجاهلية والنفاق، فتنتشرُ الدعوةُ الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي.

ولا شك أن المريدَ حين يرتبط بالقدوة الواعي بالشكلِ الذي بيناه، ويلتقي بالمرشدِ العالمِ الرباني بالحال الذي وصفناه. فيتربّى على التقوى وطاعةِ الله عز وجل، وينشأُ على الإخباتِ لله سبحانه والجرأة في الحق، ويُدرّجُ على التعبد في المحراب ومقارعةِ الأعداء في ميادينِ الجهاد والوغى، عندئذٍ يندفع إلى إقامةِ حكم الله في الأرض بحرارةِ الإيمان، ونخوةِ الإسلام، واندفاعِ الشباب، وحصيلةِ الوعي، ونتيجة الفهم، واستشعار المسؤولية. وينطبق عليه قول القائل:

على قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ

وتأتي على قدْرِ الكرامِ المكارمُ

وتَعْظُمُ في عينِ الصغيرِ صغارُها

وتَصْغُرُ في عينِ العظيمِ العَظَائِمُ

فبهذا التكوين الذي اكتمل، وبهذه التربية التي تلقنها، على يدِ هذا المرشد الرباني لَبِنَةً صالحةً في الكيانِ الإسلامي العام، فعندئذٍ يتحقق على يديهِ عزُّ الإسلام، ونصرُ المسلمين، وإقامةُ دولة القرآن العتيدة، وما ذلك على الله بعزيز.

فعلى كل طالبٍ ومريدٍ أن يبحثَ عن عالمٍ مرشدٍ رباني تجتمعُ فيه هذه الصفاتُ وتكتملُ في شخصيتِهِ هذه المفاهيم، حتى إذا ارتبطَ به أعطاهُ التلقينَ الإسلاميَّ الصحيح المتكامل، ووجَّهَ قلبه وفكرَهُ وروحَهُ إلى منهجِ الإسلام الشامل، وربَطَه بالحقِ والشرعِ وتوجيهات السلف.

وأنا أقول: إن بعضَ من يَدَّعِي الإرشادَ والتوجيه، وتلقينَ الأذكارِ قد أخطأَ الطريق وأساء إلى لغةِ القومِ واصطلاحِهم حيث يعمدونَ جهلاً إلى بعضِ التصرفات والأعمالِ المخالفةِ لظاهرِ الشريعة، فهؤلاء هم جهلاءُ الصوفيةِ وما أكثرهم.

- فالمرشدُ الذي يَدّعِي لنفسِه الحفظَ والعصمةَ فهو جاهلٌ دعيٌّ.

- والمرشدُ الذي يُمَنّي المريدَ بإرشادِه، ويصرفه عن تأثيرِ القرآن الكريم وهدايته، وهدايةِ السنة المطهرة فهو جاهل دعيّ.

- والمرشدُ الذي يُقْنِعُ المريدَ بأن يَسْكُتَ عن معصيتِه إذا عصى لتصوّرِه المعصيةَ طاعةً فهو جاهل دعيّ.

- والمرشدُ الذي يكتمُ علماً ينفعُ اللهُ به في أمر الدين، أو سكت عن توضيح حق معلوم من الدين بالضرورة فهو جاهل دعيّ.

والذي نخلُص إليه بعد ما تقدم أن هؤلاءِ الذين سبقَ ذكرهم من العلماء الربانيين، والمتصوّفةِ الواعين، وأصحابِ الطرقِ المخلصين، هم الذين حملوا خلالَ العصور إمامةَ الدعوةِ إلى الله عز وجل، ورسالةَ الإسلام الحقةِ إلى الناس، وهم الذين جمعوا ما بين العبادةِ والجهاد، ووفّقوا بين حقوقِ الله، وحقوقِ العباد. وهم الذين أعلنوا صوتَ الحقِ أمام المستبدين الظالمين، ووقفوا ببسالةٍ فائقةٍ أمام المستعمرين الغاشمين.

هؤلاء هم الذين ربطوا الحقَ بشريعةِ الإسلام الحق لا بأشخاصهم الفانية، ينتظرون ما يحكم الشرعُ لهم أو عليهم، يقبلونَ الانتقادَ إذا أخطأوا، والمناصحةَ إذا نزلوا، اعتقاداً بأنهم بَشَرٌ يصيبون ويخطئون، . لأن العصمةَ لا تكونَ إلا للأنبياء.

ورحم الله الإمام مالك حينَ وقفَ مرةً أمام قبرِ الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: "ما منّا إلا مَن رُدَّ ورُدَّ عليه إلا صاحبُ هذا القبر" وأشار إلى قبرِ النبي صلى الله عليه وسلم.

ومن المواقفِ الخالدةِ التي كان يقفُها العلماءُ المخلصون من الشرعِ والحقِ موقفُ عالمِ العصر ومرشدهِ الشيخ "سعيد النورسي" التركي، الملقب بـ "بديع الزمان" رحمه الله وأجزلَ مثوبته، هذا الموقفُ يتلخصُ أنّه حينَ أحسَّ مرةً أن من بين طلابه ومريديه من يذهب في تقديسه وتعظيمه حداً عظيماً، ويربطُ معالمَ الحقِ بشخصه الفاني، قال لهم موصياً وموجهاً وناصحا: "إيّاكُم أن تربطوا الحقَ الذي أدعوكُم إليه بشخصي الفاني، ولكنْ عليكم أنْ تبادروا فتربطوه بينبوعهِ الأقدس: كتاب الله، وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ولتعلموا أنني لستُ أكثر من دلاّلٍ على بضاعةِ الرحمن جلَّ جلاله، ولتعلموا أنّني غير معصوم، قد يفرطُ مني ذنبٌ أو يبدو مني انحراف، فيتشوّهَ مظهرُ الحقِ الذي ربطتموه بي بذلك

الذنب أو الإنحراف، وارتكاب الآثام، أو صارفاً لهم عن الحق بما شوّهه واختلطَ به من انحرافي وآثامي".

ومن المواقفِ الخالدةِ لعلماءِ السلفِ الربانيين أيضاً موقف عبدالله بن المبارك من الفضيل بن عياض - رحمهما الله - حين بلغه أن الفضيل قد لزم العبادة بحرم مكة، وآثر السلامة على الجهاد في سبيل الله كتب له قصيدة مشهورة نجتزيء منها هذه الأبيات:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرْتَنا

لوجدتَ أنّكَ بالعبادةِ تلعبُ

من كان يتعب خيله في باطل

فخيولنا يوم الكريهة تتعبُ

أو كان يخضب خده بدموعه

فنحورُنا بدمائنا تتخضبٌ

ريح العبير لكم ونحن عبيرُنا

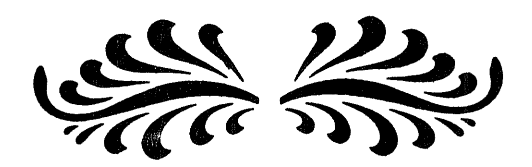
رَهَجُ السنابك والغبار الأطيبُ

فلما بلغ الفضيل هذه الأبيات بكى وقال: صدق أخي ونصحني.

وحين كتب له هذا كان ابن المبارك ملازماً للجهاد والرباط بأرض الشام رحمه الله ورضي عنه.

فما أعظمَ العالِمَ المرشدَ حين يقيس نُفسَه بالحق، ولا يقيسُ الحقَّ بنفسه. وما أعظم قدوته عند الناس حين يعطيهم الإسلامَ منهاجاً شاملاً عاماً.

اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.



رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة الصوفية

إنه من البداهة القولُ، ومن نافلة الحديثِ، الجزمُ بأنّ الصوفيةَ أهل الله لم يبتدعوا عملاً من عند أنفسهم، ولم يخترعوا سلوكاً من تلقاءهم، ولم يُحدِثوا ما ليسَ هو ردٌ، بل كلُ عمل عملُوه، أو فعلٍ أحدثوه، أو سبيلٍ اتبعوه، أو نهجٍ سلكُوه، إنّما له عندَهم أصلٌ من أصولِ الشريعةِ، سواءٌ كان كتاباً أو سنةً، أو فعلَ الصحابةِ الكرام، أو التابعين أصحابِ الخيرية الذينَ مدحهم عليه الصلاة والسلام .

فكانوا أهل الشريعةِ والحقيقةِ والدينِ والعلمِ والتقوى، إذْ كيفَ يُعقَلُ أنْ يعبدُ أحدُهم ربَه من غيرِ تبصرٍ بأمورِ الشريعةِ الغراءِ، والوقوفِ على الفرائضِ والواجبات التي فرضها الشرعُ علينا وأوجبها .

وهم كتبوا على أنفسهم هذا النهج والسبيل وساروا عليه من غير كلل، حتى لا يكون لأي متبجح أو مُغْرِضٍ انتقاص حقهم، أو الاعتراض عليهم، أو اتهامهم في طريقتهم وأسلوبهم، فعلى طريق الرسول - وما أتى به - ساروا بكل قوتهم نحو مسالك العلم والمعرفة. حتى سَطَّرَ الجنيد قولته المشهورة: "أمرنا هذا مقرونٌ بالكتاب والسنة وقيل ما اتخذ الله ولياً جاهلاً ولو اتخذه لعلّمه.

ويَحْسُنُ هنا أن نذكر بعض أحوالهم وصفاتهم وأنها تتعانق وتتجانس مع أفعال وأعمال وأقوال سيد ولد آدم عليه الصلاة والسلام.

فعن التواضع أخذوا حديث النبي صلى الله عليه وسلم من تواضع لله رفعه، وأن الله أوحى إليّ أنْ تواضعوا، واللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً واحشرني في زمرة المساكين، أي المتواضعين، فكانت أعطافهم لينة، ونفوسهم رقيقة، حتى كانوا أرضاً منخفضةً للآخرين حباً وتواضعاً وصفاءً واخلاصاً، حتى قال شيخنا الشيخ محمد الرنكوسي رضي الله عنه: "يا أبنائي الأرض المنخفضة تأخذ خيرها كاملةً، ويُقْبِلُ الخلق إليها إقبال تقديرٍ واحترامٍ. ويضرب المثل لذلك بأنّ الماء المنهمر ينزل ويصب على رؤوس

الجبالِ الشامخةِ، والأماكنِ المرتفعة، وعلى الصخورِ الصلبة، ثم في نهايته ينزلُ إلى ما سفلَ من الأرضِ، إلى الوادي، فتسيلُ بها الجداولُ والينابيعُ والأنهارُ، فيتكلفُ الخلقُ إتيانَه للإفادة والارتواءِ والتزود.

وعن مصادقةِ الفقراءِ والمساكين، فقد اقتدوا بقولِ اللهِ تعالى لنبيهِ صلى اللهُ عليه وسلم: "واصبرْ نفسكَ مع الذينَ يدْعُونَ ربهم بالغداةِ والعشيِّ يريدونَ وجهَه ولا تعْدُ عيناكَ عنهم تريدُ زينةَ الحياةِ الدنيا".

لأن صحبةَ الفقراءِ، وهم الذينَ يفتقرونَ إلى رحمةِ اللهِ تعالى صادقينَ، تورثُ في القلبِ الصفاءَ والوفاءَ والجميلَ من اللقاء، وقد قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللهَ وكونوا مع الصادقِين" وهذه المعيةُ الرائعةُ الجميلةُ للاكتسابِ والاقتباسِ والافادةِ ودفعِ أي التباس.

واللهُ تعالى عظَّم هذه المعيةَ ومدحَها ورغَّبَ فيها ورفعَها وقد قال تعالى: "محمدٌ رسولُ اللهِ والذينَ معه أشداءُ على الكفارِ رحماءُ بينهم" وما أروعها من معيةٍ صادقةٍ مؤمنةٍ تولدُ الرحمةَ والمحبةَ والصدق.

ومن الزهد في الدنيا وحطامها، أخذوا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابي الجليل: يا رسولَ الله دلَّني على عملٍ إذا عملتُه أحبني اللهُ وأحبني الناسُ قال: "ازهدْ في الدنيا يحبُك اللهُ وازهدْ فيما في أيدي الناس يحبُك الناس" .

فقد تركوا لله تعالى ما تميلُ إليه أنفسُهم، وأبغضُوا الدنيا التي لا يَسْلمُ من شراكِها إلا الأفذاذُ من الرجال، وتركوا راحةَ الدنيا طلباً لراحةِ الآخرةِ الفاخرة، وخَلُّوا قلوبَهم من النفائسِ والملذاتِ، وهجروا جُلَّ العاداتِ والمباحات، فاستنارتْ أفئدتُهم، وزينُوا بواطنهم، وتضوَّعَتْ بالمسكِ الإذْفرِ ظواهرُهم، فأقبلَ عليهم الخلقُ فنهَلوا من معينِ صدقِهم، وتكاثرَ الطالبونَ على الماءِ وتواردوا عليه لعذوبةٍ وصفاءٍ ولذيذِ إخلاصِهم، حتى قيل فيهم: "عند المورد العذب يكثر الظمآن" .

ومن كثرةِ البكاءِ أخذوا من قولِ رسول الله صلى الله عليه وسلم: من بَكى مِنْ خشيةِ اللهِ لم يُدْخَلِ النارَ حتى يعودَ اللبنُ في الضَرْعِ .

وكمْ مِنْ مرةٍ بكى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم خشيةَ للهِ وشوقاً . .

ويروى أن نبيَّ الله شعيباً بكى بكاءً مريراً حتى قال الله تعالى له: يا شعيب إن كنتَ تبكي -وأنا أعلم- خوفاً من النارِ فقد أمنتُك منها، وإن كنت تبكي شوقاً إلى الجنةِ فقد أوجبتُها لك، فقال: يا رب لا أبكي لهذا ولا لذاك ولكن أبكي حباً لك يا رب العالمين، فقالَ الله تعالى: أكثرْ من البكاءِ فهذا داءٌ لا دواءَ له.

حتى قيل: إن سيدنا عمر كان له خطانِ أسودانِ على وجنتيهِ من كثرةِ البكاءِ.

فهؤلاء البكاؤون قد رزقَهم الله شيئاً من الفَهمِ النوراني من حديثِ سيدِ ولدِ آدم القائل: لو تعلمونَ ما أعْلم لضحكتُم قليلاً ولَبَكَيْتُم كثيراً".

فقد انهمرتْ دموعُهم، وسالتْ خشيةً للهِ على خدودِهم، وبللتْ وأخْضلَتْ بطهارتِه لحاهُم، وسقوا ترابَ زرعِهم، فانبعثت أغصانُ قلوبِهم، وكثرتْ ثمارُهم، وبسقتْ أشجارُهم.

لذلك نرى أن أحوالهم كلّها توضع في ميزانِ الشرعِ الدقيقِ مِن غيرِ مخالفةٍ، وإني أذكرُ لكَ بعضَ مبادئِهم، ومن أين اقتبسوها:

ففي حالِ محاسبةِ النفسِ اقتبسوا مِن حديث رسول الله صلواتُ ربي دائماً عليه: "الكيّسُ من دانَ نفسَه وعَمِلَ لما بعد الموتِ، والعاجزُ من أتْبَعَ نفسَه هواها وتمنّى على اللهِ الأماني".

وفي حالِ الاعترافِ بالذنب اقتبسوا من حديث رسول الله صلوات ربي عليه دائما "البر لا يبلى والذنب لا يُنسى والديان لا يموتُ، إعملْ ما شئتَ كما تدينُ تُدانُ".

وفي حال اقتراف الخطيئة اقتبسوا من حديث رسول الله صلوات ربي دائماً عليه: "وليَسعْكَ بيتُك وابْكِ على خطيئتِك".

وفي حال التحذير من الدنيا اقتبسوا من حديث رسول الله صلوات ربي عليه دوماً: "الدنيا دار لمن لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له".

وفي حال التذكير بالموت اقتبسوا من حديث رسول الله صلوات ربي عليه دائماً:

"اذكروا هازم اللذات مفرق الجماعات".

وفي حالِ المؤاثرة اقتبسوا من قول الله تعالى دوماً لهم: "ويؤثرون على أنفسِهم ولو كان بهم خصاصة".

وفي حال المحبةِ الصادقة اقتبسوا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمنُ أحدكم حتى يحب لأخيه كما يحبُ لنفسه".

وفي حال الوجد والتواجد اقتبسوا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

"لروحة أو غدوة في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها".

وفي حال الذكر اقتبسوا من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ القلب ليصدأ وجلاؤه ذكر الله تعالى".

وعن مداومة الذكر أخذوا من قول الله تعالى: "اذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون"، وقوله: "الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض"، فعلموا علم اليقين، والخبر المبين، وبالقول الرصين أن تصرفاتهم وأعمالهم على نهج العلم والمعرفة وعلى طريق الدلائل الشرعية البينة الواضحة التي لا لبس فيها ولا تلبيس، ولا افتراء ولا تكذيب.لأن ميراثهم العلم والعلماء وأهل الفتوحات الربانية الذين أثر العلم في ظاهرهم وباطنهم فالتزموا .

والله تعالى قال: "قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الالباب" .

ومن كثرة الصلاة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أكثر من السجود فسألته عائشة لم تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: "أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً" .

ولأن الصلاةَ معراجُ الصالحينَ إلى رضاءِ الله، وروضُ الرياحين الذي عبقَ أريجُه صدقاً في طاعته، وبستانُ العارفين، ينعمون في خيراتها سُجّداً وقياماً، ليصلُوا إلى الغايةِ الطيبةِ التي يرضى عنها حبيبُهم، وقد مدحَ اللهُ الصالحينَ المصلينَ الساجدينَ بقوله: "سيماهُم في وجوهِهم من أثرِ السجود" حيث نوّرَ اللهُ باطنَهم فانعكسَ على ظاهرِهم.

وقد رأى أبو ترابٍ النخشي أحدَ تلاميذِه وقد أنارَ اللهُ وجهَه في وضَحِ النهارِ فقال له: يا بنيّ ما لي أرى أناساً قد أضاءَ اللهُ وجوهَهم في وضَحِ النهارِ، قالَ يا سيدي: أولئكَ اختلوا بحبيبِهم في الليلِ فاكتسبُوا من نورِه.

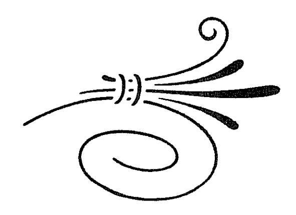
وغير ذلك من القواعدِ الشرعيةِ والأصول الفقهية التي بنوْا عليها طريقتَهم وسلوكَهم ونهجَهم وحياتهم.

فقد كانوا يصومونَ في النهارِ ويبكونَ في الليلِ وقد امتلأتْ قلوبُهم خشوعاً وخضوعاً لله تعالى ذاكرونَ زاهدونَ متهجدون.

فإذا أمعن النظرَ أصحابُه، وعدل بالحق رواده، واتسم بالإنصافِ عشاقُه جزم حقيقة أنهم برسول الله صلى الله عليه وسلم مقتدون وله متبعون وبأخلاقه يستمسكون لأنهم في حالِ أذكارِهم وتواضعهم وملاطفتهم وزهدهم وبكاءهم وصلاتهم وترطيب قلوبهم وصلوا إلى مقام الإحسان، حيث يجالسون ربَّ العزةِ جلَّ جلالُه لقولِه في الحديث القدسي: "أنا جليسُ من ذكرني".

والمرادُ منه جلوسَ رحمةٍ وغفرانٍ وتجلياتٍ كريمةٍ، لا يشعرُ بها غيرُهم، لذلك أكثروا من الأذكارِ والعبادات، فقد كانَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلمُ ذاكراً لله على كلِ حالٍ.

فأورثهم ذلكَ خشيةً أنطقتْهم بالحكمةِ، وأطلقتْ ألسنتُهم ينابيعَ للخيرِ ومعادنَ للهدايةِ والنورِ.



إلى جانبِ ما وهبَهم اللهُ تعالى إياهُ من علمٍ ورقيٍ يتردَّدُ على ألسنتِهم، وعلومٍ اكتسبوها من تجربتِهم، وروحانيةٍ من ذكرِ اللهِ تعالى، غذوْا بها أرواحَهم فلازموا العبادةَ على وجهِها، وامتلأتْ قلوبُهم من تقوى اللهِ تعالى، وهذه هي فوائدُ الذكرِ وثمرتُه.

ولقد كان شيخُنا رحمه الله تعالى يجلسُ ذاكراً مطرقاً خاشعاً جلوسَه للصلاة مستقبلَ القبلة ترى الدموعَ تنهمرُ من عينيه، كأنهُ هالةٌ من نورٍ، يسترسلُ في اللهِ تفكراً وذكراً، حتى أن الناظرَ إليه يكتسب منه رونقاً وبهاءً وحباً. وكأنَّ سِلْكاً كهربائياً يدخلُ في قلب الناظرِ إليه فيتولدُ فيه النورُ والخيرُ والبركةُ وحسنُ الإعتقادِ بأولياءِ اللهِ تعالى نفعنا اللهُ تعالى بهم آمين. فهم أولياء علماء بكاؤُن أبداً.

وإن رسولنا صلى الله عليه وسلم قال:

"يوزَنُ مداد العلماءِ بدمِ الشهداء يوم القيامة"، من أجل هذا نؤكدُ دائماً أن الصوفي من ضرورته العلم والتعلم والتعليم والعمل به.

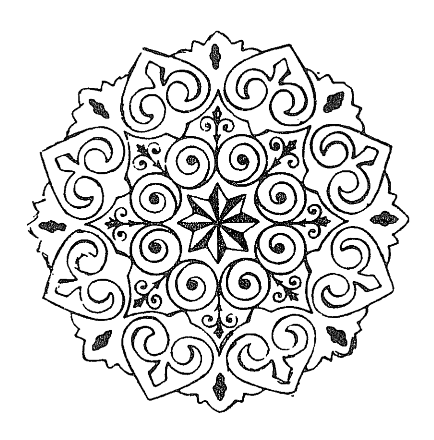
فهُم رضي الله عنهم فتحوا أبوابَ العلم والمعرفةِ والتزود منهما، وفتحوا نوافذَ العلمِ، ونظروا في أدقِ المسائلِ واستنبطوا لبَ القواعد، ودقائقَ الإشارات، وطوالعَ اللوامع، وساروا على نهجِ الهدايةِ والتقايةِ والدررِ، فملؤوا الدنيا بشتولِ رفعته، وأسبغوا كواملَ كمالِيته، حتى أصبحوا مضربَ الأمثالِ السائرة.

لأن مِنْ يحتاجُ إلى العملِ، سيحتاجُ إلى العلمِ، ومن ضرورتِه العملُ المقرونُ بالصدق، فتلاقتْ أبكارُ أفكارِهم، فأورثهم الله فهماً وعلماً وعملاً، وصدقَ عليهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عَمِلَ بما عملَ أورثَه اللهُ عِلمَ ما لمْ يعلم".

ورحم الله شيخَنا الشيخ محمود الرنكوسي رحمه الله تعالى البرَّ، الذي كان صورةً صادقةً عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم حيث كان قدوتُه علماً وعملاً ونهجاً وسلوكاً، فإن أتيتَه من ناحيةِ العلمِ وجدتَه عَلَماً لا يبارى، وجبلَ علمٍ لا يُمارى، فقيهٌ سَرْخَسي زُمانِه، أصوليٌ بزدوي عُصره، لغويٌ سيبويه أوانِه، صوفيٌ نقشبنديُ دهره، مفسرٌ أسيوطي أيامه، إجتماعيٌ خلدوني زمانه، ومرشدٌ حارثيُ مُصره، وفي الحجة والبرهانِ والإقناعِ والعقيدة ما تريديُ أجمعت الأمة عليه. وأذكر انني وفي سنة ١٩٦٨م عندما

طلبتُ من شيخي الطريق وقد أكرمني بها - بعد رؤية طيبةٍ ذكرتُها في غير هذا الموضع - قال لي يا بُنيَّ إن طريقَنا هذا هو العلمُ، واتباعُ طريقِ العلمِ هو العمل.

اللهم علمنا وانفعنا بما علمتَنا وزدنا علماً.



الخلاصة:

إن التصوف يتسامى إلى نظرية خاصة في المعرفة وسبيل الوصول إليها، وهذه النظرية على ما بيّنه الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين هي: "السعادة التي وعد الله بها المتقين، هي المعرفة والتوحيد، والمعرفة هي معرفة حضرة الربوبية المحيطة بكل الموجودات، إذ ليس في الوجود شيء سوى الله تعالى وأفعاله والكون كله من أفعاله.

وقد أقتبسوا معاني عظيمة من رسولنا الأكرم ومن صفاته الفاضلة.

فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً" أي بقدر ما يكفيهم من غير زيادة ولا إسراف. ورويا أيضاً عن عائشة رضي الله عنها قالت: "ما شبع رسول الله صلى الله علية وسلم ثلاثة أيام تباعاً من خبز بر حتى مضى لسبيله".

وروى البخاري ومسلم أنَّ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: "إن كُنَّا لننظُر إلى الهلالِ ثلاثةَ أهلةٍ في شهرينِ وما أوقدت في أبياتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم نارٌ، فقال عروةُ: ما كان يعيشُكم؟ قالتْ الأسودانِ: التمرُ والماءُ.

وروى البخاري ومسلم عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: "لقد توفي النبيُ صلى الله عليه وسلم وما في رفّي من شيءٍ يأكلُه ذو كبدٍ إلا شطرُ شعيرٍ في رفٍ لي فأكلتُ منه حتى طالَ عليَّ ففنيَ.

من هذه الأحاديث التي تخالط القلبَ والروحَ والجسدَ، وتحركُ في الإنسانِ وجدانَه واحاسيسه، تعلم علمَ اليقين أنَّ الطريقةَ التي اتبعَها أهلُ اللهِ الصوفيةُ رضي الله عنهم في تركِ الدنيا وحطامِها وعدمِ التمسك بمفاخرِها وملذاتِها، ومخالفةِ النفسِ وأهوائِها هي طريقةُ رسولِنا الأكرم ونبينا الأعظم، فهل بعدَ الحقِ إلا الضلال فهل يجوز لامرئ بعد ذلك أن يعترض أو ينقص عليهم طريقتهم وسلوكهم.

الامثلة الذهبية في رجالٍ مضوا

المثالُ يوضح القاعدة، والشاهدُ يثبتها، وكمْ لدينا من أمثلةٍ وشواهد أوضحتْ واثبتت قواعدَ هذه الطريقة، وأظهرت لوامعَ خيرها، وسبرتْ غورَها الثمينَ الطيب، وإني ذاكر بعضَ الأمثلةِ الذهبيةِ الحيةِ الصحيحةِ السليمةِ من الشوائب، لأُدللَ أنَّ كبارَ العلماءِ الصوفية المرشدينَ الأصفياء، والموجهين النبهاء، لهم اتباعٌ كثر، في كلِ عصرٍ ومصرٍ، أخذوا من ينابيعهم، وارتشفُوا من علومِهم، وبايعهُم مريدوهم وتلاميذهم وأتباعُهم مبايعةً مقتبسةً من مبايعةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم التي حصلتْ، مبايعةً على الصدقِ والعلمِ والوفاءِ وتقوى الله تعالى .

المثلُ الأول:

من أولئكِ الجهابذةِ، شيخِنا وقدوتِنا صاحبِ النورِ القُدْسي، والجمالِ الأنسي، من تكحلتْ ربيعُ نواظري بمعرفتِه، وسلَّكني في عِقْدِ دُرٍ نضيد، وغرسَ فيَّ شتولَ بستانِ العارفين، شيخي وقرةُ العينِ مني، العارفُ باللهِ الشيخ محمود بعيون الرنكوسيّ رحمه الله ورضي عنه.

فقد أفنى حياتَه وأيامه في دارِ "العلم والمعرفة"، دار الحديث الأشرفية في العصرونية في دمشقَ، إذ أسس مدرسةً لطلابِ العلمِ الشرعي، وجَهدَ في تربيتهم وإرشادِهم على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى دروبِ الصحابةِ والتابعينِ رضي الله عنهم، حتى غدا باباً لثناء أهلِ الشام عليه، وأضحى منارةً يسترشدُ بها الطالبون، وآضَ للعبادةِ ساجداً ذاكراً في محرابه، فقد أغنى العلمَ ثراءً، والطريقةَ صفاءً، على نهجِ شيوخِه العلماءِ الأولياءِ، أمثالِ رئيسِ رابطةِ علماءِ الشامِ، المتفننِ بالعلومِ والمفاهيمِ، قدوةِ العلماءِ والزهادِ، الوليِ العارفِ بالله، الشيخُ أبي الخيرِ الميدانيّ رحمه الله.

وأمثالِ شيخِهِ محدثِ الدنيا الشيخ بدرِ الدين الحسني، الحافظِ المتقنِ الذي أذعنَ له أهلُ الحديثِ قاطبةً منارةَ علمٍ وحديثٍ وفقهٍ وولايةٍ وإرشاد .

ومع هذا كله بقي كلٌّ منهم مثالاً صادقاً على العلمِ والعطاءِ والعبادةِ والإرشادِ والجهاد .

كما أن لشيخِنا الركوسي رحمه الله تعالى تلامذةً انتشروا في أرجاءِ المعمورة وعمَّ نفعُهم، وقد غرسَ فيهم حبَّ التصوفِ الخالصِ من الشوائبِ والتعكير، حتى غدا منهم الوزيرُ والنائبُ والعالمُ والأستاذُ والمقرئُ والحافظُ والشاعرُ والتاجرُ، وكان جلُّهم يحملُ في طياتِ قلبِه حبَّ الأولياءِ والصالحين وأهلَ التصوفِ، كلُّ ذلك مقروناً بالعلمِ والعملِ والتدريسِ والإرشادِ والدعوةِ من غيرِ تنطعٍ ولا تشديد .

وقد ذكرَ لي الشيخُ يحيى العقاد رحمه الله، وهو أحدُ تلاميذ الشيخ بدرِ الدين الحسني رحمه الله، والشيخِ أبي الخيرِ الميداني رحمه الله، وكان أميّاً لا يقرأُ ولا يكتبُ،

ولكنَّه فاقَ العلماءَ والفقهاءَ وأهلَ المعرفة، وكان طبيباً من أطباءِ القلوب، وكان بائعاً يملك مكاناً صغيراً متواضعاً، يبيعُ فيه الموزَ صيفاً وشتاء .

فقد ذكرَ لي مرةً: وفي حياةِ شيخِنا الشيخ محمود رحمه الله قال: إنَّ الشيخَ محمود الزكوسي فيه سرُّ شيوخه ثم قال وقد فاقَ شيوخَه وأقرانَه .

والشيخُ العقاد رحمه اللهُ يقولُ ذلكَ لصدقِ محبتِه وكمالِ معرفتِه بالشيخ محمود رحمه الله .

فقد سرى هذا السرُّ إلى أتباعِه وطلابِه وخوّاصِه ومحبيه .

وأنا بفضلِ الله تعالى قد درستُ عليه عِدةَ علومٍ عددَ سنين، وأخذتُ عنه الكثيرَ، وذلك بصحبةِ إخوة أخيارٍ، أمثال أخي وشيخي وحبيبي وقرةِ عيني "الشيخ حسين حسن صعبية" حماهُ اللهُ من كل مكروهٍ، ونفعَ به الأمة، والحمد لله اتباعه الآن في بلاد الشام كثيرون يستفيدُون بعلمِه وصلاحِه وزهدِه وثباتِه جزاهُ اللهُ عنّا خير جزاء، وهو الآن

المشرف العام لدار الحديث الاشرفية وخليفة شيخنا رحمه الله في العلم والطريق والإرشاد والتوجيه، وقد حاز ثناء أهل عصره والتزم جادة شيخنا فيداوم في دار الحديث مدرساً وموجهاً، وفي مسجد الحنابلة إماماً، وفي مسجد النقشبندي خطيباً.

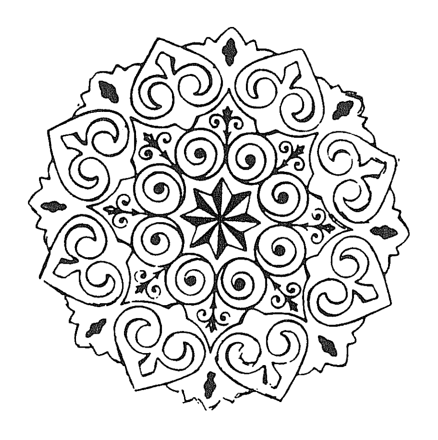
وأنا قد استفدت كثيراً. وما زلت. من أدابه وأخلاقه وثباته وصفائه وصدقه، ولا أكون مبالغاً إن أقسمت على ذلك حيث له موقعٌ في قلبي، ومحلٌ في روحي وسري.

وأمثال أخي وحبيبي ورفيقي وصديقي الشيخ محمود بن سعيد سعد حفظه الله تعالى فهو العابدُ الذاكر، الذي له خصوصياتٌ أكرمه الله تعالى بها على ألسنة المُلْهَمين من الشيوخ الكرام أمثال شيخنا الشيخ محمود الرنكوسي الذي كان يقول عنه: الشيخ محمود سعد اسمٌ على مسمى، له حال لا يَقْدرُ أحدٌ على سلوكه.

وأمثال فضيلة الشيخ هشام خليفة القدوة العامل صاحب الهمة العالية والعلوم الراقية الذي عم نفعه وكثر طلابه ونشر الله به الشريعة الحقيقة.

وأمثال فضيلة الشيخ عبد الله الشعار الخطيب اللوذعي المرشد المجاهد الذي يخوض غمار كبار المهمات العالية ويرشد ويوجه ويعظ على نسق مثالي ونهج جمالي.

من هنا نرى أن الشيخَ محمود الرنكوسي رحمه الله تعالى، كانَ من كبارِ أهلِ اللهِ تعالى. ومن الذينَ خاضَوا غِمارَ العلمِ وسبروا غورَهَ، وقد أفادَ البلادَ الشامية عامةً من علمه، وأفاد علماء لبنان على وجه الخصوص وهذا من بركتِه وصدقِه وصفائِه. رحمك الله يا شيخنا رحمة واسعة. آمين.



المثل الثاني:

ومنهم شيخُ القدوةِ البارعُ العالمُ، شيخُنا الشيخُ صالح فرفور رحمه الله تعالى، وقدّسَ الله سرَه، وجزاه الله عنا خير الجزاء، فله اتباعٌ كثرٌ في أصقاعِ الأرضِ، أخذوا عنه العلمَ والمعرفةَ وأصولَ الدين، حتى غدوْا منائرَ علمٍ وشموسَ معرفة.

فعن علمه إن حدثت فكأنه يغرفُ من بحرٍ، وعن شعرهِ تكلمْ فإنْ غصتَ فقل إنه يغرف من نهرٍ، وعن إرشادهِ الدعاةَ لا مثيلَ له، وعن مبادئه الثرةِ لا نظيرَ له، فقد أسس معهدَ الفتح الإسلامي في دمشقَ، ورأس إدارته حتى ملأ الدنيا بتلاميذهِ الذين تخرجوا من معهدهِ وبرعوا في مجالاتهم الكثيرة.

وأنا أعرف الكثير منهم، فمنهم من أصبح مفتياً، وقاضياً، ومدرساً، وللفتوى أميناً ومحققاً ومدققاً وحافظاً متقناً في الدول العربية والإسلامية.

وتجدر الاشارةُ هنا أن الشيخَ صالح رحمه الله تعالى كان أبرعَ أهلِ الشام مبارزةً في السيف والترسِ والسباحةِ وركوبِ الخيل، وكان يأكلُ من عملِ يدهِ ويشجع على

ذلك، وله عقبٌ من الذكور سبعة سلكوا طريق العلم وبرعوا كلٌ في مجاله. وله من الإناث أربعة برَعوا عِلماً فنالوا أعلى الشهادات الشرعية ويعملون في حقل معهد الإناث لتعزيز الدعوة والداعيات. حفظهم الله تعالى.

زِدْ على ذلك انه كان يُعطي جُلّهم الطريقَ والذكرَ والأوراد، ويدُلّهم على مخالفةِ النفسِ والشيطانِ والهوى، وكان له باعٌ طويلٌ في ذلك لا يُبارى ولا يُضاهى، وقد اعترف بعلمِه وصلاحِه وزهدِه جميعُ علماءِ بلاد الشام قاطِبةً من غير منازع. وأنا بفضلِ الله تعالى من جملةِ الذين درسوا بينَ يديهِ، وأخذوا عنه العلمَ والذكرَ والتربية.

فإنه بفضل الله وفضلِ بركتِه وصدقِه وصلاحِه انتشرَ العلماءُ في الدنيا كلها حتى امتلأتْ تركيا من العلماء، ففيها الكبار من العلماءِ والمفكرين الذين نَهلوا من موردِه، ودرسوا في معهده، وكبار علماء الشام ومفتوها من تلاميذه الأخيار.

وقد أُخبرتُ أن المفتي في سيراليون هو أحد تلاميذِ معهدِه، وكذلكَ أمينُ الفتوى، والقائمُ بالمهام الدينية والأوقاف من طلابه ومريديه.

وأمّا في لبنان فحدث ولا حرجَ فطلابُه ومريدوه صاروا من القضاةِ والحكامِ والخطباءِ والعلماءِ والمؤلفين والشعراءِ وحسنَ أولئك صنيعاً .

والتربيةُ الروحية في مدرستِه هي المرتكزُ الأساسي لتمثلَ العقيدة، والقوةَ المساعدة لنقلِ الفكرةِ المجردةِ والعقيدةِ إلى حيزِ التطبيقِ والالتزامِ والسلوكِ المباشرِ . فالفقهُ الروحي المستنبطُ من الكتابِ والسنةِ هو المنطلقُ في مدرستِه الروحيةِ القرآنيةِ الفكرية . فجمعتْ مدرستُه آياتِ الذكرِ وأهميتَها، وآياتِ القلبِ وإمكانيةَ الحصولِ على القلبِ السليمِ، والنفسِ المطمئنة وطرقِ المجاهدةِ فأكّد على أهميةِ التربيةِ الروحيةِ المتقيدةِ بالكتابِ والسنة .

وهذا كلُه بفضلِ الاتباعِ والاقتباسِ والتوجيهِ والإرشاد من شيخٍ كاملٍ صحيحِ العقيدةِ مستقيمِ السيرةِ والذات .

رضي الله عن الشيخ صالح وأرضاه وجزاه الله عنا خير الجزاء .

المثل الثالث:

الصوفي الولي الشيخ مختار العلايلي رضي الله عنه، الذي كان عالماً ومن أعلام لبنان، وسدة العلم والعلماء، ومن ذوي أهل البصائر، من تحل عنده العويص من المسائل الفقهية المعاصرة العالقة.

وقد سيقت له أمانة الفتوى في الجمهورية اللبنانية وقد أحاطها بالرعاية والأمانة والورع، وزانها علماً ورصانة وفهماً، ففي منزله يجتمع العلماء لمهمات الأمور، ومن أنواره تقتبس الفضائل والتوجيهات، ومن إرشاداته العلمية تتولد النفيس على مر الدهور.

وجل العلماء الذين تسنموا المراكز العالية المرموقة، والحفاظ والشعراء الذين برعوا في بلدنا لبنان، قد جلسوا على ركابهم فتلقوا العلوم والفهوم بين يديه. وعلى رأسهم العلامة الراحل الشيخ عبد الله العلايلي شقيقه الأصغر، الذي دخل باب علماء العصر الأفذاذ من أوسع أبوابه.

وإذا أردنا أن نستعرض اسماءهم لطال بنا هذ السفر.

وقد استغرق قلبه ذكر الله تعالى ومخافته فصفا حتى غدا منارة صوفية في بلدنا لبنان وعلماً من اعلامها.

ومع هذا كله كان صوفياً زاهداً ورعاً علماً حافظاً متقناً فقيهاً.

المثل الرابع:

علمِ العلماء، ومعلمُ العلماء، شيخُ القراء في عصرِهِ ومصرِهِ، الشيخ حسن حسن دمشقية رحمه الله والذي بموتِهِ صارَ العلماء أيتاماً، لأنه كان يحملُ في طياتِهِ علوماً وأفهاماً لم نسمعْ بها قبلاً، ولم تورِدْ على أسماعِنا أبداً.

فقد أحكم كتابَ الله حفظاً وفهماً وتفسيراً وقراءةً وضبطاً على أكملِ وجهٍ، وقد حَفِظَ من المتونِ والشعرِ ما يزيد عن ثمانين ألف بيتٍ في علومٍ شتى.

ومع هذا كلِهِ كان طَرَفاً دامعاً وقلباً خاشعاً صوفياً متذوقاً، قل نظيرُهُ ونَدُرَ مثيله فقد تخرج على يديه المفتون والقضاة والقراء وغيرهم رحمه الله تعالى.

والذين اقتبسوا من معارفه ودرسوا عليه ودخلوا لوامع أنوار وعطاءه قد وصلوا إلى المدارج العالية والوظائف الراقية.

ومن جملتِهم مفتي الجمهورية اللبنانية الشهيد الشيخ حسن خالد رحمه الله.

وكان لي شرفُ الإرتشافِ منه مع صحبةِ كرامٍ مدة عشر سنوات.

وعلى رأسهم مفتي الجمهورية اللبنانية أخي وصديقي الشيخ الدكتور محمد رشيد قباني وفقه الله تعالى آمين.

المثل الخامس:

الشيخ أحمد كفتارو حفظه الله تعالى المفتي العام في البلاد الشامية، فهو وحيد دهره وفريد عصره، صاحب الهمة العالية، الذي يجاهد بعلمه، وصدقه، ويغرس في قلوب الآلاف حب الدين والإيمان والعمل الصالح والسعي دوماً للرفعة والثبات، والذي ملأ البلدان بتلاميذ وأتباعٍ نبهاءَ علماءَ، دربهم على أداء الدعوة بطريقِ العلمِ والإرشاد، وتلقينِ الأذكارِ والأوراد .

كل ذلك على نهج رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد أثنى عليه العلماء سلفاً وخلفاً، حتى أسسَ الشيخ كفتارو حفظه الله، مؤسسةً علميةً ضخمةً، تخرجُ المئاتِ من الشبابِ والشاباتِ من الدعاةِ العلماءِ العاملينَ الذينَ يحملونَ مع العلمِ كيفيةَ سلوكِ دروبِ التربيةِ وتهذيب النفوس، وبدأوا يبثون الدعوة الإسلامية بروحِها الطيبةِ في مجالاتٍ كثيرة بشكلٍ عام، وفي بلدِنا بشكلٍ خاص وذلك ضمن مؤسسات تربوية تعليمية .

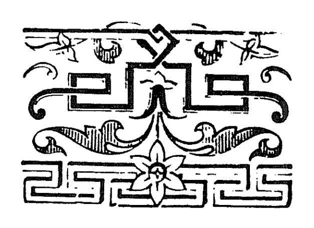
فقد أسسَ الشيخ أحمد كفتارو حفظه الله مدرسةً علميةً روحيةً مليئةً بالمعاني السامية، وعاشَ حياةً روحيةً تربويةً من نوعٍ خاص . ثم دأبَ جاهداً في تكوينِ مدرسةٍ روحيةٍ فكريةٍ قرآنيةٍ متكاملةٍ، مؤكداً على الأصول والمرتكزات الأساسية في دعوتِه طوال أربعين سنة من الدعوة المستمرة .

المثل السادس:

اتباعُ الشيخِ العالمِ الصوفي الواعظِ، الشيخ أحمد خورشيد الدمشقي، حفظَه الله، فقد عمَّ نفعُه، وكثرَ أتباعُه ومريدوه وطلابه وما زال في يومنا هذا يغذي أرواحَهم بمواعظِه، وقلوبَهم بإرشاداتِه وعلومه.

وجلُّ اتباعه من العاملين العالمين. فمنهم التاجُر والمهندسُ والعاملُ، والمحامي والمدّرس والشاعر. فقد جمعوا بين العلمِ والعملِ، والكسبِ والذكرِ فصفتْ قلوبُهم ونفوسُهم واضحوْا منارةً في الرفعَةِ لضربِ الأمثالِ السائرة.

ومع هذا كله فقد كان صوفياً ذاكراً وخطيباً مؤثراً ومبلغاً مدركاً يعملُ بكسبِ يده



المثل السابع:

الشيخ عثمان سراج الدين، الذي امتلأتِ الآفاقُ بتلاميذِه، الذين أضحى منهم العلماءُ والأطباءُ والمهندسون.

وأنا بفضلِ اللهِ تعالى أكرمني المولى، فالتقيتُه، فوجدتُه عَلَمَ عِلْمٍ، ووابلَ معرفةٍ، ومجموعةً من الأنوارِ، التي يسترشدُ بها أهلُ اللهِ طريقَهم إلى الحقِ والخيرِ والصواب.

ومع هذا الغيض من الفيض فقد كانوا جميعاً صوفية يذكرون ويعلمون ويرشدون على نهج الإمام الجنيد رضي الله عنه.

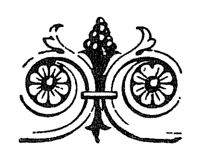
زد على ذلك أنه رحمه الله قد أوتي بَاعَاً رائعاً في معالجة الأبدان وطبابة الأمراض فقد كانَ يصفُ الدواء المناسبَ فيذهب الداء أصلاً.

فقد كان طبيبَ القلوبِ والأرواحِ والنفوسِ، كما كان طبيبَ الأبدان والأجسام، وهذا ما جعل له سمةً مميزةً على مدى الأيام والتاريخ.

المثل الثامن:

الشيخ محمد الغزال رحمه الله صاحب الهمة العالية، والنفس الرضية الفانية المحب لاخوانه العلماء، الغيور عليهم صباح مساء، المحب لكتاب الله تعالى، والعامل به، من أدركته المنية وهو في كنف رعاية كتاب الله تعالى حفظاً وتعليماً وإرشاداً في معاهد جمعية المقاصد الخيرية الإسلامية.

فقد كان جلُ العلماء، والمحامين، والمهندسين، والمفكرين في بيروت من تلاميذه الأبرار، ومحبيه الأخيار، فقد حاز محبتهم، ومودتهم، وكان له توجيه في السلوك عجيب، وفي الإرشاد اسلوب غريب، فقد أدخل محبته إلى قلوبِ الجميع من غير استئذان لأنه جمع مع صفاءِ روحه وصدقِه وسلوكِه على نهجِ الصوفية طريقَ الترغيب والترهيب، فتمكنتْ محبتُه في القلوبِ والنفوسِ.



المثل التاسع:

وإني ذاكر لك رجلاً كان من الرجال الكمّل، والعلماء الخُلّص والزهاد الواصلين الذي عاصرتُهم، وعاشرتهم واكتسبتُ من أدابهم وعلومهم، هو قاضي القضاة رئيسُ المحاكم الشرعيةِ السنيةِ في الجمهورية اللبنانية الشيخ محمد جمعة الداعوق، العالمُ الحافظُ، الفقيهُ، العدليُ، القانونيُ، اللغويُ الصوفيُ البارعُ، فقد جمعَ الكمالَ الأنسي والجمال القدسي.

فلطالما عذبتْ بالعلم والمعرفةِ واللغةِ والعبرة والتفسير مجالسُه، وبعلم الرجال والحكم والوعظِ والإصلاحِ دارتْ أنفاسُه، ومع هذا كان صوفياً يذرف الدمعَ خشوعاً، ويفرك دوماً كفاً بكفٍ تحسراً وندماً

ولو أردت أن أسردَ الأمثلةَ والشواهدَ التي تدلُ على أنّ كبارَ العلماءِ الذين أكرمَهم اللهُ بالعلمِ والزهدِ والتصوفِ والتقوى قد اتخذوا شيوخاً بايعوهُم على سلوكِ العلمِ والذكرِ والعملِ والاخلاصِ لطالَ هذا السِفْرُ، وامتلأ من ذلك.

وما قصةُ الإمام محمدٍ شيخِ الإسلام الغزالي ببعيدةٍ عن الأذهان، حين اتخذَ شيخاً وسلكَ طريقَ العلمِ المقرونِ بالأحوال القلبيةِ أوصله إلى مكةَ، والتقى الإمام الجويني، الذي أخذ عنه جوامعَ العلمِ وأبوابَ المعرفةِ وآدابَ الروحِ والقلب.

حتى عادَ إلى بلادهِ بأحسنِ حالةٍ، وأرضى نفساً، فعمّ نفعُه وخيرُه، وامتلأتِ الدنيا بذكرِهِ وأوصافه.

وأختمُ هذا الموضوعَ بهذا المثل العظيم من الصحابي الجليل حنظلةَ بنِ عامرٍ وجمعاً من الصحاب الكرام الذين أتوا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقال له: نافقَ حنظلةُ يا رسولَ الله. وذكر له أنَّه إذا كانوا عندَه شعروا وكأنهم على أطراف الجنة فإذا عادوا إلى بيوتِهم لاعبوا الأولاد والأزواج. حتى قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا حنظلةُ ساعةً وساعةً، أي ساعةً لربك تعبدُهُ وتخلص له بذلِك، وساعةً لنفسِك وعملِك وعيالِك، تتناولُ المباحَ والحلالَ الخ..

ظنَّ حنظلةُ والصحابةُ الكرامُ أنَّهم مُقَصِّرُونَ في طاعتِهم وأعمالِهم وتصرفاتِهم وما تقترفُه نفوسُهم وقلوبُهم .

فأتوا إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم شيخِ الأمةِ بأسرِها، فأرشدَهم إلى أهدى سبيلٍ، وبصَّرهم إلى أحسن طريقٍ، وعرَّفهم حقيقةَ ما يفعلونَ، وطيَّب نفوسَهم، وأضاءَ لهم النورَ ووجهَهُم .

ولئنْ قال قائلٌ: هذا رسولُ الله ـ صلواتُ ربي عليه دائماً ـ يعملُ ويأمرُ ويرشدُ ويوجه بوحيٍ من الله تعالى، لا ينطقُ عن الهوى، وهؤلاء هُم أولياءُ اللهِ صحابتُه الكرامُ الذين اتَّبعوهُ في السرَّاءِ والضرَّاءِ سمعوا أوامرَه واقتدوا به .

نقولُ: قال تعالى "لقد كانَ لكمْ في رسولِ اللهِ أسوةٌ حسنةٌ لمنْ كانَ يرجُو الله واليومَ الآخرَ وذكرَ اللهَ كثيراً" .

فمن سار على نهج رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، واتَّبعَه، وسارَ على هديه، واقتدى بآثاره، وكان عندَه اليقينُ، وأخلصَ في إرشادِ النَّاس، وأثنوا عليه خيراً، وحازَ درجةً عاليةً من العلم والعملِ والمعرفةِ والزهدِ، فهذا على نهج رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فعنهُ نأخذُ ولا ضيرَ، ونقتدي به خلافاً لما قالَ الغير.

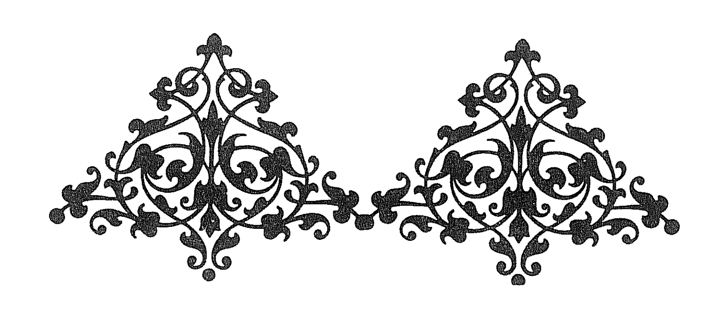
وبعد هذه العجالة في هذه الرسالة أتركُ لكلِ منصفٍ أنْ يحكمَ على الصوفيةِ بمعناها الحقيقي من خلالِ هؤلاءِ الرجالِ وأمثالِهم، الذين أفادوا الدنيا ونشرُوا محاسنَ محامدِهم وصفاتِهم، وتضوعوا شذىً وقرنفلاً، حتى عبقَ أريجُهم، ودخلتُ إلى القلوبِ نفحاتُهم.

ولست بما ذكرتُ بأوحدٍ، بل يُطبق على صحةِ ذلك أركانُ الدنيا كما ذكرتُ، "وليس براءٍ كمنْ سمِع" وقطعتْ جهيزةُ قولَ كلِ خطيبٍ.

وأنا ما ذكرتُ ذلكَ كلَه إلا لكي أدلَ على ضرورةِ اتباعِ شيخٍ يأخذ بالأيدي إلى الحوافزِ من العلوم، ويجمعُ على طاعةِ الله تعالى، ويذكر بالعهدِ والوعدِ والمضي قدماً في رضاءِ الله تعالى.

وهؤلاءِ وأمثالُهم من العلماءِ العاملين الذاكرين، الذينَ صفتْ نفوسُهم من كدوراتِ الدنيا، وقصدُوا الخالقَ، وتوكلوا عليه، من غيرِ تواكلٍ، ولم يلتفتوا إلى حطامِها قد وضعوا لَنا مناهجَ العلمِ والمعرفةِ ورسمُوا لنا آدابَ السلوكِ والطريقِ إلى رضاءِ الله تعالى، فاستناروا بنورِ النبوةِ اقتداءً، وأخذوا من معينها أتباعاً، فأكسبهم المولى صفاءً ووفاءً لا نظيرَ لهما .

هذا ما أردتُ بيانَه والله يتولانا وإياكم . والله تعالى أعلم وأعز وأكرم .



حقيقة السلف

السلفُ الصالح هم الجماعةُ الذينَ مضوْا على المحجّةِ البيضاء، والذينَ استناروا من نورِ النبوة، وخاتمِ الرسالة، وأخذوا من معينِها من غيرِ واسطةٍ خاليةً من كلِ كدرٍ وزيغ، إذْ رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم هو قوامُهم وخيرتُهم ومرشدُهم، فأضاءَ اللهُ قلوبَهم وأكسبَهم صفاءَ ووقاراً لا نظيرَ لهما.

فقد تركوا لنا معانٍ عظيمة، ووضعوا لنا مناهجَ الطريقِ السديد، وسلوكَ القومِ الخالي من الأكدار، حيث أصبحَ ذلك للعيان ظاهراً، لا يختلفُ فيه اثنان، ولا ينتطحُ فيه عنْزان.

كما أن السلف يصعب حصرُهم، وسبر غورهم ومعرفتهم على وجهِ الإحاطة، ولكن من الممكن ذكر صفاتهم وسماتهم وأعمالهم وزهدهم وعباداتهم التي كانت نبراساً لأهل الله، وقدوةً لهم إلى المعالي من الأمور، ورفعةَ الهمة إلى أعظم مهمة وهي رضاء الله تعالى، حيث درجتْ على ألسنتهم عبارةٌ سُطِرتْ بماءِ الذهب.

إلهي أنتَ مقصودي ورضاكَ مطلوبي..

وكذلك مضى الذينَ أتوا من بعدهم، الذينَ نالوا دعاءَ رسولنا الأكرم صلواتُ ربي عليه دوماً عندما قال: "خيرُ القرونِ قرني، ثم الذينَ يلونَهم ثم الذينَ يلونَهم، ثم يكثر الخبث..

فهذه المنقبةُ العظيمةُ التي خصصهم بها النبيُ صلوات ربي عليه دوماً هي دلالةٌ واضحةٌ على فضلهم، وعلو كعبهم ورفعتهم ومدحهم، والثناء عليهم، وهذا يقتضينا التآسي بهم وبأعمالهم وبصفاتهم وأخلاقهم، وجعلَ ذلكَ كله منهجاً لحياتنا

وأعمالِنا، إذ كلُ خيرٍ في اتباعِ مَنْ سلفَ، وكلُ شرٍ في ابتداعِ مَنْ خَلفَ. ولأنهم هم الذينَ نقلوا لنا الدينَ برمَّتهِ، صافياً من الشوائب.

لذا فإن المؤمنَ الحاذق، والمسلمَ الفاهمَ لدينه، والذي يقصدُ من أعمالِه رضاءَ الله تعالى، والفوزَ بالنعيم المقيم، يجعلُ تصرفاتِه كلَّها موافقةً للمعينِ الصافي،

تابعاً لإرشادات سيدِ البشرِ صلوات ربي عليه دوماً ومَنْ بعدَه الصحابة الكرام والتابعين وتابعيهم، هؤلاءِ هم كما سُمُوا وأطلقَ عليهم هذا اللقب الكريم - السلف الصالح.

فالصحابةُ رضوان ربي تعالى عليهم هم السلف الصالح، والتابعون لهم بإحسانٍ هم السلف الصالح، وتابعوهم على نفس النسق، هم السلف الصالح، وكلُ من سار على منوالِهم واتبعَ سيرتَهم وقصد مناهجهم ولم يَحِدْ عن جادتهم، فهو من السلف الصالح، أي يتبع السلفَ الصالحَ إذْ هم منارةٌ يقتدي بها مَنْ بعدهم.

وليس من السلف الصالح من يدّعي العلم ولا يعمل به، ويفتح أبواب الفتن ولا يغلقها، وينسب الشرك إلى الآخرين بادئ ذي بدء ويبذر الفرقة والتآمر والتكفير بين الأمة، ويدعي بأنه هو الفرقة الناجية فقط، ويلوك السواك بفمه ويلاعبه بلسانه ليتباهى بالتزامه المتصنع، ويترك لحيته من غير أن يأخذ الزائد منها، ليشير بأنه ينتمي إلى فئة معينة من الناس، وليس ليقتدي بالسنة ويقصر ثوبه إلى ساقه لينفي الكبر الوارد في فاعله كما ورد إدعاءً، ويبقى الكبر في نفسه.

عجباً من هؤلاء يدّعون أنهم بالسُّنة متمسكون وعلى الأثر سائرون فإذا بأفعالهم تخالف أقوالهم، وتصرفاتهم خلاف طياتهم، فتتولد عندهم الغلظة على المسلمين، والشدة على عباد الله المؤمنين.

ولقد صلى أحدهم صلاة الجمعة في مسجد الخلية السعودية حيث أقوم بالخطابة فيه والتدريس منذ ٢٥ سنة ولله الحمد. وعندما رُفعت الأيدي إلى الله للتأمين بعد دعاء الإمام، إذ الدعاء مستجابٌ والخطيب على المنبر، رأيته لم يرفعْ يديْه بل طواهما، وتشاغل عن رفعهما بأنْ صار يداعب لحيته كرات ومرات إلى أن انتهيت من الدعاء.

السنّةُ المتبعةُ رفعُ اليدين إلى السماء، حيث هي قبلةُ الدعاء، لا أن يشتغل المرء بتناغم لحيته بين أصابعه هروباً من موافقةِ العباد في رفعِ اليدين إلى السماء.

فمنْ أرادَ أن يطلقَ على نفسه "سلفي"، فلا بُد أن يقتدي بالرسولِ صلى اللهُ عليه وسلم، من غيرِ تكديرٍ ولا تعكيرٍ، ولا إبطال ولا تنطع، من خلال قوله تعالى: "ما جعلَ عليكم في الدينِ من حرجٍ"، وقوله تعالى: "يريدُ اللهُ بكمُ اليسرَ ولا يريدُ بكمُ العسر"، ومن قولِ صاحبِ الرسالةِ، عليه الصلاة والسلام: "يسروا ولا تعسّروا بشروا ولا تنفروا".

وكذلكَ باتباعِ الصحابةِ وتابعيهم، من السلفِ المرضى عنهم، فنسيرُ على نهجِهم وسلوكِهم وآدابِهم، لأنهم هم اقتدوا برسولِ الله صلى الله عليه وسلم، واكتسبُوا منه ومِن سيرته صلى الله عليه وسلم، أعظمَ الدلائلِ على ذلك، وفي حياته أرقى الأمثلة، وفي قضاءِه وأحكامِه أفضل المعاني، وكذلك في سيرةِ أصحابِه السلف رضي الله عنهم.

موضـــوع السمـــــاع

إنَّ السلفَ الصالحَ رضي الله عنهم، استغرقَ قلوبَهم حبُّ الله تعالى، وحبُّ رسولِه صلى الله عليه وسلم، فترنَّموا بكتابِ الله تعالى سماعاً، وبحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حباً، وبالرقائق والمواعظِ والعبرِ شغفاً، فاغرورقتْ عيونُهم، وتبلسمتْ قلوبُهم وأفئدتُهم، وذلك اتباعاً لسيدِنا محمد صلى الله عليه وسلم لَمَّا قالَ لأبيٍّ بنِ كعبٍ إقرأْ عليَّ القرآنَ، قال: يا رسول الله أقرأهُ عليكَ وعليكَ أُنزلَ، قال: إني أحبُّ أنْ أسمعه من غيري، قال كعب: فقرأتُ عليه سورةَ النساء حتى إذا بلغتُ هذه الآيةَ: "فكيفَ إذا جئْنا من كلِ أمَّةٍ بشهيدٍ وجئْنا بكَ على هؤلاءِ شهيدا"، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: حَسْبُكَ، فنظرتُ فإذا عيناه تذرفُانِ بالدمع.

فهذا هو المعيارُ والميزانُ للسماعِ الذي يرقُّ القلوبَ، ويدمعُ العيونَ، ويغالبُ الروحَ، فيطيرُ بها إلى صفاءِ العقلِ والنفسِ، ويحولها من ضيقِ الدنيا إلى رحابةِ الآخرةِ، وصفاءِ الصدقِ الذي يأخذُ بمجامعِ الأحاسيسِ، فتخشعُ كلُّ الجوارحِ، فتظهرُ علاماتُ الصدقِ بالخشوعِ والخضوعِ بالدموعِ.

هو السماعُ الذي سمعَهُ سلفُ الأمةِ، وقرونِها المفضلةِ، والخيارُ من الشيوخِ الذين كانوا يقولون بهذا السماعِ.

وقد سمعتُ بعضَ محدثي المغربِ يقرأُ حديثَ النبي صلواتُ ربي عليه دائماً، ولكنَّه يقرأُ بطريقةٍ فيها ألحانٌ كما هي عاداتهم، فقد جذبَ فيها القلوبَ، وأبكى العيونَ، خاصةً في حديثِ الشفاعةِ يومَ القيامةِ، فهذا أمرٌ جائزٌ لا يختلفُ فيه اثنانِ، والتقيتُ ـ في إحدى المراتِ التي ذهبتُ بها إلى بيتِ الله تعالى ـ برجلٍ من العلماءِ من رجالِ الصومالِ، وكان شيخاً عالماً بكتابِ اللهِ وسنةِ رسولِ اللهِ صلواتُ ربي عليه دائماً، فقد رافقتُه يومَ الترويةِ وعرفةَ وأيامَ منى، فكانَ يقرأُ الأحاديثَ من السنةِ بطريقةٍ فريدةٍ عجيبةٍ رائعةٍ، وكأنَّه أوتيَ مزماراً من مزاميرِ آلِ داودَ، فيتغنى وكلُّ من سَمِعَهُ يبكي، وتذرفُ دموعِهِ من غيرِ

شعور، فإذا كانت الأحاديثُ التي كان يقرأها بهذه الكيفية تحركُ كوامنَ القلبِ إلى الخشوعِ وترقُّ الروحَ لما فيها من شفافية ورقةٍ قلّ نظيرُها ومثيلُها، ضِفْ على ذلك دعاءه في عرفات، الذي ألهبَ القلوبَ والمشاعرَ بأسلوبٍ رائع وطريقة حلوة، فقد أبكى المُقَلَ هطّالةً، وذكَّرَ بالأعمالِ الغوابرِ، حتى توارتْ بالحجاب، فما بالك بكتابِ الله إذا خرجَ من نفس طاهرٍ وأداء جيد وصوت حسن .

وقد ضربتُ لكَ هذه الأمثلةَ لتحكمَ أن كلَّ كلامٍ يقربُك إلى الله تعالى وإلى رسولِه المكرم صلوات ربي عليه دائماً، ولم يخالفْ تعاليمَهما، فهو بسماعه بهذه الطريقة أمرٌ جائزٌ ومحببٌ ومطلوبٌ، ولا يستسيغُ لأحدٍ أن يدّعيَ عدمَ جوازِ ذلك من غيرِ دليلٍ أو بمجردِ تأويلٍ مغلوطٍ، أو تخمينٍ منقوصٍ، أو ظنٍ فيه التباس .

لذا إني أرى وأقول إنّ القلوبَ يحركُها الأصواتُ الشجيةُ المشتملةُ على الأقوالِ المرضيةِ، فما هو المانعُ الشرعيُ إذا ذَكرَ مادحٌ أو قوّال بيتاً ناسبَ حالَنا وأوصافَنا، فيه ذكرُ الجنةِ ونعيمِها، وما أعدَّ الله فيها للمؤمنين، أو ذكرُ النارِ وعذاب القبرِ والموت والقرآن، أو ذَكَّرَ بالذنوب، والتقصيرِ بالأعمالِ، ويكون هذا كله من الحوافزِ للصالحاتِ

والعباداتِ والصلواتِ والسيرِ في طريقِ التوبةِ والمداومةِ على المحامد وحسنِ الخصال، فما الحرجُ إن ذكرَ منشد قصيدةً فيها كلُّ هذه المعاني، وفيها الوصيةُ بالتقوى، ومخافةُ الله تعالى، والاستعدادُ ليومِ الرحيل، وكلُّ هذا ممن قد أوتيَ صوتاً حسناً وأداءً رائعاً معبراً من غيرِ استصحابِ منكراتٍ أو مخالفاتٍ، فلا أرى أي مانعٍ شرعي يمنعُ ذلك.

وقد رأيتُ بأمِ عيني أكابرَ علماء الشامِ، يجلسون يستمعون حلوَ القصائدِ، ودموعُهم تنهمرُ من عيونِهم، ولم ينكرْ أحدٌ شيئاً من ذلك، أمثالَ الشيخِ ولي الله تعالى العالمِ الصوفي المربي، الشيخ صالح فرفورِ رحمهُ الله تعالى، وجزاهُ عنّا خيرَ الجزاءِ.

وأمثالَ الولي المخصصِ صاحبِ النورِ القدسيّ، والجمالِ الأنسيّ شيخِنا الشيخِ محمود الرنكوسي رضي الله عنه.

وأمثالَ الشيخِ صالحِ العقاد، الذي التقيتُ به قبلَ وفاتِه بثمانيةِ أشهرٍ، وكان يُسمى في بلادِ الشامِ بالشافعي الصغيرِ.

وأمثالُ الشيخ المعاصرِ حاملِ جواهرِ العلم والمعرفة، وليّ الله الحافظِ المقرئِ المتقنِ شيخ الشامِ بلا منازعٍ، الشيخ عبد الرزاق الحلبي أمتع الله به.

وأمثالُهم من الأكابر كالشيخ حسين خطاب، والشيخ أديب الكلاس، والشيخ نور الدين خزنة كاتبي، والشيخ ابراهيم اليعقوبي، وغيرهم من العلماء كثيرٌ، فقد رأيتُهم يسمعونَ ويخشعونَ ويترنمونَ بهذا السماعِ بقلوبٍ خاشعةٍ، وعيونٍ دامعةٍ، فهل بعدَ الحقِ إلا الضلال، فلماذا التَصنُّعُ والتشديدُ، كي يتناقلَ التاريخُ المخالفةَ ليُعرفَ أهلُها. وينْفردُوا بالغرابةِ من الأقوالِ لتشتهرَ بأصحابها.

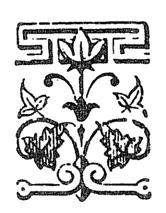
فليكن القصدُ رضاءُ اللهِ والشفقةُ على عبادِ الله تعالى، فقد وردَ أنَّ الله رفيقٌ يحبُ الرفقَ في كلِ شيء.



أوليـــاءُ الله تعالـــى

من هو الولي:

هو العارفُ باللهِ تعالى وبصفاتِه حسَبَ الإمكانِ، المواظبُ على الطاعاتِ، المجتنبُ للمعصيات، بمعنى أنَّه لا يرتكبُ معصيةً بدونِ توبةٍ، وليسَ المرادُ أنَّه لا تقعُ منه معصيةٌ بالكلية، إذ النبيُ معصومٌ والوليُ محفوظ، وأنْ يكونَ مُعْرِضاً عنِ الإنْهماكِ في الملذاتِ والشهواتِ المباحةِ، ويُسمَّى ولياً لأنَّ اللهَ تعالى تولى أمْرَهُ، فلم يَكِلْهُ إلى نفسِه ولا إلى غيرِه لحظةً، أو لأنَّه يتولى عبادةَ اللهِ على الدوامِ من غيرِ أن يتخللَّها عِصْيان.



ومن المعلوم أنَّ لله خواصاً في الأمكنة والأزمنة والأشخاص، وإذا أحب الله عبداً فلطاعته يحبه، وإذا خصَّص مريداً فلتقواه يُخصصه، وإذا اختار أحداً من بين خَلْقِه فلصفةٍ زائدةٍ من بينهم اختاره.

فأولئك أهلُ طاعتِه ومحبته وخصوصيته، والكُمَّلُ من خِيْرَةِ خَلْقِه، فقد أحبهم وخصَّهم واختارهم واصطفاهم وسمَّاهم أولياءه، وأنهم والوا الطاعاتِ والعباداتِ والخيراتِ والمبراتِ، فأولاهم وقرَّبهم ورفعهم حتى نالوا هذه الدرجة الرفيعة، ونالوا أحلى صفةٍ منه تعالى حتى مدحهم وقال: "ألا إن أولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنونَ الذين آمنوا وكانوا يتقون" .

في الحديثِ الصحيح الذي رواه البخاريُّ وغيرُه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يقولُ الله: من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربةِ . . أو فقد آذنْتُه بالحربِ . . وما تقرَّبَ إلي عبدي بمثلِ أداءِ ما افترضت عليه، ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَه فإذا أحببتُه كنتُ سمْعَه الذي يسمَعُ به، وبصرَه الذي يُبصِرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورجلَه التي يمشي بها، فبي يسمعُ، وبي يُبصر، وبي يبطشُ، وبي يمشي، ولئنْ سأَلني

لأُعطينَّه، ولئن استعاذ بي لأعيذنَّه وما ترددتُ عن شيءٍ وأنا فاعله ترددي عن قبض نفسِ عبدي المؤمنِ، يكرهُ الموتَ وأكرهُ مساءتَه، ولا بدَّ له منه" وهذا أصح حديث يروى في الأولياء .

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أنَّه من عادى ولياً لله فقد بارزَ الله بالمحاربةِ .

وفي حديثٍ آخرَ وإني لأثأرُ لأوليائي كما يثأرُ الليثُ بالحرب، أي آخذ ثأرَهم ممَّن عاداهُم كما يأخذُ الليثُ ـ الرجل المحارب الشجاع الجريء ـ في الحرب ثأرَه، وهذا لأنَّ أولياءَ اللهِ همُ الذين آمنوا به ووالوه، فأحبُّوا ما يحبُّ وأبغضُوا ما يَبغض، ورضُوا بما يرضى، وسَخِطوا بما يَسْخَطُ وأمرُوا بما يأمرُ ونَهَوْا عما نهى وأعطوا لمن يُحبُّ أن يُعطى ومنعُوا مَنْ يحبُّ أن يُمْنَعَ. كما في الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم إنه قال: "أوثقُ عرى الإيمان: الحبُّ في اللهِ والبغضُ في اللهِ"، وفي حديثٍ آخرَ رواه أبو داود وقال: "مَنْ أحبَّ للهِ وأبغضَ للهِ وأعطى لله ومَنَعَ لله فقد استكملَ الايمان" .

وأفضلُ أولياءِ اللهِ هم أنبياؤُه وأفضلُ أنبيائهِ هم المرسلونَ منهم، وأفضلُ المرسلين أولو العزمِ نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: "شرعَ لكم من الدينِ ما وصَّى به نوحاً والذي أوحينا إليكَ، وما وصَّينا به إبراهيمَ وموسى وعيسى أن أقيموا الدينَ ولا تتفرقوا"، وقال تعالى: "وإذ أخذنا من النبيينَ ميثاقَهم ومنكَ ومن نوحٍ وإبراهيمَ وموسى وعيسى ابن مريمَ وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً، ليسألَ الصادقينَ عن صدقِهم، وأعد للكافرين عذاباً أليماً".

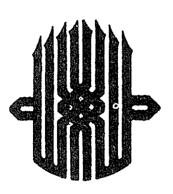
وأفضلُ أولي العزمِ سيدنا محمدٌ صلى الله عليه وسلم، خاتمُ النبيين، وإمامُ المتقينَ، وسيدُ ولدِ آدم، وإمامُ الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبُهم إذا وفدوا، صاحبُ المقامِ المحمودِ الذي يغبطُه به الأولونَ والآخرونَ، وصاحبُ لواءِ الحمد، وصاحبُ الحوضِ المورود، وشفيعُ الخلائقِ يومَ القيامة، وصاحبُ الوسيلةِ والفضيلةِ الذي بعثَه بأفضلِ كتبِه، وشرعَ له أفضلَ شرائعِ دينه، وجعلَ أمَّتَه خيرَ أمَّةٍ أُخرجتْ للنَّاس، وجمعَ له ولأمَّتِه من الفضائلِ والمحاسنِ ما فرَّقَه فيمنْ قبْلَهم وهم آخرُ الأممِ خلقاً وأولُ الأممِ بعثاً، كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديثِ الصحيح: "نحنُ الآخرونَ السابقونَ يومَ القيامةِ، بيْدَ أنهم أوتوا الكتابَ من قبلِنا وأوتيناهُ من

بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه - يعني يوم الجمعة - فهدانا الله له. الناس لنا تبعٌ فيه، غداً لليهود، وبعد غدٍ للنصارى".

وقال صلى الله عليه وسلم: أنا أول من تنشق عنه الأرض"، وقال صلى الله عليه وسلم: "آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول أنا محمدٌ فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحدٍ قبلك".

وفضائله صلى الله عليه وسلم وفضائل أمّته كثيرة.

ومن حين بعثه الله جعله الله الفارق بين أوليائه وبين أعدائه فلا يكون ولياً لله إلا من آمن به وبما جاء به، واتبعه باطناً وظاهراً، ومن ادّعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه فليس من أولياء الله، بل من خالفه كان من أعداء الله، وأولياء الشيطان، قال تعالى: "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله".



قال الحسن البصري رحمه الله: ادّعى قومٌ أنّهم يحبون الله فأنزل الله هذه الآية محنةً لهم وقد بيّن الله فيها إن من اتبع الرسول فإن الله يحبُه ومن ادّعى محبةَ الله ولم يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من أولياء الله وإن كان كثيراً من النّاس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله.

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه، قال سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولُ جهاراً عنه غير سر: إنّ آل فلان ليسوا لي بأولياء -يعني طائفةً من أقاربه- إنّما وليّ الله وصالحُ المؤمنين"، وهذا موافقٌ لقوله تعالى: "فإنّ الله هو مولاهُ وجبريلُ وصالحُ المؤمنينَ" الآية. وصالحُ المؤمنين هو مَنْ كانَ صالحاً من المؤمنينَ، وهم المؤمنونَ المتقون أولياءُ الله، ودخلَ في ذلك أبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وعليٌ وسائرُ أهلِ بيعةِ الرضوان الذين بايعوا تحتَ الشجرة، وكانوا ألفاً وأربعمائة، وكلهم في الجنّةِ كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "لا يدخل النار أحد بايع تحتَ الشجرة"، ومثلُ هذا الحديث الآخر "إنّ أوليائي المتقون أيّاً كانوا وحيثُ كانوا".

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم"، وروى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر"، وفي حديث آخر إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه (وفيه) لو كان نبي بعدي لكان عمر، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر، وقال ابن عمر: ما كان عمر يقول في شيء: إني لأراه كذا إلا كان كما يقول.

وعن قيس بن طارق قال كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسان ملك، وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة.

الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لأولياء الله من مخاطبات ومكاشفات وكرامات وخصوصيات لا يدركها العاديون من الناس.

ونحن نعتقد أنّ الولي غير معصوم فهو يخطئ ويصيب ولكنه إن كان صادقاً في ولايته، عابداً متجرداً فالله تعالى يحفظه . لذا صح أن يقال: النبي معصوم، والولي محفوظ من الله تعالى كما ذكرنا، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم، من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعاً أنه قال: إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإذا أخطأ فله أجر، فلم يؤثم المجتهد المخطئ، بل جعل له أجراً على اجتهاده، وجعل خطأه مغفوراً له، ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه، ولهذا لمّا كان ولي الله يجوز عليه الخطأ لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يُلقى إليه في قلبه إلاّ أن يكون موافقاً للشرع، أو يعتمد على ما يقع له مما يراه إلهاماً ومحادثة وخطاباً من الحق، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو أم مخالف؟ توقف فيه وهو الأفضل إلى أن يستبين أمره، أو أن يقذف الله في قلبه نور الدلائل النبوية .

قال الفضيل بن العياض إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً، لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً، لم يُقبل، حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهذا الذي ذكره الفضيل مما

اتفقَ عليه أئمةُ المشائخِ.... وقال أبو سليمان الداراني: إنه لتمرُ بقلبي النكتةُ من نُكتِ القومِ فلا أقبلُها إلا بشاهدينِ اثنينِ، الكتابِ والسنةِ، وقالَ الشيخُ أبو سليمانَ أيضاً، ليسَ لمنْ أُلهِمَ شيئاً من الخيرِ أن يفعلَه، حتى يسمعَ فيه بأثرٍ فإذا سَمِعَ بأثرٍ كانَ نوراً على نورٍ.

وقد ذكرتُ لك قبلاً كلامَ الإمام الجنيد رضي الله عنه لما قال: علمُنَا هذا مقيدٌ بالكتابِ والسنة، فمنْ لم يقرأْ القرآنَ ولم يكتبِ الحديثَ، لم يصحّ لأنْ يتكلمَ في علمِنا هذا، وقالَ سهلُ ابنُ عبدِ الله التستري: كلُ وجْدٍ لا يَشْهَدُ له الكتابُ والسنةُ فهو باطلٌ، وقال: كلُ عملٍ على ابتداعٍ فإنه عذابٌ على النفس، وكلُ عملٍ بلا اقتداءٍ فهو غِشُ النفس.

هذه هي عقيدتُنا واعتقادُنا بأولياءِ الله الذين نَشَروا لنا المحاسنَ، وعَبَقوا الدنيا شذىً وقرنفلاً، وفاحَ أريجُها وعطرُها، فكانوا مثالاً يُقتدى، ونوراً يُحتذى، وكلُ من اتهمَ الصوفيةَ أهلَ الله في عقيدتِهم بأولياءِ الله على خلافِ النهجِ الذي سبقَ، والأمرِ الذي اتسق، فهو مغرورٌ مُغْرِضٌ، ينبغي أنْ يعودَ إلى اللهِ تعالى، ويرعوي عن هذا الاعتقادِ، وإلا فعندَ الله تجتمعُ الخصوم.

اللهم اجعلنا من أوليائك وحَبينا بهم.

طبقـــات الصوفيـــة

لقد ازدانت السنينُ الأولى بكوكبةٍ من طبقاتِ العلماءِ العاملين، والزاهدين الذاكرين، الذين وسِعُوا الدنيا وعمَرُوها بأخلاقِهم وأعمالِهم وزهدِهم، وقد تناولَ العلماءُ ذكراهم وتراجمَهم في مجلداتٍ ضخمةٍ، وتآليفَ واسعةِ الإنتشارِ، وها أنذا أذكر لقارئي الكريم بعضَ رجالِ الطبقاتِ الذين صنَّفَ لهم الإمامُ الهمامُ الشيخُ عبدُ الرحمنِ السلمي كتاباً أسماهُ طبقاتِ الصوفية، وعدَّ منهم رجالاً لا يُدرِكُ شأْوُهم، ولا يكادُ يصلُ واصلٌ إلى مداركِهم وفتوحاتهم وفيوضاتِهم التي اختصهم بها البارىء عز وجل إلا ما ندرَ من الرجالِ الكُمّلِ.

ومنهم على سبيل الإختصار:

الطبقـــة الأولـــى

١ـ الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التيمي، ولد بسمرقند ونشأ بأبيورد، والأصلُ من الكوفة، كان عابداً عالماً زاهداً ورعاً، تكلم بالحديث، من أقواله: "مَنْ جلسَ مع صاحب بدعة لم يُعْطَ الحكمة"، وقال أيضاً: "لا ينبغي لعامل القرآن ـ أي القارئ ـ أن يكونَ له إلى خلق حاجة".

وقال في قوله تعالى: (إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين): "الذين يحافظون على الصلوات الخمس".

وقال أيضاً: "خيرُ العملِ أخفاه، وأمنعُه من الشيطان وأبعدُه من الرياء".

توفي رضي الله عنه في المحرم سنة سبع وثمانين ومائة، (١٨٧هـ).

وستأتي ترجمتُه مفصَلَةً كنموذجٍ رائع

٢ـ ذو النون بن ابراهيم المصري، كنيته أبو الفيض، اسمه: ثوبان بن ابراهيم وذو النون لقبه، من أقواله: إياكَ أن تكونَ بالمعرفةِ مدَّعياً، أو تكونَ بالزهد محترفاً، أو تكونَ بالعبادةِ متملقاً، وسئل رضي الله عنه عن المحبة قال: أن تُحِبَ ما أحبَ اللهُ، وتبغضَ ما أبغضَ اللهُ،

وتفعلَ الخيرَ كله، وترفضَ كلَ ما يشغلُ عن اللهِ، وألاَّ تخافَ في اللهِ لومةَ لائم، مع العطف للمؤمنين، والغلظةِ على الكافرين واتباعِ رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم في الدينِ.

وقال أيضاً: يا معشرَ المريدين مَنْ أرادَ منكم الطريقَ فليلْقَ العلماءَ بالجهلِ، والزهادَ بالرغبةِ، وأهلَ المعرفةِ بالصمتِ، توفي رضي اللهُ عنه سنة خمس وأربعين ومائتين (٢٤٥هـ).

٣. ابراهيم بن أدهم، أبو اسحاق. من أهل بلخ، كان من أبناءِ الملوكِ والمياسير. خرج متصيداً فهتف به هاتفٌ، أيقظهُ من غفلتهِ. فترك طريقتَه في التزينِ بالدنيا، ورجعَ إلى طريقةِ أهلِ الزهدِ والورعِ. وخرجَ إلى مكةَ، وصحبَ بها سفيانَ الثوري والفضيل بن عياض. ودخل الشام، فكان يعمل ويأكل من عمل يده.

٤. بشر الحافي وهو بشرُ بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماها بن عبد الله الحافي كنيته أبو نصر، أصله من "مرد" من قرية "بكرد" سكن بغدادَ

ومات بها وصحب الفضيل بن عياض وكان عالماً ورعاً، توفي يوم الأربعاء العاشر من محرم سنة سبع وعشرين ومائتين (٢٢٧هـ).

٥ـ السري السقطي وهو سري بن المغلّس السقطي، كنيته أبو الحسن يقال إنه خال الجنيد وأستاذه، صحب معروفاً الكرخي، وهو أول من تكلم ببغداد بلسان التوحيد، وحقائق الأحوال، وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته توفي في سنة أحدى وخمسن ومائتين (٢٥١هـ).

٦ـ الحارث بن أسد المحاسبي وكنيته أبو عبد الله، من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات، له التصانيف المشهورة، وهو أستاذ أكثر البغداديين، وهو من أهل البصرة، توفي سنة ثلاث وأربعين ومائتين (٢٤٣هـ).

٧ـ شفيق بن ابراهيم، أبو علي الأزدي، من أهل بلخ أحسن الجري على سبيل التوكل، وحُسْنِ الكلام فيه، وهو من مشاهير مشايخ خرسان، كان أستاذ حاتم الأصم صحب ابراهيم بن أدهم، وأخذ عنه الطريق.

٨. أبو يزيد، طيفور بن عيسى بن سروشان، وكان جَدُّه سروشان هذا مجوسيّاً فأسلمَ هو وثلاثة إخوة: آدمُ وطيفور، وعليّ، وكلهُم كانوا زهاداً عباداً، أرباب أحوالٍ وهو من أهل بسطام . مات سنة إحدى وستين ومائتين (٢٦١هـ) .

٩. أبو سليمان الداراني وهو عبد الرحمن بن عطية، وهو من أهل "داريا" قريةٌ من قرى دمشقَ توفي سنة خمس عشرة ومائتين (٢١٥هـ) .

١٠. معروفُ الكرخي وهو أبو محفوظ، معروف بن فيروز، ويقال معروف بن الفيرزان، وهو من جلّةِ المشايخ وقدمائِهم والمذكورينَ بالورعِ والفتوةِ، كان أستاذَ سري السقطي صحبَ داودَ الطائي، وقبرُه ببغداد ظاهر، يُسْتَشفى به . ويتبركُ بزيارته وهو الملقب بالترياقِ المجرب . وكان معروف أسْلمَ على يد علي بن موسى الرضا، مات بجادثة ودفن ببغداد.

١١. حاتم الأصم وهو حاتم بن عُنوان، ويقال حاتم بن يوسف كنيته أبو عبد الرحمن وهو من قدماء مشايخ خراسان، من أهل بلخ صحب شفيقَ بنَ ابراهيم وكان أستاذ أحمد

بن خضرويه وهو مولى للمثنى بن يحي المحاربي، وله ابن يقال له: "خشنام بن حاتم"، مات "بواشجرد"، عند رباطٍ يقال له: "رأس سروند"، على جبل فوق "واشجرد" سنة سبع وثلاثين ومائتين.

١٢ـ أبو ترابٍ النخشبي، وأسمه عسكر بن حسين، صحب أبا حاتم العطار البصري، وحاتماً الأصم البلخي وهو من جلة مشايخ خراسان والمذكورين بالعلم والفتوة، والتوكل، والزهد، والورع. توفي في البادية سنة خمس وأربعين ومائتين (٢٤٥هـ).



الطبقــة الثانيــة

١ـ الجنيد بن محمد، أبو القاسم الخراز وكان أبوه يبيع الزجاج، فلذلك كان يقال له: القواريري، أصله من "نهاوند" ومولده ومنشؤه بالعراق تفقه على أبي ثور وكان يفتي في حلقته، وصحب السري السقطي والحارث المحاسبي ومحمداً البغدادي وغيرهم، توفي سنة سبع وتسعين ومائتين يوم السبت (٢٩٧هـ).

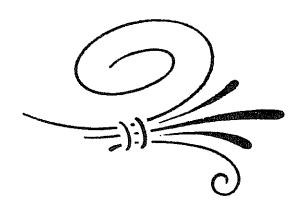
٢ـ أبو عثمان، سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور الحيري النيسابوري واصله من الريّ، صحب قديماً يحي بن معاذ الرازي، وشاه بن شجاع الكرماني، ثم رحل إلى نيسابور، إلى أبي حفص وصحبه وأخذ عنه طريقته، ومنه انتشرت طريقة التصوف بنيسابور وتوفي فيها.

٣ـ شاه الكرماني، وهو شاه بن شجاع، أبو الفوارس كان من أولاد الملوك، صحب أبا تراب النخشي، وأبا عبد الله بن الذرّاع البصري، وأبا عبيد البسري، وكان من أجلة الفتيان، وعلماء هذه الطبقة، وله رسالات مشهورة والمثلثة التي سماها

"مرآة الحكماء"، ومرد نيسابور، في زيارة أبي حفص، ومعه أبو عثمان الحيري ومات قبل الثلاثمائة ويقال أن أصله من مرد .

٤ـ سمنون بن حمزة المحب، ويقال سمنون بن عبدالله، أبو الحسن الخواص، وكنيته أبو القاسم سمى نفسه سمنون الكذاب، صحب سرياً السقطي، ومحمد بن علي القصاب وأبا أحمد القلانسي، وكان يتكلم بالمحبة وأحسن الكلام، وهو من كبار مشايخ العراق، مات بعد الجنيد رضي الله عنه .

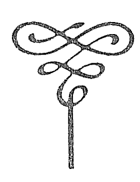
٥ـ سهل بن عبدالله التستري وكنيتُه أبو محمد، وهو أحدُ أئمة القومِ وعلمائِهم، والمتكلمين في علوم الرياضيات والإخلاص وعيوب الأفعال، صحب خالد محمد بن سوار، وشاهد ذا النون المصري سنة خروجه إلى الحج بمكة توفي سنة ثلاث وثمانين ومائتين



٦ـ محمد بن علي بن الحسين الترمذي، وكنيته أبو عبد الله لقي أبا تراب النخشبي وصحب يحي الجلاء، وأحمد بن خضرويه، وهو من كبار مشايخ خراسان وله التصانيف المشهورة، وكتب الحديث الكثير.

٧ـ أبو بكر الوراق وهو محمد بن عمر الحكيم، أصله من ترمذ وأقام ببلخ، لقي أحمد بن خضرويه وصحبه، وصحب محمد بن سعد بن ابراهيم الزاهد، وله الكتب المشهورة في أنواع الرياضيات والمعاملات والآداب.

٨ـ أبو سعيد الخراز واسمه أحمد بن عيسى، وهو مِنْ أهلِ بغداد صحبَ ذا النون المصري وأبا عبد الله النباجي، وأبا عبيد البسري، وصحب أيضاً سرياً السقطي، وبشر بن الحارث، وغيرهم، وهو من أئمةِ القوم وجلّة مشايخهم، قيل إنه أول من تكلم في علم الفناء والبقاء، مات سنة تسعٍ وسبعين ومائتين (٢٧٩هـ).



الطبقـــة الثالثـــة

١-أبو محمد الجريري، يقال أن أسمه: أحمد بن محمد بن الحسين، وكنية والده أبو الحسين، كان من كبار أصحاب الجنيد، وصحب أيضاً سهل بن عبدالله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم أقعد بعد الجنيد في مجلسه، لتمام حاله وصحة علمه، مات سنة إحدى عشرة وثلاثمائة (٣١١هـ).

٢-ابراهيم بن أحمد بن إسماعيل الخواص، كنيته أبو اسحاق، وهو أحد من سلك طريق التوكل، وكان أوحد المشايخ في وقته ومن أقران الجنيد، والنوري له في السياحات والرياضيات مقامات يطول شرحها مات في جامع الري، سنة إحدى وتسعين ومائتين (٢٩١هـ).

٣-عبد الله بن محمد الخراز، وهو أبو محمد عبدالله بن محمد، من كبار مشايخ الرازيين، جاور بالحرم سنين كثيرة، وهو من الورعين، القائلين بالحق، والطالبين قوتهم من

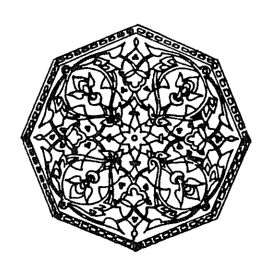
وجه حلال، صحب أبا عمران الكبير، ولقي أبا حفص النيسابوري، وكانوا جميعاً يعظمونه ويعظمون مكانه، مات قبل العشر والثلاثمائة (٣١٠هـ) .

٤.أبو الحسن بن الصائغ الدينوري، وأسمه علي بن محمد بن سهل كان من كبار المشايخ، أقام بمصر ومات بها، سُئل الشيخ أبا عثمان: "هل كان أبو الحسن من السالكين؟، فقال: كان من العاملين، المخلصين في المعاملة"، توفي بمصر، سنة ثلاثين وثلاثمائة (٣٣٠هـ) .

٥.ممشاد الدّينوري وهو من كبار مشايخهم، صحب يحي الجلاء، ومن فوقه من المشايخ، عظيم المرمى في هذه العلوم، أحد فتيان الجبال، كبير الحال، ظاهر الفتوة ذكر أبو زرعة، أنه مات سنة تسع وتسعين ومائتين (٢٩٩هـ) .

٦.ابراهيم بن داود الرّقي القصار، أبو إسحاق، من جلّة مشايخ الشام، من أقران الجنيد وابن الجلاء، إلا أنه عمّر وصحب أكثر مشايخ الشام، وكان لازماً للفقر، مجرّداً فيه محباً لأهله، توفي سنة ست وعشرين وثلاثمائة (٣٢٦هـ) .

٧ـ خير النسّاج وكنيته أبو الحسن، كان أصله من سامرّا وأقام ببغداد . صحب أبا حمزة البغدادي، وسأل السري السقطي عن مسائل، وكان إبراهيم الخواص تاب في مجلسه، وكذلك الشبلي، تاب في مجلسه، عمّر طويلاً، وكان من أقران النوريّ وطبقته، وكان أسمه محمد بن اسماعيل السامري، وإنما سمي خيراً النساج، لأنه خرج إلى الحج، فأخذه رجل على باب الكوفة، فقال: أنت عبدي واسمك خير وكان أسود، فلم يخالفه، فأخذه الرجل، واستعمله في نسج الخز سنين، وكان يقول له: يا خير ! فيقول: لبيك، ثم قال له الرجل ـ بعد سنين ـ أنا غلطت : لا أنت عبدي ولا اسمك خير، فلذلك سمى خير النساج، وكان يقول: لا أغير اسماً سماني به رجل مسلم عاش مائة وعشرين سنة .



الطبقة الرابعة

١ـ أبو بكر الشبلي، وأسمه دلف، يقال ابن جحدر ويقال ابن جعفر، ويقال: اسمه جعفر بن يونس، وهو خراساني الأصل، بغدادي المنشأ والمولد، وأصله من أسروشنة ومولده كما قيل سامرّا. تاب في مجلس خير النساج وصحب الجنيد، ومَنْ في عصره من المشايخ، وصار أوجه وقته حالاً وعلماً، وكان عالماً فقيهاً على مذهب مالك عاش سبع وثمانين سنة ومات في ذي الحجة، سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٤هـ)، ودفن في مقبرة الخيزران، وقبره اليوم ظاهر.

٢ـ أبو علي الروذباري، وأسمه أحمد بن محمد بن القاسم بن منصور، وهو من أهل بغداد، سكن مصر، وصار شيخها، ومات بها، صحب أبا القاسم الجنيد، وأبا الحسين النوري، وأبا حمزة، وحسناً المسوحيّ، ومن في طبقتهم من مشايخ بغداد، وصحب بالشام ابن الجلاء. وكان عالماً فقيهاً عارفاً بعلم الطريقة حافظاً للحديث توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة (٣٢٢هـ).

٣- محمد بن علي بن جعفر الكتاني، وكنيته أبو بكر أصله من بغداد، صحب الجنيد، وأبا سعيد الخراز وأبا حسين النوري وأقام بمكة، مجاوراً بها، إلى أن مات وكان أحد الأئمة، مات سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة (٣٢٢هـ).

٤- أبو يعقوب وهو إسحاق بن محمد النهرجوري، من علماء مشايخهم صحب الجنيد، وعمر بن عثمان المكي وأبا يعقوب السوسي، وغيرهم من المشايخ أقام بالحرم سنين كثيرة مجاوراً، وبه مات سنة ثلاثين وثلاثمائة (٣٣٠هـ).

٥- أبو عبد الله بن سالم البصري، محمد بن أحمد بن سالم صاحب سهل بن عبد الله التستري، وراوي كلامه لا ينتمي إلى غيره من المشايخ، وهو من أهل الإجتهاد وطريقته طريقة أستاذه سهل، وله بالبصرة أصحاب ينتمون.

الطبقة الخامسة

١.عبدالله الرازي وهو أبو محمد، عبد الله بن محمد بن عبدالله بن عبد الرحمن الرازي الشعراني، رازيُ الأصل، ومولده ومنشأه بنيسابور، صحب الجنيد بن محمد، وأبا عثمان ومحمد بن الفضل، ورويماً وغيرهم من مشايخ القوم، وهو من أجل مشايخ نيسابور في وقته، له من الرياضيات مايعجز عنها إلا أهلها، وكان عالماً بعلوم الطائفة، وكتب الحديث الكثير ورواه، وكان ثقة، مات سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة (٣٥٣هـ).

٢.أبو الحسن علي بن أحمد بن سهل البوشنجي، كان أوجه فتيان خرسان، لقي أبا عثمان، وصحب بالعراق ابن عطاء والجريري وبالشام طاهراً، وأبا عَمْرو الدمشقي، وهو من أعلم مشايخ وقته بعلوم التوحيد، وعلوم المعاملات، وأحسنهم طريقة في الفتوة والتجريد، وكان ذا خُلق، متديناً، متعهداً للفقراء، مات سنة ثمان وأربعين وثلاثمائة (٣٤٨هـ).

٣ـ أبو العباس أحمد بن محمد الدينوري، صحب يوسف بن الحسين وغيره، وهو من أفتى المشايخ، وأحسنهم طريقة واستقامة، ورد نيسابور، وأقام بها مدة وكان يعظ الناس، ويتكلم على لسان المعرفة، بأحسن كلام، ثم رحل من نيسابور إلى سمرقند، ومات بها، بعد الأربعين وثلاثمائة (٣٤٠هـ).

٤ـ أبو القاسم النصراباذي، وأسمه إبراهيم بن محمد، شيخ خراسان في وقته، نيسابوري الأصل والمنشأ والمولد، يرجع إلى أنواع من العلوم من حفظ السير وجمعها، وعلوم التواريخ، وما كان مختصاً به من علم الحقائق، وكان أوجه المشايخ في وقته علماً وحالاً، وصحب أبا بكر الشبلي وغيره أقام بنيسابور، ثم خرج في آخر عمره إلى مكة، ورجع سنة ست وثلاثين وثلاثمائة (٣٣٦هـ). وأقام بالحرم مجاوراً ومات سنة سبع وستين وثلاثمائة (٣٦٧هـ).

٥ـ أبو عبد الله الروذباري، وأسمه أحمد بن عطاء بن أحمد الروذباري، ابن أخت أبي علي الروذباري شيخ الشام في وقته، يرجع إلى أحوال يختص بها، وأنواع من العلوم، من علم القراءات في القرآن الكريم، وعلم الشريعة وعلم الحقيقة وأخلاق وشمائل يختص بها،

وتعظيم للفقر وصيانة له، وملازمة لآدابه، ومحبة للفقراء وميل إليهم ورفق بهم، مات في ذي الحجة سنة تسع وستين وثلاثمائة (٣٦٩هـ).

٦ـ أبو الحسن علي بن بندار الصيرفي، من جلة مشايخ نيسابور ورزق من رؤية المشايخ وصحبتهم ما لم يرزق غيره صحب بنيسابور أبا عثمان ومحفوظاً، وبسمرقند محمد بن الفضل، وببلخ محمد بن حامد وببغداد الجنيد بن محمد ورويماً وسمنون وغيرهم الكثير من المشايخ، كتب الحديث الكثير ورواه، وكان ثقة، مات سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (٣٥٩هـ).

وقد ذكرتُ هذه اللوامعَ من الرجالِ الابطالِ في زهدِهم وجهادِهم وعلمهم وثباتِهم، لأبرهنَ أن الصوفيَّ هو ابنُ وقتِه، وأجَلُّ عصرِه علماً وعملاً ومعرفة. وأنهم أكبرُ شاهد على الشريعةِ الغراءِ، في تعزيزِها، ونصرتِها، والارتشافِ من ينابيعها وصفائها.

وهل ينبغي بعدَ ذلكَ التكلمُ عنهم والخوضُ في متاهاتِ التهمِ، والخروجُ عن قاعدةِ الآدابِ المطلوبةِ وقد قالَ الإمامُ أبو تراب النخشبي رضي الله عنه إذا ألفَ القلبُ الإعراضَ عن اللهِ صحبتْهُ الوقيعةُ في أولياءِ الله تعالى.

كرامات الأولياء

أولياء الله المتقون والصوفية الصالحون هم المقتدون بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فيفعلون ما أمر به، وينتهون عما عنه زجر، ويقتدون به فيما بيَّن لهم أن يتبعوه فيه، فيؤيدهم الله بملائكته وبروح منه، ويقذفُ اللهُ في قلوبهم من أنواره، ولهم الكراماتُ التي يُكرِمُ اللهُ بها أولياءَه المتقين، لأن أولياءَ اللهِ كراماتُهم حجةٌ في الدين، أو لحاجة المسلمين، كما كانت معجزات نبينا محمد صلى الله عليه وسلم كذلك.



الكرامات

وكرامات أولياء الله حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم، لأن القاعدة تقول: ما كان معجزة لنبي صلى الله عليه وسلم صح أن يكون كرامة لولي، مثل انشقاق القمر، وتسبيح الحصا في كفه، واتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وأخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس، وأخباره بما كان وما يكون، واتيانه بالكتاب العزيز، وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة، كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص كما ورد في حديث أم سلمة المشهور، وأروى العسكر في غزوة خيبر من مزداة ماء ولم تنقص، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفاً، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه، كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة، ورده لعين أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينيه، ولما أرسل محمد بن سلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها فبرئت، وأطعم من شواء مائة وثلاثين رجلاً كل منهم حز له قطعة وجعل فيها قطعتين فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة، ودين عبد الله أبي جابر لليهودي وهم ثلاثون وسقاً، قال جابر فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان

فلمْ يقبلْ فمشى فيها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لجابر زن له فوفّاه الثلاثينَ وسقاً وفَضلَ سبعةَ عشرةَ وسقاً، ومثل هذا كثير قد جمعتُ نحو ألف معجزة.

وكرامات الصحابة والتابعين من بعدِهم، وسائرُ الصالحين كثيرةٌ جداً منها:

أنَّ أسيدَ بن حضير الصحابي الجليل رضي الله عنه كان يقرأ سورة الكهف، فنزل من السماء مثلُ الظُّلة فيها أمثالُ السرجِ وهي الملائكة نُزلتْ لقراءته.

كما كانت الملائكة تُسلمُ على عمرانَ بن حصين رضي الله عنه.

وكان سلمان وأبو الدرداء يأكلانِ في صَحْفةٍ فسبحتِ الصحفةُ وسبّح ما فيها.

وكان عباد بن بشر وأسيد بن حُضير خرجا من عندِ رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلةٍ مظلمةٍ فأضاءَ لهما النورُ مثلُ طرفِ السوطِ فلما افترقا افترقَ النورُ معهما. رواه البخاري وغيره.

وقصة "الصديق" رضي الله عنه في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضيافٍ معه إلى بيته، وجعل لا يأكل لقمةً إلا ربى من أسفلها أكثرُ منها فشبعوا وصارتْ أكثر مما هي قبل ذلك، فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثرُ مما كانتْ فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء إليه أقوامٌ كثيرون فأكلوا منها وشبعوا .

والصحابي الجليل "خبيب بن عدي" كان أسيراً عند المشركين بمكة شرَّفها الله تعالى وكان يؤتى بعنبٍ يأكلُه وليس بمكةَ عنبةٌ .

و"عامر بن فهيرة"، قُتِلَ شهيداً فالتمسوا جسدَه فلم يقدروا عليه، وكان لما قُتلَ رفعَ فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع وقال عروة: فيرون أن الملائكة رفعته .

وخرجتْ "أم أيمن" مهاجرةً وليس معها زادٌ ولا ماءٌ فكادت تموتُ من العطشِ فلما كانَ وقتُ الفطرِ وكانتْ صائمةً سمعت حساً على رأسِها فرفعته فإذا دلوٌ معلقٌ فشربتْ منه حتى رويتْ وما عطشتْ بقيةَ عمرها .

وسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الأسدَ بأنّه رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فمشى معه الأسدُ حتى أوصله مقصدَه.

و"البراءُ بنُ مالك" رضي الله عنه كان إذا أقسمَ على اللهِ تعالى أبرَّ قسمه، وكان الحربُ إذا اشتدَّ على المسلمينَ في الجهادِ يقولون: يا براءُ، اقسمْ على ربك فيقول: يا رب، أقسمتُ عليكَ لما منحتنا أكتافهم، فيهزمُ العدوُ، فلما كان يومُ القادسية قال: أقسمتُ عليكَ يا ربِ لما منحتَنا أكتافَهم وجعلتني أولَ شهيدٍ فمنحوا أكتافَهم وقُتلَ البراءُ شهيدا.

و"خالد بنُ الوليدِ" رضي الله عنه حاصرَ حصناً منيعاً فقالوا لا نُسْلِمهُ حتى تشربَ السمَّ فشربه فلم يَضُرَّه.

وسعد بنُ أبي وقاص رضي الله عنه، كان مستجابَ الدعوةِ ما دعى إلا استجيبَ له، وهو الذي هزمَ جنودَ كسرى وفتحَ العراق.

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما أرسل جيشاً أمَّر عليهم رجلاً يسمى "سارية" فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر "يا سارية الجبل، يا سارية الجبل"، فقدم رسول الجيش فسأل فقال يا أمير المؤمنين لقينا عدواً فهزمونا فإذا بصائح يقول: "يا سارية الجبل، ياسارية الجبل"، فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

ولما عُذبت "الزبيرة" في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها قال المشركون أصاب بصرها اللات والعزى، قالت كلا والله فردَّ الله عليها بصرها.

ودعا "سعيد بن زيد" رضي الله عنه على أروى بنت الحكم فأعمى بصرها لما كذبت عليه فقال: اللهمَّ إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها في أرضها، فعميت، ووقعت في حفرة من أرضها فماتت.

والعلاء بن الحضرمي رضي الله عنه كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين، وكان يقول في دعائه: يا عليم، يا حليم يا علي يا عظيم، فيستجاب له، ودعا الله أن يُسقوا ويتوضؤا لمّا عدموا الماء والإسقاء فأجيب.

ودعا الله لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم، فمرّوا كلهم على الماء ما ابتلت سروج خيولهم .

ودعا الله أن لا يروا جسده إذا مات، فلم يجدوه في اللحد .

وجرى مثل ذلك "لابي مسلم الخولاني" الذي ألقي في النار، فإنّه مشى هو ومنْ معه من العسكر على دجْلة وهي ترمى بالخشب منْ مدها فالتفت إلى أصحابه فقال: تفقدونَ من متاعكم شيئاً حتى أدعوَ الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مِخلاةً، فقال اتبعني، فتبعَه فوجدَها قد تعلقتْ بشيء فأخذَها .

وطلبه الأسودُ العَنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهدُ أني رسولُ الله، قالَ ما أسمعُ قال أتشهدُ أن محمداً رسول الله؟ قال نعم، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً .

وقدم المدينة بعد موتِ النبي صلى الله عليه وسلم فأجلسَه عمرُ بينَه وبينَ أبي بكر الصديقِ رضي الله عنهما وقال: الحمدُ لله الذي لم يمتْني حتى أرى من أمةِ محمد صلى الله عليه وسلم مَنْ فُعِلَ به كما فُعِلَ بإبراهيمَ خليلِ الله.

ووضعت له جاريةٌ السمَّ في طعامِه فلم يضرَّه.

وخببت امرأةٌ عليه زوجتَه فدعا عليها فعميتْ، وجاءت وتابت فدعا لها فردَّ اللهُ عليها بصرَها.

وكان عامر بن عبد قيس، يأخذ عطاءه ألفي درهم في كمه وما يلقاه سائلٌ في طريقه إلا أعطاه بغيرِ عدد، ثم يجيءُ إلى بيتِه فلا يتغيرُ عددُها ولا وزنُها.

ودعا اللهَ تعالى أن يهوِّنَ عليه الطهورَ في الشتاءِ، فكان يؤتى بالماءِ له بخارٌ.

ودعا ربَه أن يمنعَ قلبَه من الشيطانِ وهو في الصلاةِ فلم يقدرْ عليه.

وتغيب الحسنُ البصري، عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه.

ودعا على بعض الخوارج إذ كان يؤذيه فخرَّ ميتاً.

ووصلةُ بن أشيم، مات فرسه وهو في الغزو فقال اللهم لا تجعل لمخلوق عليَّ منة ودعا الله عز وجل فأحيا له فرسه فلما وصل إلى بيته قال يا بُنيَّ خذ سرج الفرس فإنه عارية فأخذ سرجه فمات.

وجاع مرةً بالأهواز، فدعا الله عز وجل واستطعمه فوقعت خلفه دوخلة رطبة في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زماناً.

وجاء الأسدُ وهو يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له اطلب الرزق من غير هذا الموضع، فولى الأسدُ وله زئير.

وكان سعيدُ بن المسيب في أيام الحرة يسمعُ الأذانَ من قبرِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقات الصلوات، وكان المسجد قد خلا فلم يبقَ غيرُه.

ورجل من النخع كان له حمارٌ فماتَ في الطريقِ فقال له أصحابُه هلّم نتوزعُ متاعَك على رحالِنا فقال لهم: امهلوني هنيهة، ثم توضأ فأحسنَ الوضوءَ وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا الله حمارَه فحملَ عليه متاعَه.

ولما مات أويسٌ القرني، وجدوا في ثيابِه أكفاناً لم تكنْ معه قبلُ، ووجدوا له قبراً محفوراً فيه لحدٌ في صخرةٍ فدفنوه فيه وكفَّنوه في تلك الأثواب.

وكان "عمرو بن عقبة بن فرقد" يصلي يوماً في شدةِ الحرِ فأظلته غمامةٌ وكان السبعُ يحميه وهو يرعى ركابَ أصحابِه لأنَّه كانَ يشترطُ على أصحابه في الغزو أنه يخدمُهم.

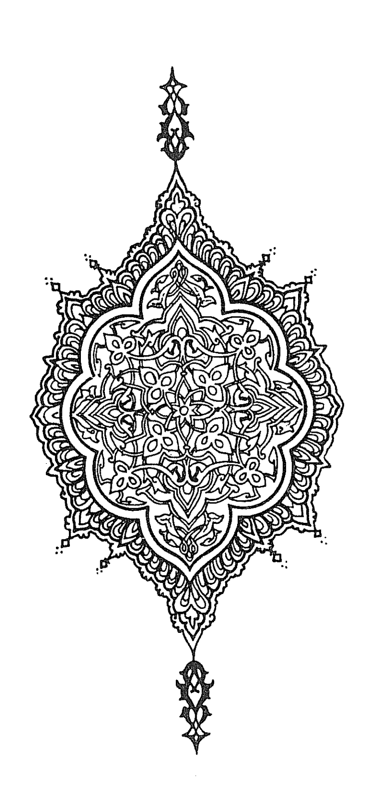
وكان مطرفُ بنُ عبدِالله بن الشخير إذا دخلَ بيتَه سبحت معهُ آنيتُه وكان هو وصاحبٌ له يسيرانِ في ظلمةٍ فأضاءَ لهما طرفُ السوط.

وكان ابراهيمُ التميمي يقيمُ الشهرَ والشهرين لا يأكلُ شيئاً، وخرجَ يمتارُ لأهله طعاماً فلم يقدرْ عليه، فمرَّ بسهلةٍ حمراءَ فأخذَ منها ثم رجعَ إلى أهلِه ففتحَها فإذا هي حنطةٌ حمراءُ فكانَ يزرعُ منها فتخرجُ السنبلةُ من أصلها إلى فرعِها حباً متراكباً.

وكان عتبة الغلام سألَ ربَه ثلاثَ خصال، صوتاً حسناً، ودمعاً غزيراً وطعاماً من غيرِ تكلفٍ، فكانَ إذا قرأ بكى وأبكى، ودموعُه جارية دهره، وكان يأوي إلى منزلِه فيصيب فيه قوتَه ولا يدري من أين يأتيه.

وكان عبدُ الواحد بنُ زيدٍ أصابه الفالجُ فسألَ ربَه أن يطلقَ له أعضاءه وقتَ الوضوء فكان وقتَ الوضوءِ تطلقُ له أعضاؤه ثم تعودُ بعدَه إلى الفالج.

وهذا باب واسع قد بُسطَ الكلام على كراماتِ الأولياء في المطولات من الكتبِ كحلية الأولياءِ للأصبهاني، وجامع كرامات الأولياء للنبهاني، اللهم إنا نسألك بخير عمل أوليائك وأصفيائك وبصدق أقوالهم وأفعالهم وكراماتهم، أن تجعلنا من أهل الاعتقاد الحسَن بهم يا رب العالمين.



توكل الصوفية

روى الحاكم في مستدركه والترمذي وأحمد وغيرهم بسندهم، أن ابن عباس رضي الله عنهما ركب خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا غلام إني معلمك كلمات: إحفظ الله يحفظك، إحفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشي قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف.

وهذا في الحقيقة قمة التوكل على الله تعالى والإعتماد عليه، وتفريغ القلب من سواه، فهو يربي المؤمن على قوة الإيمان بالمشاهدة، وعلى قوة الشخصية التي لا تخاف إلا من الله، ولا تخضع ولا تلين أو تستكين إلا لله تعالى، ولا تركع ولا تسجد إلا لمن خلقه.

ولذلك قال السلفُ الصالحُ: سجدةٌ للربِ تغنيكَ عن ألفِ سجدةٍ لغيره.

وهذا هو التوكلُ بعينِه، وهذا لا يعني الكسلَ والتواني وعدمُ العمل، فذا يسمى بالتواكل.

والرسولُ صلى الله عليه وسلم قد أمرَ الصحابيَ بأن يشُدَّ بعيرَهُ ثُمَّ يتوكلُ على الله تعالى فقال له: "إعْقِلْ ثم توكل".

فالتوكلُ في الإسلامِ هو ربطُ القلوبِ بعلاَّمِ الغيوب، والعملُ قولاً وعملاً وفعلاً وطاعةً وزهداً وتوكلاً.

ورضيَ اللهُ عن أهلِ اللهِ الصوفيةِ الذينَ اتصفوا بهذه الصفاتِ الكريمةِ التي اختلطتْ بنفوسِهم وقلوبهم فاستشعروا من خلالِ ذلك كلِه - في حياتهم - حضرةَ اللهِ تعالى، وعبدوه كأنَّهم يرونَهُ ويشاهدونه، فهابتْ قلوبُهم، وخافتْ من الجموحِ نفوسُهم، فأورثهم ذلك السعيُ وراءَ رضاءِ الله تعالى، فأشغلوا أنفسَهم بالطاعاتِ والعباداتِ

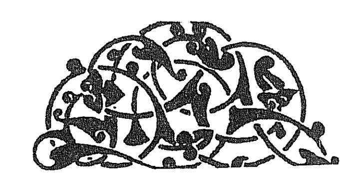
والأذكار، وأورثهم العمل لنيل رضاء الله تعالى، والابتعادَ عن محارمه والاستغناءَ عن الخلقِ والرضاءَ بما حباهم وأعطاهم.

أولئك المتوكلونَ الذينَ حازوا الدرجةَ العالية، والرفعةَ الراقيةَ، من مدحِ سيدِ الوجود صلواتُ ربي عليه دوماً عندما قال: رأيتُ الأممَ بالموسم، فرأيتُ أمتي قد ملأتْ السهلَ والجبلَ، فأعجبتْني كثرتُهم وهيئتُهم، فقيل لي: أرضيتَ؟ قلتُ نعم، قيل: ومع هؤلاءِ سبعونَ ألفاً يدخلونَ الجنةَ بغيرِ حسابٍ، لا يكتوونُ ولا يتطيرونَ ولا يسترْقونَ وعلى ربِهم يتوكلون، فقامَ عكاشةُ بن محصنٍ الأسدي فقال: يا رسول الله أدعُ اللهَ أن يجعلني منهم، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم اللهم اجعلْه منهم، فقام آخر فقال: ادعُ الله أن يجعلَني منهم، فقال صلى الله عليه وسلم: سبَقَكَ بها عكاشةُ.

فالتوكلُ عندَ الصوفيةِ أهلِ الله هو حقيقةُ التفويضِ في كلِ الأمورِ لله تعالى، وتركُ الإختيارِ والتدبيرِ والتقديرِ المطلق، فيجزمونَ أنَّه لا تبديل فيما قَسَمَهُ الله، إذْ لنْ يفوتَ بالضعفِ، ولا يُنالُ ما لمْ يقدرْه بالقوة.

كما أنَّ التوكلَ هو سكونُ القلبِ واطمئنانهُ إلى وعد المولى. وأمّا القيامُ بالأعمالِ الظاهرةِ لتحصيلِ الكسبِ الحلالِ فهذا هو عينُ السُنَّةِ النبويةِ التي تتفقُ مع فطرةِ الإنسانِ وتكوينه وحياته، وهذا لا ينافي التوكلَ في القلبِ ولا يعارضُه، لأنَّ المتوكلَ الحقيقي يتحققُ في قلبه أن التقديرَ من قِبَلِ الله تعالى، لأنَّ محلَ التوكلِ القلبُ، وهو تحقيقُ الإيمانِ فيه، فمنْ أنكرَ التوكلَ أنكرَ الإيمان فإنْ تعسَّرَ شيءٌ من الأسبابِ فبتقديرِ الله تعالى وإن تيسّرَ شيءٌ منها فبتيسيرِ الله تعالى.

فتكونُ الجوارحُ والظواهرُ متحركةً في السبب بأمرِ الله تعالى والباطنُ ساكنٌ لوعد الله عز وجل: قال تعالى: "ومنْ يتوكلْ على اللهِ فهو حسبُه". "وعلى الله فتوكلوا إنْ كنتم مؤمنين".



نمـــاذج رائعـــة

ينبئُكَ طلوعُ الشمسِ أنَّ النهارَ موجودٌ، ويشعرُكَ حفيفُ الأغصانِ عن وجودِ نسمةٍ خيرةٍ تداعبُ الجوَ فتضفي عليه صفاءً ونعومةً، والحديثُ عن الصالحينَ يستشعرُكَ بوابلٍ هطّالٍ عن معينِ الحرارةِ الإيمانيةِ، ويداخلُ قلبكَ روعةٌ لا توصفُ ولا تكتبُ، إذْ هي لذةٌ تفوقُ لذةَ الشرابِ من العسلِ، وتزدانُ نضارةً عجزَ كثيرٌ من الناسِ تذوقَها، إذ شعورُ القلبِ لا تسطرُه العبارةُ، ولا تبينُه الإشارةُ.

وسأضربُ لكَ أمثلةً رائعةً عن بيانِ القصدِ والمرادِ.

نموذجاً أولاً:

إنَّ كثيراً من العلماءِ تحدثوا عن العَالِم الزاهد، والصوفي المتفننِ الشيخ أبي الحارثِ المحاسبي.

تحدثُوا عن علمِه ومعرفتِه، وصلاحِه وزهدِه، وأنَّه صاحبُ خصائصَ جمةٍ، ومواهبُ مُكْرَمةٍ، حتى قال العلامةُ المناويُ في ترجمةِ المحاسبي من الكواكبِ الدريةِ في تراجم السادةِ الصوفيةِ قال التميميُ: هو إمامُ المسلمينَ في الفقهِ والتصوفِ والحديثِ والكلام.

وقال غيرُهُ عنه: له المصنفاتُ النافعةُ الحجةُ بحيثُ تبلغُ مائتي مؤلفٍ، وناهيكَ بكتابه الرعاية، وكتبه في هذهِ العلومِ أصولٌ لمن صنَّفَ فيها.

قال في الإحياء المحاسبي خيرُ الأمة في علمِ المعاملةِ، وله السبقُ على جميعِ الباحثينَ عن عيوبِ النفس، وآفاتِ الأعمالِ وسيء أغوارِ العبادات، وكلامُه جديرٌ بأنْ يُحكى على وجهِه.

وهذا الثناءُ الحسنُ، والمديحُ اللامعُ منقبةٌ عظيمةٌ لا يكتسبُها امرؤٌ إلا إذا كملَتْ نفسُه، و توافرتْ فيها شروطٌ خصوصيةٌ ربانيةٌ.

لقد حكى الحافظُ أبو نعيمٍ والخطيبُ البغداديُ والشيخُ القشيري: أنَّ الشيخَ الجنيد وهو تلميذُ الحارثِ المحاسبي قال: كان الحارثُ كثيرَ السفرِ سيءَ الحالِ شديدَ الفقرِ، واجتازَ بي يوماً وأنا جالسٌ على بابِنا فرأيتُ على وجهِه زيادةَ الضرِ من الجوعِ، فقلتُ له: يا عمِ لوْ دخلتَ إلينا نلْتَ من شيءٍ عندنا ؟ قال: أوتفعلُ؟ قلتُ نعم وتسرُّني بذلك، فدخلتُ بين يديهِ ودخلَ معي، وعمدتُ إلى بيتِ عمي سريعاً وكانَ أوسعَ من بيتِنا لا يخلو من أطعمةٍ فاخرةٍ لا يكونُ مثلُها في بيتِنا فجئتُ بأنواعٍ كثيرةٍ من الطعامِ، فوضعتُه بين يديهِ فمدَّ يدَهُ وأخذَ لقمةً فرفعها إلى فيه، فرأيتُه يلوكُها ولا يزْدَرِدُها ـ أي لا يستطيع بلعها ـ فوثبَ وخرجَ وما كلمني.

فلما كانَ من الغدِ لقيتُه فقلت: يا عمِ سررتَني ثم نغصتَ عليَّ، قال يا بُنيَّ أما الفاقةُ فكانتْ شديدة، وقد اجتهدتُ في أنْ أنالَ من الطعامِ الذي قدمتَه إليَّ. ولكن بيني

وبينَ اللهِ علامةٌ: إذا لم يكنِ الطعامُ مَرْضِياً - بأن كان فيه شبهةٌ - ارتفعَ إلى أنفي منهُ زفرةٌ فلمْ تقبلْهُ نفسي، فقد رميتُ تلكَ اللقمةَ في دهليزِكم وخرجتُ.

زاد القشيري عن الجنيد ثم قلت له:

تدخلُ اليومَ فقال: نعم، فقدمتُ إليه كِسراً يابسةً كانتْ لنا، فأكلَ وقال: إذا قدمتَ إلى فقيرٍ شيئاً فقدمْ إليه مثل هذا.

أيها القارئُ الكريمُ، أستحلفُك باللهِ تعالى، هل يدركُ هذا العلم بكتابٍ، أو يُنالَ بمعرفةٍ، أو يُتَوصلَ إليه بدرسٍ أو دراسةٍ، وهل من الممكن ذلك.

إن كثيراً من الناسِ لم يدركوا فهمَ هذا المعاني، ولم توصلْهم أفكارُهم إلى حلِّ رموزِ هذه الخصائصِ فرفضُوها وأنكروها وجرّوا لأنفسهم اللومَ والمعارضة، فأصبحوا في المجتمع أهلَ أدعاءٍ من غيرِ دليلٍ يحملونَه فشذوا وأغروْا كثيراً من الناسِ فأطاعوهُم واتبعوهُم.

نموذجاً ثانياً:

وورد في الحديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم لوابصة بن بصير الأسدي رضي الله عنه "إستفتِ قلبَكَ وإنْ أفتاكَ المفتُونَ" .

وإنما قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هذا الكلامَ لوابصةَ رضي الله عنه لِما عَرَفَ من حالِه ومتانةِ قلبِه وفهمِه وقوةِ ذكائِه وأنَّه أصابَه التنويرُ وحسنُ التدبيرِ .

حيثُ أحالَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على الإدراكِ القلبي وعَلمَ أنَّه يُدْرِكُ ذلكَ من نفسه .

إذْ لا يُدرِكُ ذلكَ إلا مَنْ كانَ متصفاً بهذه الصفاتِ الطيبةِ العاليةِ . وهذا دلالةٌ منه صلى الله عليه وسلم على الالتفاتِ إلى قلبِ وابصةَ والحكمِ بصفائِه والعنايةِ به، لحديث "إن في الجسد مضغة" .

إما أنْ يأتي مَنْ يتصفُ بغلاظةٍ في الطبعِ وضعفٍ في الإدراكِ وبُعْدٍ عن الفهمِ ويدّعي أنه يستفتي قلبه ويتركُ ما ينبغي التعلمُ منه، والأخذُ عنه، فهذا محضُ جهل "وقالية الأثَّا في" فهذا لا يَتحصَّلُ منه شيءٌ ولا يُفيدُ ولا يستفيدُ مطلقاً.

والرسولُ صلى الله عليه وسلم كان يقولُ أمثالَ هذا الكلامِ مخاطباً أصحابه الكرامِ رضي الله عنهم على قدرِ عقولهم وأفهامهم، ووابصةُ رضي الله عنه من أولئك الكرامِ أصحابِ القلوبِ النيرة.

ولما كان للقلبِ أهميةٌ رائعةٌ في طريقِ أهلِ اللهِ رضي الله عنهم كما هو الحالُ دوماً، وتأسياً بقولِ الله تعالى: "إنَّ في ذلكَ لذكرى لمنْ كانَ له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيدٌ".

فقد ذُكِرَ عن سيدِنا علي بن أبي طالبٍ رضي الله عنه أنَّه كان يقول: إنّ للهِ في أرضِهِ آنيةً، وإنَّ من آنيتِه فيها القلوبُ، فلا يُقبَلُ منها إلا ما صَفِيَ وصَلُبَ ورَقَّ.

قال أبو الحارث المحاسبي:

ومعنى ذلك: أنْ يصفى القلبُ لله عز وجل باتباعِ أمرِهِ ونهيِهِ ومشاهدةِ الصدق والإشفاق. أي على جوارحِهِ. وصفَّاهُ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم بقبولِ ما أتى به قولاً وعملاً ونيةً، وصفّاهُ للمذنبينَ بكشفِ الأذى عنهم وإيصالِ النفع لهم.

وعلى المرءِ الذكيِ التنبهُ أنْ لا يميلَ مع الخواطرِ التي تجولُ في نفسِهِ وتتحركُ في خلجاتِهِ وقلبِهِ، وتتعلقُ في فكرِهِ وقلبِهِ، وترغبُ جوارحُهُ بأدائِها وتنفيذِها وفعلِها، إلاَّ إذا كانت هذه الخواطرُ موافقةً لرضاءِ الله تعالى وشرعِهِ وسنةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وفعلِهِ.

قال الإمامُ الجنيدُ رحمه الله تعالى:

لقد تَرِدُ النكتةُ. أي الخاطرُ. على قلبي لا أقبلُها إلا بشاهدَي عدلٍ من الكتابِ والسنةِ.

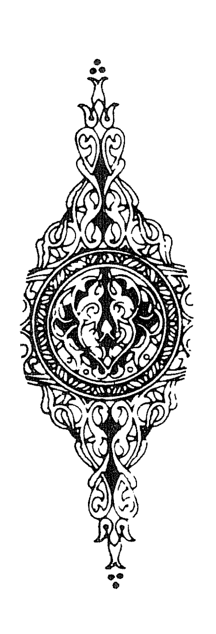
وقد سمعت من شيخنا الشيخ محمود الرنكوسي رحمه الله هذه الأبيات نقلها عن شيخه الشيخ بدر الدين الحسني المحدث الصوفي:

قال:

لا تغترر برجلٍ يطيرُ	ولا فوقَ ماءِ البحرِ قد يسيرُ
ما لم يقفْ على حدودِ الشرعِ	فذلكَ مُسْتَدْرَجٌ وبِدعِ
والشرعُ ميزانُ الأمورِ كلِها	وحاصلٌ لأصلِها وفرعِها
هذا زمانٌ كثرتْ فيه البِدعْ	واضطربتْ فيه أنواعُ الخدعْ
لم يَبْقَ من دينِ اللهِ إلا اسْمُه	ولا مِنَ القرآنِ إلاَّ رَسْمُهُ

والعارفُ بالله الشيخ أبو الخير الميدانيّ رضي الله عنه كان يقول: ليس الوليُّ الذي يمشي على الماءِ لأنَّ السمكَ يشاركُنا في ذلك، وليسَ الوليُّ الذي يطيرُ في الهواءِ لأن العصفورَ يفعل ذلك، ولكن الوليُّ هو الذي يصبرُ على أذى الناسِ، قال تعالى "وجعلنا بعضَكم لبعْضٍ فتنةً أتصبرُون".

فإذا أمعنا النظرَ في لوامعِ هذهِ الكلماتِ، وروائعِها ومضامينِها وصفائِها وما احتوتْ من صفاءٍ ووفاءٍ نعلمُ علمَ اليقينِ أنّ هذه الخصوصياتِ وهذا السماتِ لا تنالُها العباراتُ ولا تسطرُها الكلماتُ، بل هي خصوصياتٌ ربانيةٌ يقذفُها الباريءُ جلّ جلالُه في قلوبِ أوليائِه وأصفيائِه وأحبائِه.



نموذجاً ثالثاً:

قال الشيخُ تاجُ الدينِ ابنِ السبكي في طبقاتِ الشافعيةِ الكبرى ٥/١٠٩/ في ترجمةِ الحافظِ زكي الدينِ عبدِ العظيم المنذري الامامِ الورعِ الزاهدِ الصالحِ صاحبِ كتابِ الترغيب والترهيب:

سمعتُ أبي يحكي عن الحافظِ الدمياطي أنَّ الشيخَ المنذريَّ خرجَ من الحمام مرةً وقد أخذَ منهُ حرُها، فما أمْكَنَه المشيُ فاسْتَلْقى على الطريقِ إلى جانبِ حانوتٍ، فقال له الحافظُ الدمياطي: يا سيدي أنا أُقْعِدُكَ على مسْطبةِ الحانوتِ ـ وكان الحانوتُ مغلقاً ـ فقال له الشيخُ المنذريُ وهو في تلكَ الشدةِ: بغيرِ إذنِ صاحبه كيف يكونَ؟ وما رضيَ.

بعد هذا هلْ يجوزُ لمن أباحَ لنفسهِ أنْ يتناولَ أهلَ القلوبِ وأهلَ الدرايةِ والرعايةِ بشيء من الإتهامِ والظنِ ويكيلَ لهم الإتهاماتِ الواهية.

واعتقادي أنه ما حَكَمَ عليهم واتهمَهُم وحمّل نفسَه مغبةَ المحاسبةِ يومِ القيامةِ إلا لجهلهِ بتلكَ المبادئِ لأنه لم يعلمْ سرَ حقيقتِهم وخصوصيتهم من الله.

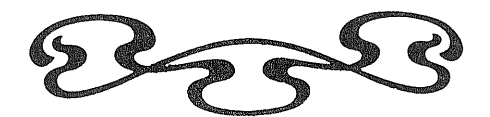
نموذجاً رابعاً:

قال الشيخ مرتضى الزبيدي في شرح الأحياء ٧/٥٦٦ في بحث جواز غيبة الفاسق: انّ ذكر الفاسق بما فيه ليحذره الناس مشروطٌ بقصد الاحتساب وإرادة النصيحة دفعاً للإغترار به، فمنْ ذكر أحداً من هذا الصنف تشفياً لغيظه، أو انتقاماً لنفسه أو نحوَ ذلك من الحظوظ النفسانية فهو آثمٌ صرّح بذلك تاجُ الدين السبكي عن والده تقي الدين السبكي.

قال تاجُ الدين: كنتُ جالساً بدهليز دارنا فأقبل كلبٌ فقلتُ إخسأ كلبُ بنُ كلبٍ فزجرني الوالدُ من داخل البيت، فقلت أليسَ هو كلبُ بنُ كلب؟ قال شرطُ الجوازِ عدمُ قصدِ التحقير، فقلت هذه فائدة.

ومن هنا يُعلَمُ مدى يقظة هؤلاء الرجال القدوة في ضبط نفوسهم والحرص على صيانتها أنْ تضل أو تزلَ.

وقد يتبادر للذهن أنّ هذا الحيوان هو كلبٌ بن كلب وهذا أمرٌ واقعٌ ولكن
حتى يجرد النفوس عن هذه الحظوظ والإمتهان والتحقير.



نموذجاً خامساً:

قال الإمامُ ابنُ جريرٍ الطبري في تاريخِه في حوادثِ سنة ١٦ من الهجرة لما هبطَ المسلمونَ المدائنَ وجمعوا الأقباض. الغنائمَ. أقبلَ رجلٌ يحملُ وعاءً كبيراً مملوءاً من الجواهرِ والتحفِ، فرفعه إلى صاحبِ الأقباض، فقال الذين معه: ما رأينا مثلَ هذا قطُ؟ ما يعدلُه ما عندنا ولا يقاربُه فقالوا: هل أخذتَ منه شيئاً فقال: أنا واللهِ لولا الله ما أريتُكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً فقالوا: مَنْ أنتَ فقال: لا واللهِ لا أخبرُكم لتحْمَدوني، ولا غَيْرَكم ليُقَرِظُوني، ولكني أحمدُ اللهَ وأرضى بثوابِه.

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابِه فسألَ عنه فإذا هو عامرُ بنُ عبدِ قيس.



نموذجاً سادساً:

قال ابن قتيبة الدينوري في عيون الأخبار:

حاصر مسلمة بن عبد الله حصناً وكان في ذلك الحصن نقبٌ ـ ثقبٌ في الحائط ـ فندب الناس إلى دخوله، فما دخله أحدٌ فجاء رجل من عرض الجيش ـ أي من عامته ـ غير معروف فدخله ففتح الله عليهم الحصن فنادى مسلمة أين صاحب النقب؟ فما جاء أحدٌ فنادى الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فجاء رجلٌ إلى الآذن فقال: أستأذنُ لي على الأمير فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه، فأتى الآذن إلى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له فقال الرجل لمسلمة: إنّ صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً، ألا تسوّدوا ـ أي لا تكتبوا اسمه في صحيفة الخليفة ـ ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟ فكان مسلمة بعد هذه الحادثة لا يصلي صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب.

وهذه النماذج الرائعة التي قلّ مثيلها وندر نظيرها، لا تكتسب اكتساباً، ولا تُدرس في كتاب، ولا تُعلم في مدرسة، بل تلك خصوصية يخص الله بها من يشاء من عباده وأصفيائه وأوليائه.

الفضيل بن العياض
نموذج ومثال الصوفي

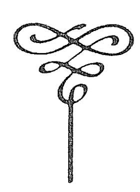
بعد هذه العجالةِ التي قد انطوتْ، والخلاصةُ التي قد مرتْ، أضعُ بين ناظريْكَ نموذجاً واحداً من مئاتِ النماذجِ التي في بطونِ الكتبِ وأمهاتِ المراجعِ كالحلية، والطبقات. . . .وغيرهم.

وقد أخترت لكَ معْ ما ذكرتُ في صفحات غابرة، واحداً من الرجالاتِ الكُمَّلِ، وصرحاً من صروحِ التصوفِ وقدوةً من قدواتِ أهلِ الله، ومنارةً من منائرِ الرقةِ والنورِ والأدبِ والأخلاقِ والنصحِ والصفاءِ والوفاءِ والزهد . . إنه الفضيلُ بن العياض . .

من هو الفضيل بن العياض

هو أبو علي، الفضيلُ بنُ العياض، الذي أكرمه الله عز وجل بكرامات عدةٍ، فطهّر قلبه وجوارحه، حتى أصبح ينظرُ بفراسةِ المؤمن، ويستضيءُ بنور الله تعالى حيث كان صحيحَ الحديث، صدوقَ اللسان، شديدَ الهيبة في روايته ودرايته، لما فيه من التبعةِ، وكان وعظُه مؤثراً، ونصحُه بليغاً، وهيبتُه رائعة.

فقد كان فقيهاً عالماً ورعاً مرشداً فريداً تفقه فعرف نفسه حيث الفقهُ سببٌ لذلك، فصحتْ له العبوديةُ لصدقِه فترك دنياه تعلقاً بالآخرةِ، وترك الشهواتِ رجاءَ نيلِ الخيرات، فقد زرع رقةَ وروعةَ الإيمانِ في أرض قلبه الطيبةِ الرطبةِ، بعدَ أنْ حرثها بوابلِ الإخلاصِ وسقاها بماء المراقبةِ والتوكلِ فأنتجتْ ثمارَ العلمِ والحقِ واللينِ والرحمةِ، فاغدقتْ ثمارُها وعمَّ خيرُها وبرُها ونفعها.

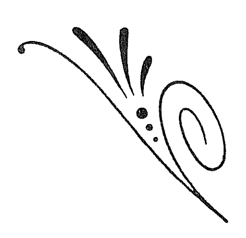


ومن وصيته البالغة

سأله رجلٌ قائلاً أوصني: قال لا تجعلِ الرجالَ أوصياءك "يقصد لا تُوصي بعملٍ ما بعدَ الموتِ، بلِ اعمله في حياتِك "فكيفَ تلومُهم إذا ضيّعوا وصيتَك (حالةَ موتك) وأنتَ قد ضيعتَها في حياتِك، وأنتَ بعدَ هذا تصيرُ إلى بيتِ الظلمةِ والوَحْشَةِ، حيثُ هو عليكَ، إمّا روضةٌ من رياض، الجنة، وإمّا حفرةٌ من حُفَرِ النّار، ثم بكى الفضيلُ وقال أعاذنا اللهُ من النّار.

وقد اشتهرَ رحمهُ اللهُ بأنّهُ الناصحُ والمرشدُ والموجهُ الصادقُ في دعواه. لكثرةِ نصْحِهِ وشفقتِهِ على المسلمين عامةً وعلى الأمراءِ خاصةً، حيث كانَ يعظُهم، ويذكرُهم بالأمانةِ الموكولةِ إليهم.

ومع هذا كلِهِ فقد أحَبُّوه وأكرموه إلا أنّه كان زاهداً تمّاً في أيديهم وفي دنياهم.



قوة تسليمه لله تعالى

للفضيل نهجٌ غريبٌ فريدٌ، حيث كان يعيش في باب التسليم المطلق لله تعالى، حتى قال أبو علي الرازي، صحبتُ الفضيل ثلاثين سنةً ما رأيتُه ضاحكاً ولا مبتسماً، إلا يوم مات ابنُه، فقلتُ له في ذلك فقال: إن الله أحبَّ أمراً فأحببتُ ذلك.

من هنا نرى أن قوةَ التسليم لأمور الله التي كان يملكُها، قلَّ أنْ توجد عند من تسنم سدةَ التصوف.

وهذا أخذه من قولِه تعالى: "وما كان لمؤمنٍ ولا لمؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمراً أن يكونَ لهم الخِيرةُ من أمرِهم".

وهذا مقامٌ رفيع، وبابٌ من أبواب الرِضا عظيم.

"ما شاءَ اللهُ تعالى كانَ وما لمْ يشأْ لم يكنْ".

إنَّه الشخصيةُ الفذةُ التقية، فقد كان مِثالاً في العبادات يُحتذى، ونموذجاً رائعاً في التوكلِ يُقتفى، ورجل ثباتٍ في العلمِ والزهدِ والنصحِ به يُهتدى، وقد جمعَ الكمالَ من أطرافِه، والرقةَ من جوانبِها، بيدَ أنَّه كان ناصحاً للأمراء، مرشداً للرؤساء، شفوقاً رحيماً على صلاحِهم وتقواهم لكي ينالوا الدرجةَ العُليا في الدنيا والآخرة.



وإني أسوقُ إليكَ قصةً كما سمعتُها من شيخِنا الشيخ محمود الزنكوسي رحمَه اللهُ ذكرَها عن الفضيلِ بن العياض رحمه الله .

قال: روى أن هارونَ الرشيد، ضاقَ صدرُهُ مرةً وهو في مكةَ المكرمة فقال لوزيرِهِ الربيع: خذني إلى رجلٍ يثْلجُ صدري، ويريحُ نفسي، فأخذَهُ عند اثنين، قال: ما أغنى عني صاحباكَ شيئاً، فأتيا بابَ الفضيلِ بن العياض رضي اللهُ عنه، فطرق الربيعُ البابَ فقال: من في الباب . قال الربيع: أميرُ المؤمنين، ووزيرُهُ الربيع، قال ما لي ولأمير المؤمنين: قال سبحان الله . . أليسَ عليكَ طاعتُه قال بلى، فأطفأ الفضيلُ السراجَ وفتحَ البابَ، فدخل هارونُ الرشيد ومعه وزيرُهُ الربيع يتحسسانِ الغرفةَ، إلى أنْ وقعتْ يدُ هارونَ الرشيدِ على رأسِ الفضيلِ قبلَ يدِ الربيع، فأخذَها الفضيلُ وقال: سبحانَ اللهِ ما أَلْيَنَ هذه الكفَ لو نجتْ من عذابِ اللهِ يوم القيامة، فأخذت الكلمةُ بمجامعِ قلب هارون الرشيد ثم قال الربيع إن أميرَ المؤمنين، ضاقَ صدرُهُ وأتى حتى يسمعَ منكَ ما يثلجُ صدرَهَ، فقال يا أميرَ المؤمنين:

لقد وُلّيتَ أمراً عظيماً، وإني ما رأيتُ أحسنَ منك وجهاً، فإن استطعتَ أن لا تُسَوِّدَ هذا الوجهَ بلفحةٍ من النارِ فافعلْ . . فاهتزَّ قلبُ هارونَ وَجِلاً .

فقال هارونَ الرشيد : عِظْني قال: هذا كتابُ اللهِ تعالى بين الدفَّتينِ انظرْ ماذا عملَ بمن أطاعه، وماذا عملَ بمن عصاه .

يا أميرَ المؤمنين إن جدكَ العباس سألَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم الإمارةَ فقال له: يا عمّ نفسٌ تُحْيِيها خيرٌ لك من إمارةٍ لا تُحْصِيها، الامارةُ حسرةٌ وندامةٌ يومَ القيامة .

يا أميرَ المؤمنين كيفَ بكَ إذا سألكَ اللهُ يومَ القيامةِ عمَّن ولاَّكَ عليهِ وأنتَ مغلولٌ لا يَفُكُّكَ إلا العدلُ أو يوبقُك الجورُ .

يا أميرَ المؤمنينَ إنَّ اللهَ تعال سيسألُ يومَ القيامةِ كلَ إنسانٍ عن نفسِه وأنتَ يسألُك عن الأمة كلِها .

يا أميرَ المؤمنين إن عمرَ بنَ الخطابِ قال لو كُسِرتْ رِجْلُ شاةٍ على ظهرِ الكوفةِ لكانَ عمرُ مسؤولاً عنها يوم القيامة يقال له: لِمْ تصلحْ لها الطريقَ يا عمر.

فنظر الربيعُ إلى هارونَ الرشيد فرآه يبكي فقال للفضيلِ ارفقْ بأميرِ المؤمنين.

فقال الفضيل: يا أميرَ المؤمنين.. إحذرْ أمثالَ هؤلاءِ فإنَّهم يريدونَ أن يتخذوكَ سُلَماً لشهواتهم.

فسكت الربيعُ ولم ينبث ببنت شفة.

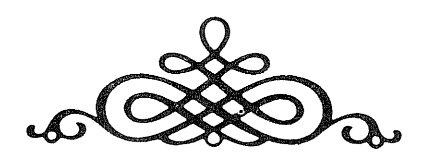
ثم قال هارونُ الرشيد هل عليك دينٌ حتى أقضيه عنك قال نعم: عليَّ دينٌ لربي والويل لي إن حاسبني عليه. فقال، ليس عن هذا أسألك ولكن أسألُك عن دينِ العبادِ قال الفضيل إن الله تكفَّل لنا بذلك فقال:

"وما خلقت الجنَّ والإنسَ إلا ليعبدونِ ما أريدُ منهم من رزقٍ وما أريدُ أن يُطْعِمونِ إنَّ اللهَ هو الرزاقُ ذو القوةِ المتين".

فودّع هارونُ الفضيلَ وهو مرتاحُ النفس طيبُ الخاطرِ من هذه النصيحة، فقال لوزيره الربيع إن أخذتَني فخذْني عند أمثال هؤلاء .

رحم الله أولئك الرجال العبّاد الصالحين .

وهذا لونٌ آخر من ألوانِ المشاعرِ النفسيةِ التي تدلُ على حسنِ جوهرِ القلبِ والنفسِ، وتحدثُ في الحياةِ والقلبِ والروحِ روائعَ الفكر وفضائلَ العمل، ومحاسنَ الصفات ودقائقَ الإخلاص والتفكر في المعاد والآخرة، ولقاءَ الله تبارك وتعالى .



مـــن أقـــوالـــه

كان رضي الله تعالى عنه يقولُ:

عاملوا اللهَ تعالى بالصدقِ في السرِ، فإن الرفيعَ مَنْ رفَعَه اللهُ، وإذا أحب الله عبداً أسْكنَ محبتَه في قلوبِ العباد .

وكان يقول: العالمُ عالِمانِ، عالمُ دنيا، وعالمُ آخرة، فعالمُ الدنيا علمُه منشورٌ، وعالمُ الآخرةِ علمه مستورٌ.

فاتبعوا عالمَ الآخرة، واحذروا عالِمَ الدنيا .

فالغبطةُ من الإيمان، والحسدُ من النِّفاق . والمؤمن يَغبِطُ ولا يحْسدُ والمنافق يَحْسدُ ولا يَغْبِط، والمؤمنُ يسترُ ويعظُ، وينصحُ، والفاجرُ يهتكُ ويُعَيِّرُ ويفشُ .

لقد كان رحمه الله قليلَ الكلام كثيرَ العمل، وكان يقول: المؤمن قليلُ الكلامِ كثيرُ العملِ، والمنافقُ كثيرُ الكلامِ قليلُ العمل.

كلامُ المؤمن حِكَمٌ، وصمتُه فِكرٌ، ونظرُهُ عِدةٌ، وعملُه برٌ، وإذا كانَ المرءُ كذلكَ فهو في عبادهِ.

إن اللهَ يَقسِمُ المحبةَ كما يقسِمُ الأرزاق، وكل ذلك من اللهِ تعالى.

إياكمْ والحسدَ، فإنه ليس له دواء.

من عاملَ اللهَ بالصدقِ أورثه اللهُ تعالى الحِكمةَ.

إذا ظهرتْ الغيبةُ ارتفعتِ الأخوةُ في الله.

ومَثلُ مَنْ كانَ كذلكَ كمثلِ شيءٍ مطلي بالذهبِ والفضةِ داخلُه خبيثٌ وخارجُه حسنٌ.

سيكون في آخرِ الزمانِ اقوامٌ يكونونَ إخوانَ العلانية، أعداءَ السريرة، وإنّي لا أعتقدُ إخاءَ الرجلِ في الرضا، ولكن أعتقدُ إخاءَه في الغضبِ إذا أغضبتَه.

وإذا لم تداومْ على قيامِ الليلِ وصيامِ النهارِ فاعلمْ أنَّكَ محرومٌ مُكبَّلٌ، كبلتْك الخطيئةُ.

نردُّ على ذلك أنَّهُ لم يغترَّ بالمدحِ والثناءِ خشيةَ الغرورِ والتعالي، لأن هذا الطريق هو طريقُ الأبرارِ الذين وصلوا إلى الكمالِ النفسي والرضا الأُنسي، يحوطُ ذلك كلَه الإخلاصُ في الصدق والمراقبةِ الذاتيةِ الرائعةِ، إلى مقامِ الإحسان "أن تعبدَ اللهَ كأنكَ تراهُ فإنْ لم تكنْ تراه فإنَّهُ يراكَ".

صفة الصوفي

يقول ابراهيم بن الأشعث:

ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل، كان إذا ذكر الله او ذُكِر عندَه، أو سمعَ القرآن، ظهر به من الخوف والحزن، وفاضتْ عيناهُ وبكى حتى يرحمه منْ بحضرته، وكان دائم الحزن شديد الفكرة.

ولقد سأله رجلٌ عن حاله فقال في عافيةٍ، فقال كيف حالُك فقال عن أي حال تسأل؟

إن كنتَ تسألُ عن حالِ الدنيا، فإن الدنيا قد مالتْ بنا وذهبتْ بنا كلَ مذهبٍ.

وإن كنتَ تسألُ عن حالِ الآخرة فكيف ترى حالَ من كثرت ذنوبُه، وضَعُفَ عملُه وفنى عمرُه ولم يتزودْ لمَعادِه، ولم يتأهبْ للموتِ، ولم يخضعْ له أو يستعد.

وفـــاتـــه

مرضَ أبو عليٍ الفضيلُ بنُ العياض رضي الله عنه مرضاً شديداً . وفي مرض موته كان آخرُ كلامِه يا رب ارحمني بحبي إياك، فليسَ شيءٌ أحب إلي منك .

وقال ربِ مسَّني الضرُ وأنتَ أرحمُ الراحمين .

ارحمني فإنك بي عالمٌ، ولا تعذبْني فإنَّك عليَّ قادرٌ .

توفي سنة ١٧٨هـ "سبعَ وثمانين ومائة" بمكةَ المكرمة في شهرِ محرمِ بعدَ أنْ ملأَ الدنيا حِكَماً وروحاً صادقةً .

رضيَ اللهُ عنه ورَحِمَه، وأكرمَنا في عصرِنا بأمثالِه اللهم آمين .

أرأيتَ تلك الشفافية الكبرى، والنصيحة العظمى، والصفات الجياشة المليئة بوابلِ الصدقِ والحق، والنصح، والخوف من الله تعالى .

طريقتنا

العمل للآخرة الفاخرة الطيبة،

لمثل ذلك فليعمل العاملون،

إننا بأمثال هؤلاء نقتدي ونتبع،

على شرعنا أحكامُنا، تصوفنا صدقنا،

علمُنا عملُنا، إخلاصُنا ثباتُنا،

وثباتنا لآخرتنا، وحياتنا لطاعة ربنا،

هذه المبادىء التي نستلهم من خلالها المضي في طاعة الله وفي تربية المريدين الصادقين، وتوجيههم إلى المحاسن والمعالي والمحامد.

اللهم اجعلنا صادقين يا مولانا يا رب العالمين.



أعتقادنا في التوسل والإستغاثة وشد الرحال

بعضُ الناسِ - هداهم الله - يعظمونَ الأمورَ ويدعون بالويلِ والثبورِ، ويُقيمونَ الدنيا ولا يقعدونَها، ما هي هذه الطامةُ الكبرى، وأيةُ داهيةٍ كُبْرى وقعتْ وحلَّتْ حتى يقِفوا هذا الموقفَ، وأيَ رزءٍ أصابَ العالَمَ العربيَ والإسلاميَ حتى قلبوا ظهرَ المِجنِ، وجعلوها قاليةَ الأثافي، إنها قضيةُ التوسلِ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وقضيةُ الإستغاثةِ، وشد الرحالِ إلى المسجدِ النبوي، سبحانَ الله، سبحانَ الله العظيم، إنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فتحَ بابَ الإستغاثةِ على مِصْراعَيه، وبابَ الوسيلةِ على أرجائه، ألم يَقُلْ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لولا شيوخٌ ركع وأطفالٌ رُضَّعٌ وبهائمُ رُتَّعٌ لصُبَّ عليكم العذابُ صباً.

نقولُ: والمقصودُ الأحياءُ والأمواتُ من الشيوخِ والأطفالِ، إذ بسببِ بركةِ هؤلاءِ الشيوخِ ورحمةِ هؤلاءِ الأطفالِ والشفقةِ على البهائمِ مخلوقاتِ اللهِ. . أغاثنا اللهُ تعالى ببركتِهم ورحمتِهم والشفقةِ عليهم .

وهذا يتفقُ قطعاً مع ميزانِ التبركِ والتقربِ بالأعمالِ الصالحةِ إلى اللهِ تعالى، وأنها هي سببُ النجاةِ في الدنيا والآخرةِ قال اللهُ تعالى "جزاءً بما كانوا يَعْملون" .

وإنني ذاكرٌ لك أخي القارئ بعضَ الأمورِ التي أراها أدلة واضحة لجوازِ ذلك مطلقاً .

أولاً:

قال العراقي ومن أدلة جوازِ الإستغاثةِ ما رواهُ البخاريُ في صحيحِه من حديثِ ابنِ عباسٍ رضي اللهُ عنه أن النبيَ صلى اللهُ عليه وسلمَ ذكرَ في قصةِ هاجرَ أمِ اسماعيل عليه السلام أنَّها لما أدركَها العطشُ وولدَها جَعَلتْ تسعى في طلبِ الماء فسمعت صوتاً ولا ترى شَخْصاً فقالتْ: أغِثْ إنْ كانَ عندكَ غوثٌ . فلو كانتِ الإستغاثةُ بغيرِ اللهِ شِرْكاً

لَمَا ذكره رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ذلك لأصحابه ولم يُنْكِرهُ، ولَمَا نَقَلهُ الصحابةُ مِنْ بَعْدِه وذكره المُحَدِّثون.

ثانياً:

ما رواه البخاري في حديثِ الشفاعةِ أنَّ الخلقَ فيما هم في هَوْلِ القيامةِ استغاثوا بآدم . . . وكلهم يعتذرون فيأتونَ محمداً صلى الله عليه وسلم فيقول: أنا لها . الحديثَ، فلو كانت الإستغاثةُ بالمخلوقاتِ ممنوعة لما ذكرها النبيُ صلى الله عليه وسلم لأصحابه.

ثالثاً:

ومنها ما رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بإسناد صحيح عن عثمانَ بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضريراً أتى النبيَ صلى الله عليه وسلم فقالَ: ادعُ اللهَ أن يعافيَني فقال: إنْ شئتَ دعوتُ وإنْ شئتَ صبرتَ وهو خيرٌ لكَ قال: فدعاه فأمرهُ أنْ يتوضأَ ويُحْسِنَ وضوئه ويدعو بهذا الدعاء "اللهم إنِّي أسألكَ وأتوجهُ إليكَ بنبيكَ محمدٍ نبيِ الرحْمَةِ يا محمد إنّي أتوجهُ بكَ إلى ربي في حاجَتي لتُقْضَى اللهمَّ فَشفِعْهُ فيَّ . فعادَ وقدْ أبصرَ.

خامساً:

ما رواه الطبراني عن زيد بن عتبة بن غزوان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا أضلَّ أحدُكم شيئاً أو أراد عَوْناً وهو بأرضٍ ليس فيها أنيسٌ فليَقُلْ: يا عبادَ الله أغيثوني . . فإنَّ للهِ عباداً لا يراهم . والحديثُ روي بطُرقٍ شتى يعضد بعضُها بعضاً، رواه الحاكم بسند صحيح وبلفظ: حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إذا أفلتتْ دابَّةُ أحدِكم بأرضٍ فلاةٍ فلْيُنادِ يا عبادَ اللهِ احبسوا .

قال العراقي: ونُقِلَ عن عبدِ الله بنِ أحمدَ بنِ حنبلٍ قال سمعتُ أبي يقولُ حججتُ خمسَ حججٍ فضَلَلْتُ في إحداهنَّ الطريقَ وكنتُ ماشياً فجعلتُ أقولُ يا عبادَ اللهِ دُلُّونا على الطريقِ فلم أزلْ أقولُ ذلكَ حتى وقفتُ على الطريق .

فهل يَصِحُّ أنْ نتهمَ هذا الإمام الكبير أنه يطْلُبُ الدلالةَ على الطريقِ من غير الله جهلاً أو يطلبُ الإستدلالةَ مِنْ غيرِ صاحبِها، حاشا له أنْ يكونَ كذلكَ بل هناكَ ثُلّةٌ أخطؤوا الطريقَ وابتعدوا عن جادةِ التحقيقِ .

وقولُنا يا رسولَ الله: نعتقدُ أنَّ الذي ناديه يسْمعُ نداءَنا بإسماعِ اللهِ إيّاهُ بمحضِ قدرته، وأنَّ اللهَ تعالى لا غيرَهُ يقضي حاجتَه ببركةِ ذلكَ المنادى وأنَّ اللهَ تعالى يُنَجِّينا ويقضي حوائجَنا بجاهِ النبي صلى الله عليه وسلم وبركته .

سادساً:

قد ثبت في صحيح البخاري "أنّ الناس لما أُجدبوا استسقى عمرُ بالعباسِ وقال اللهمَّ إنّا إذا أجدبنا توسّلنا بنبينا فتسقينا وإنّا نتوسلُ بعمِ نبينا فاسقِنا فيسقَون.

أقول وما أنّ الناس في حياةِ النبي صلى الله عليه وسلم يتوسلون بدعائه وشفاعتِه لهم، كما يتوسلُ به النّاسُ يومَ القيامةِ ويستشفعونَ به إلى ربهم، فيأذنَ اللهُ له في الشفاعةِ فيشفعُ لهم.

فيجوز كذلك لهم أن يتوسلوا برسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ بعدَ وفاتِه وانتقالِه من الحياةِ الدنيا الفانيةِ إلى الحياةِ البرزخيةِ الباقيةِ، مع العِلْمِ أنه مما نعتقدُه يقيناً أنّ سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو حيٌّ في قبرِه حيثُ وردَ في الصحيح من الأحاديثِ أنّ الأنبياءَ أحياءٌ في قبورِهم، وحديثُ الرسولِ صلى الله عليه وسلمَ يومَ الإسراءِ أنّهُ رأى سيدنا موسى عليه السلام في قبرِه يُصلّي، فإذاً التوسلُ بهم توسلٌ بالأحياء ولكن حياةٌ برزخيّةٌ خاصّةٌ.

سابعاً:

قال النبيُ صلى اللهُ عليه وسلمَ "لولا ما في البيوتِ من النساءِ والذراري لأمرتُ بالصلاةِ فتقام، ثم أنطلقَ معي برجالٍ معهم حزمٌ من حطبٍ إلى قومٍ لا يشهدونَ الصلاةَ معنا فأُحرِقَ عليهم بيوتَهم".

فبسَببِ الشَفَقَةِ على النّساءِ، والرحمةِ للذراري، لم يُحرِّق رسولُ اللهِ صلَّى اللَّه عليه وسلَّم هذه البيوت، ولم يأمرْ رجالاً أن يجمعوا حطباً.

وقد قال سيدنا عيسى عليه السلام (واجعلني مباركاً أينما كنتُ) فبركات أولياء اللهِ الصالحينَ باعتبارِ نَفْعِهم للخلْق بدعائِهم إلى طاعةِ اللهِ وبدعائِهم للخلق. فمن أرادَ طلبَ الرحمةِ ودفعَ العذابِ بسببِهم فهذا حق وموجود ومن أرادَ البركةَ منهم وبسببِهم وكانَ صادقاً فقوله حق.

أقول: هذا هو المعنى الصحيحُ الذي تعتقدهُ الصوفيةُ، والمقْصدُ الحسنُ من التبركِ، ولا يوجدُ صوفيٌّ على وجهِ الأرض يقصدُ بتبركِه هذا الأشراكَ والعياذُ باللهِ، وكذلك نداؤه على قَصْدِ التبركِ بوليٍ من الأولياء أو بعملٍ من الأعمالِ، وإذا قصد ذلكَ فهذه عقيدةٌ تخالفُ

عقيدة أهل السنة والجماعة، ولم يقل بها أحدٌ من العلماء أو الأولياء، وإن ادّعاه أحدٌ أو نسبه إلى الصوفية فهذا افتراءٌ وكذبٌ ووضعُ الشيء في غير موضعه، بل أمرنا هذا كما ذكر الجنيد رضي الله عنه مقيدٌ بالكتاب والسنة قال تعالى "وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا" .

ثامناً:

قال السبكي والقسطلاني في المذاهب اللدنية والسمهودي في تاريخ المدينة وابن حجر في الجوهر المنظم إن الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام وبغيره من الأنبياء والصالحين إنّما هي بمعنى التوسل بجاههم والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يجعل له الغوث ممن هو أعلى منه، فالمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى والنبي واسطةٌ بين المستغيث وبين المستغاث به الحقيقي.

تاسعاً:

روى البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنّ الناس أصابهم قحطٌ في خلافة عمر فجاء بلال بن الحارث إلى قبر النبي وقال يا رسول الله استسق لأمّتك فإنّهم هلكوا فأتاه

رسولُ الله في المنامِ وأخبرَهُ أنَّهم يُسْقَوْنَ.

وروى البخاريُ في تاريخه وابن ماجه والحاكم في مستدركه بإسناد صحيح، وذكر الجلال السيوطي في الجامع الكبير والصغير أنَّ النبيَ صلى الله عليه وسلم أمرَ الرجلَ الضريرَ أنْ يُناديه ويتوسلَ بهِ إلى اللهِ في قضاء حاجته كما مر.

وأنَّ هذا الدعاء قد استعمَلَهُ الصحابةُ والتابعونَ بعدَ وفاتِه لقضاءِ حوائجِهم.

كحاجةِ الرجلِ الذي شكا حاجته لعثمانَ بنِ حنيف راوي الحديث، فعلَّمَهُ هذا الدعاء فقضى الله حاجتَه وهذا بعدَ انتقالِ رسولِ الله إلى الآخرةِ وهذا دليلُ التوسلِ والنداءِ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ وفاتِه وأنَّهُ حيٌ في قبرِه.

عاشراً:

إن التوسلَ برسول الله صلى الله عليه وسلم أثناء زيارته جائز وصحيح، والقائلونَ بالجوازِ الإمامُ النووي والقسطلاني والإمام الغزالي وهؤلاءِ من أهل الفضل والعلم والمعرفة

والعقيدة السليمة .

فقد قال الله تعالى: "ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيما" .

فقد علّق الله تعالى قبول استغفارهم باستغفاره عليه الصلاة والسلام .

وهذا صريح في الدلالة على جواز التوسل به صلى الله عليه وسلم والآية لا تتعلق بحياته فقط .

ولا يقال إنها نزلت في جماعة معينين وإن كانت كذلك فهي تعمّ بعموم العلة .

وقال العراقي: في قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة .

قال ابن عباس الوسيلة كل ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى . وهذا يدل على جواز التوسل والاستغاثة .

حادي عشر:

روى ابن ماجه بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ خرج من بيته إلى الصلاة فقال: "اللهم إني أسألك بحق السائلين وبحق ممشاي هذا إليك فإني لم أخرج بطراً ولا رياءً ولا سمعةً وخرجت إتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أنْ تُبعدني عن النار وأنْ تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلاَّ أنت" أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك .

ويذكر هذا الحديث من فضائل الأعمال والترغيب، فقد توسَّل النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: إني أسألك بحق السائلين عليك، وأمر أصحابه أنْ يدعوا بهذا الدعاء فيتوسلوا قبل توسله ولم يزل السلف من التابعين ومن تبعهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة ولم يُنْكر عليهم أحدٌ .

أخي القارئ المنصف أضع بين ناظريك هذه القواعد والمفاهيم الحقيقية في التوسل والاستغاثة لتكون نظرة واقعية لا تحتمل الشك لمن أراد أن يتذكر ويعتبر.

وقد جرت العادات أن من له حاجة من الحوائج قد يتوسل بوجيه فوقه جاهاً ورفعة، حيث هو أوجه منه، ثم يتوسل هذا الوجيه بمن هو أوجه منه إلى من يراد منه قضاء الحاجة، كما يتوسل إنسان من الرعية بالأمير، والأمير يتوسل بالوزير، والوزير يشفع عند السلطان، في قضاء حاجة ذلك الإنسان، وهذا لا ينافي عقيدة المسلم بتوكله على الله ولا ينافي ما في الحديث: إذا سألت فاسأل الله لأن الله تعالى أمرنا بالأسباب الظاهرة وهذا متعلق بالإنسان من حيث الفطرة، ولذا نحن نتوسل إلى الله الكريم بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي هو أشرف مخلوقاته وأحبهم إليه، وكذلك قد نتوسل بالأولياء في نادر الأوقات لقضاء الحاجات لكرامتهم عند الله تعالى.

كما أن الأولياء الكرام يتوسلون بالنبي المكرم صلوات ربي عليه فيشفع عند الله تعالى فيقبل المولى شفاعته وهذا كله لا يتعارض مطلقاً لا من قريب ولا من بعيد مع عقيدة المسلم، وما ذكرناه من بديهات الأمور.

خلاصة قضية التوسل بالأنبياء والصالحين

أيها القارئ المستبصر المنصف أعلم رحمك الله أنه قد توافق السوادُ الأعظمُ من علماءِ المسلمين أنّ التوسلَ بالنبي صلى الله عليه وسلم وبالأنبياءِ والصالحين بأيّ صيغةٍ جاءت سواءٌ دعوتَ الله به، أو بجاهه، أو بحرمته، أو بحقه، أو دعوت الوسيلةَ ليشفع، ويدعو في قضاء الحوائج، أو طلبتَ الحوائج من نفسِ الوسيلة. وبأيّ أسم سميتَ كلَ نوعٍ من هذه الأنواع فكلها في حقيقتِها توسلٌ بعضُها أولى من بعضٍ، والمقصدُ منها كلُها في قلوبِ الأمّةِ حتى في قلوبِ أجهلِ الجاهلين والجاهلات هو أن تتسببَ الوسيلةُ في قضاء الحاجةِ بشفاعتِه ودعائِه لربِه، ولا يعتقدُ أحدٌ مطلقاً أنه يجبُ على اللهِ شيءٌ، وإنما يتفضّلُ اللهُ به عليهم، بمَنْ كرامتُهُ عنده عظيمة، وكذلك لو سألتَ أجهلَ جاهلٍ عن مُرادِه من قولِه: يا نبيَ الله، أو يا وليّ الله اقضِ حاجتي مثلاً، لعلمتَ من جوابِه على البديهةِ أنه إنّما يريدُ بذلك أن تكونَ الوسيلةُ سبباً في

قضاءِ الحوائج من اللهِ تعالى بشفاعتِه ودعائِه، من قبيلِ الإسنادِ المجازي في إقامةِ السببِ وإرادةِ المسبِّب، وتوحيدُ المتوسِّلِ قرينةٌ على إرادتِه هذا المجازَ، وإن لم يعرفوا تسميتَه باسمِه الاصطلاحي، فهم بأيِّ لفظٍ خرجَ منهم إنما يطلبونَ الشفاعةَ والدعاءَ والتسببَ بأي نحوٍ مما أعطاه اللهُ له، مع اعتقادِهم الجازمِ أنّ ذلك راجعٌ إلى محضِ فضلِه تعالى، واعتقادِهم كذلك أنه تعالى هو الربُّ وحدَه والإلهُ المستحقُ للعبادةِ وحده، لا مانعَ لما أعطى ولا معطيَ لما منع، ولا يشاركُه أحدٌ في تأثيرٍ ولا في صفةٍ من صفاتِه الخاصةِ به. فأينَ في هذا عبادةُ غيرِ الله؟

بل إنّ ذلك عبادةٌ للهِ وتذلُّلٌ له تعالى ما دامَ هو الآمرُ بالوسيلةِ في كتابِ اللهِ وفي أحاديثِ رسولِه، صلى الله عليه وسلم.



كلام ابن الحاج في التوسل:

قال ابن الحاج في مدخله في فضل زيارة القبور، وهو معاصر لابن تيمية: "وأما عظيم جناب الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فيأتي إليهم الزائر ويتعيّن عليه قصدهم من الأماكن البعيدة، فإذا جاء إليهم فليتصف بالذل والانكسار، ويحضّر قلبه وخاطره إليهم وإلى مشاهدتهم بعين قلبه لا بعين بصره، ثم يثني على الله تعالى بما هو أهله، ثم يصلي عليهم ويترضّى عن أصحابهم، ثم يترحم على التابعين لهم ثم يتوسّل إلى الله تعالى في قضاء مآربه ومغفرة ذنوبه ويستغيث بهم ويطلب حوائجه منهم ويجزم بالإجابة ببركتهم، فإنهم باب الله المفتوح، وجرت سنته سبحانه وتعالى بقضاء الحوائج على أيديهم وبسببهم، ومن عجز عن الوصول إليهم فليرسل بالسلام عليهم، ويذكر ما يحتاج إليه من حوائجه ومغفرة ذنوبه وستر عيوبه، فإنهم السادة الكرام لا يردون من يسألهم ولا مَنْ توسّل بهم ولا مَنْ قصدهم ولا مَنْ لجأ إليهم.

قال: وأما في زيارة سيد الأولين والآخرين، فكل ما ذكر يزيد أضعافه، أعني في الانكسار والذل والمسكنة، لأنه الشافع المشفّع الذي لا تُردُّ شفاعته ولا يخيب مَنْ قصده، ولا مَنْ نزل بساحته، ولا من استعان، أو استغاث به، فمنْ توسل به أو استغاث به أو

طلبَ حوائجه منه فلا يردُّ ولا يخيبُ، لما شهدتْ به المعاينةُ والآثار. قال: وقال علماؤنا: إنَّ الزائرَ يشعرُ نفسَه بأنه واقفُ بين يديهِ عليه الصلاة والسلام كما هو في حياتِه، إذ لا فرقَ بينَ موتِه وحياتِه، أعني في مشاهدتِه لأمتِه ومعرفتِه بأحوالِهم ونياتِهم وعزائمِهم وخواطرِهم إلى أن قال:

فالتوسُّلُ به عليه الصلاة والسلام هو محَلُّ حطِّ كلِ أحمالِ الأوزارِ، وأثقالِ الذنوبِ والخطايا، لأن بركةَ شفاعتِه صلى الله عليه وسلم وعظمَها عندَ ربه لا يتعاظمُها ذنبٌ، فليستبشرْ مَنْ زارَه وليلجأْ إلى اللهِ تعالى بشفاعتِه ومن لم يعتقد ذلك فهو محروم مسكين.

اللهم إنّا نتوسلُ إليك بنبيكَ نبي الرحمة أن لا تحرمْنا شفاعته بحرمتِه عندك.

بعد هذا العرض وهذه الاستدلالات، وذكر ما كان يعتقده السلف هل يحق لمعترض أن يغمض عينيه، أو يلوك بلسانه ما ثبت لديه.

ولكن لا ضير إذ أن أهل الله تعالى منذ ولادتهم الروحية والصوفية، وأهل النقد يوجهون إليهم الوابل من التهم والقضايا، وهم مع هذا كله على طريقتهم سائرون، وعلى أذكارهم ووظائفهم محافظون.

ولن تستطيع أية هواجس، أو وساوس في يوم من الأيام أن تقضي أو تؤثر على هذه الحقائق الملموسة والمشاهدة. وقديماً قيل: من زرع الريح حصد الزوبعة، وهذا زمن التزاحم لا زمن التراحم.

فمآثر أهل الله رضي الله عنهم تبهر الأبصار، والمفاخرة بهم تزخر بها الأسفار.

وفي النهاية إن هذا ما يثير حفيظة الكثير من المنتقدين الذين لم يتلذذوا، ولم يدركوا هذه المعاني حيث فاقد الشيء لا يعطاها.

لذا نسجوا هالات من الضجيج، حول الصوفية ضجيجاً لا فائدة فيه، حتى انطبق عليهم القول أسمع جعجعة ولا أرى طحناً

فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم والقول نحن في بركة فلان

لقد حض الاسلام على العقيدة السليمة الخالية من الشوائب والكدورات، ونفى كل ما يتعارض معها، ولا يجوز في حال من الأحوال اعتماد عقيدة، أو نهج لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة أو اجماع، وقد درج الصحابة ومن بعدهم من التابعين أن يتبركوا بأثار النبي صلى الله عليه وسلم، وآثار الصحابة والتابعين، وهذا لكمال اعتقادهم في فضل هذه المجاورة الكريمة، والسيدة عائشة رضي الله عنها كانت تبحث عن مكانٍ وضعِ فمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإناء عندما يشرب منه، لتضع فمَها تبركاً بآثاره، حيث قال عليه الصلاة والسلام: من المروءةِ أن يشربَ الرجلُ من سؤرِ أخيه.

وأنا سأسوقُ في هذا البحث، وأذكر بعض ما ورد إلينا وتبرك الصحابة ومن بعدهم. حتى لا يأتي متبجحٌ أو معترضٌ أو منتقدٌ فيحكّمُ هواه، ولا يحكم النصوص الواردة فيتهم الناس بالشركِ، أو الفساد بالعقيدة، ومن أراد أن يعبد ثوباً أو أحجاراً أو شعراً، فيوجدُ من ذلكَ الشيءُ الكثير، وحاشا لمؤمنٍ مسلمٍ أن يسلكَ هذا الطريقَ المضل.

ولقد ورد في صحاحِ الأحاديثِ والسِّير، أنَّ صحابةَ رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يتبركون بماءِ وَضوئه صلى الله عليه وسلم، وبريقِه وبشعرِهِ وملابسِه وبُردتِه وما له تعلُّق به، ولم ينكرْهُ عليهم صلى الله عليه وسلم في حياتِه ولا أنكرَهُ الصحابةُ ولا التابعون بعد وفاته، بل فعلوه بأنفسهم.

وكان منْ لمْ يُصِبْهُ. من الصحابة. وَضوءُهُ صلى الله عليه وسلم أخذَ من بَلَلِ صاحبِه ودلَّك به ما استطاعَ من بدنِه.

وصحَّ عند البخاري وغيرِه أنهم ازدحموا على الحلاَّقِ عند حلْقِ رأسِه الشريفِ واقتسموا شعرَهُ.

وفي صحيح مسلم أنه لمّا حلق أعطى أبا طلحة شعرهُ وقال: اقْسِمهُ بينَ الناس.

وكان عندَ خالد بن الوليد رضي الله عنه شعراتٌ من شعرهِ صلى الله عليه وسلم وضعهنَّ في قلنْسوَةٍ له يلبسُها إذا تعذَّر عليه الفتحُ فلا يلبثُ أن يُسْرِعَ إليه الفرج.

وفي صحيح مسلم وشمائل الترمذي أنه صلى الله عليه وسلم إذا صلّى الغداةَ جاءَ خدمُ المدينةِ بآنيتهم فيها الماءُ فما يأتونه بإناءٍ إلا غمسَ يدَهُ الشريفة فيه ولا يردهم خائبين.

وأخرج ابن ماجه والترمذي وحسّنه عن امرأةٍ من الأنصار يقال لها كبشةُ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم دخلَ عليها وعندها قِرْبةٌ معلقةٌ فشربَ منها وهو قائمٌ، فقطعتْ فمَ القربةِ تبتغي بركةَ موضعِ فمِ رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانوا يستشفونَ بغُسالةِ ما ادخروهُ من ملابسه فيأتي الشفاءُ، وفي صحيح البخاري عن أسماءَ بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها أخرجتْ لهم جبةً لرسول الله

صلى الله عليه وسلم وقالت: هذه كانتْ عند عائشةَ رضي الله عنها ولمّا توفيتْ قبضتُها فنحن نغسلُها للمرضى يُستشفى بها .

وفي "الجمع بين الصحيحين" للحميدي قال عبد الله بن وهب: أرسلني أهلي إلى أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم بقدحٍ من ماءٍ فجاءتْ بجلجل من فضةٍ فيه شعرٌ من شعر النبي صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أصابَ الإنسانَ عينٌ أو شيءٌ بعثَ بإناءٍ إليها فخَضْخَضَتْ له فشربَ منه .

وفي "الشفاء" للقاضي عياض أنّ ابنَ عمر رضي الله عنه كان يضعُ يدَهَ على مَقْعَدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنبرِ ثم يضعُها على وجهِهِ وفي "طبقات ابن سعد" أيضاً رواية ذلك .

وكذلك روي عنه أنه كان يضعُ يدَهَ على رُمانةِ المنبرِ - وهي قطعةٌ من الخشبِ زُيِّن فيها المنبرُ - مكانَ يدِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمسحُ وجهَه .

وفي طبقات ابن سعد أيضاً: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خلا المسجد مسُّوا رمانة المنبرِ التي تلي القبرَ بميامنِهم .

وفي مصنف ابن أبي شيبة كان أصحابُ النبي صلى الله عليه وسلم إذا خلا لهم المسجد قاموا إلى رمانةِ المنبرِ القرعاء (أي الملساء) فمسحوها ودعوا .

وورد عن بلال وفاطمة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهم وغيرهم التبركُ بتُربةِ القبرِ الشريف .

ونقل الحافظُ القرافي أنّ أحمدَ بن حنبل أجازَ تقبيلَ قبرِ النبي صلى الله عليه وسلم .

وأنّ أحمدَ تبركَ بالشربِ من ماءِ غسلِ الإمام الشافعي بل روى ابن تيمية نفسُه تبرك أحمد بآثار الشافعي .

وفي "الحكايات المنثورة" للإمام المحدث الحافظ الضياء المقدسي أنّ الحافظَ عبد الغني الحنبلي أصيبَ بداءٍ أعْجَزَهُ علاجُه فمسحَ به قبرَ الإمام أحمد بن حنبل تبركاً فبرئ .

وفي "تاريخ الخطيب" أنّ الإمام الشافعي كان يتبركُ بغُسالةِ قميصِ الإمام أحمد وكان يأخذُ منها ما يمسحُ به وجهَه وأعضاءَه .

وفي "سير أعلام النبلاء" للذهبي ١١/٢١٢: "قال عبد الله بن أحمد : رأيت أبي يأخذُ شعرةً من شعرِ النبي صلى الله عليه وسلم فيضعُها على فيه يقبّلُها . وأحسبُ أني رأيتُه يضعُها على عينِه، ويغمسُها في الماء، ويشربُه يستشفي به . ورأيته أخذَ مَضَقَةَ النبي صلى الله عليه وسلم فغسَلها في جُبِّ الماء ثم شرب فيها قلت: أين المتنطّع المنكرُ على أحمد .

وقد ثبت أنّ عبدَ الله سأل أباه عمن يلمسُ رمانةَ منبرِ النبي صلى الله عليه وسلم ويمسُّ الحجرة النبوية . فقال: لا أرى بذلك بأساً . أعاذنا الله وإياكم من رأي الخوارج ومن البدع" .

وما حرص أبي بكر وعمر رضي الله عنهما على الدفْن بجواره صلى الله عليه وسلم إلا للتبرك به.

ومرجعُ هذا كله طلبُ البركة، وفيه توجُّهٌ إلى الله بما له تعلقٌ برسول الله صلى الله عليه وسلم وسائرِ أحبابه، وإذا صحَّ استنزالُ الرحمة بما هو منَ الجمادات لتعلقه من قربٍ أو بعدٍ بذاتِه الشريفة، وذواتِ أحبابِ الله يصحُّ التوسلُ بالأول بذاتِه الشريفة وذواتِ سائرِ أحبابه تعالى.

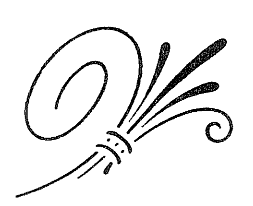
قال الخفاجي في شرحه للشفاء: إن هذا يدلُّ على جوازِ التبرك بالأنبياء والصالحين وآثارِهم، وبما يتعلقُ بهم، ولا عبرةَ بمن أنكرَ ذلك من جهَلةِ عصرِنا. وقَطْعُ عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه للشجرة التي وقعتْ عندها بيعةُ الحديبية إنما كان لقربِ عهدِ كثيرٍ من الناسِ يومئذٍ بالجاهلية، لا منعاً للتبركِ، إذ هو نفسُه رضي اللهُ عنه قد طلبَ أن يُدْفنَ بجوارِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رجاءَ أن تصيبَه بركةُ ذلك.

وبعد أن ذكرنا لك ما تقدَّم من آثارٍ فلا يجوزُ بعدَ ذلك أن يُنْهَى مَن يريدُ أن يتبركَ بأيِّ آثارٍ من آثاره صلى الله عليه وسلم، سواءٌ في مسجدِه أو منبرِه، أو فيما يتعلق به، أو بالصالحين أو بالأولياء.

فائدة أولى عن حديث ما من أحد يسلّم عليّ إلا ردّ الله إليّ روحي:

وحديث أبي داود وأحمد: "ما من أحد يسلّم عليّ إلا ردّ الله إليّ روحي"، أحسن ما يفسر معناه رواية البيهقي: "إلا وقد ردّ الله إليّ روحي"، فتكون الجملة حالية ومعناها كما فسّرها البيهقي "أنه صلى الله عليه وسلم بعد ما مات ودفن ردّ الله عليه روحه لأجل ردّ سلام من يسلّم عليه، واستمرت في جسده صلى الله عليه وسلم وذلك لأنه لو كان المراد هو تكرار مفارقة الروح لبدنه وتكرار رجوعها حين رد السلام لخالف ذلك القرآن إنه ليس إلا موتتان وحياتان.

قال الفاكهاني في كتابه "الفجر المنير فيما فضّل به البشير النذير"، حين أورد هذا الحديث قال: "إنّ الحديث يدل أنه صلى الله عليه وسلم حيٌّ على الدوام لأنه محال أن يخلو الوجود كله من واحد مسلّم عليه من ليلٍ أو نهار" اهـ.



فائدة ثانية عن الخرقة:

قال السيوطي رحمه الله في اللآلئ: وسئل القاضي تقي الدين بن رزين عن لبس الخرقة التي يتداولها الصوفية فأجاب قد تداولها السلف، ولم يثبت فيها نقل على شرط الصحيح، لكن يكفي فيها التبرك بآثار الصالحين، وآثارها صالحة في الغالب انتهى.

قال في التمييز ولم ينفرد الحافظ ابن حجر بهذا بل سبقه إليه جماعة، حتى من لبسها وألبسها كالدمياطي والذهبي والهكاري وأبي حيان والملائي والعراقي وابن الملقن والأنباسي والبرهان الحلبي وابن ناصر الدين، وذكرها في جزء مفرد فيها، وكذا غيره ممن توفي من أصحابنا.

قال في المقاصد وأوضحت ذلك كله مع طرقي بها في جزء مفرد، بل وفي ضمن غيره من تعاليقي مع إلباسي إياها لجماعة من أعيان الصوفية أمتثالاً لإكرامهم لي بذلك حتى تجاه الكعبة المشرفة تبركاً بذكر الصالحين واقتفاءً لمن أثبته من الحفاظ المعتمدين، انتهى.

وقال السهروردي لها أصلٌ في السنّة وهو أنه صلى الله عليه وسلم ألبس أم خالد خميصة سوداء ذات أعلام، انتهى.

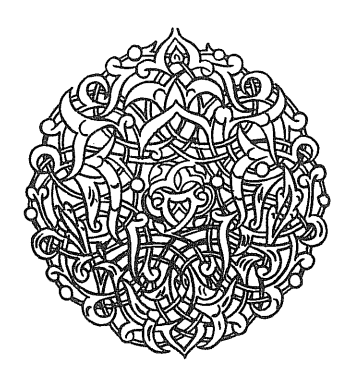
فائدة ثالثة في البركة:

وأما قول القائل: نحنُ في بركةِ فلان، أو مِنْ وقت حلولِه عندنا حلتِ البركةُ، فهذا الكلامُ صحيح، قياساً على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لولا شيوخ ركع وأطفال رضع وبهائم رتع لصب عليكم العذاب صباً"، فبركتهم وسببهم يرفع الله العذاب أحياناً عن الخلق، ولأنه يُرادُ بكلمة بركته أنَّهُ هَدانا وعلَّمنا وأمرَنا بالمعروف، ونهانا عن المنكرِ، فببركةِ اتباعِه وطاعتِه، حصلَ لنا من الخيرِ ما حصل، فهذا كلامٌ صحيح، كما كانَ أهلُ المدينةِ لمَّا قدمَ إليهم النبي صلى الله عليه وسلم كانوا في بركتِه لمَّا آمنوا به، وأطاعوه فببركةِ ذلك حصلَ لهم سعادةُ الدنيا والآخرة، بل كل مؤمن آمن بالرسولِ وأطاعَه حصلَ له من بركة الرسول بسبب إيمانِه وطاعته من خيرِ الدنيا والآخرة ما لا يعلمُه إلا الله.

وكذلك إذا أريدَ بذلكَ أنه ببركةِ دعائِه وصلاحِه دفعَ اللهُ الشرَ وحصلَ لنا رزقٌ ونصرٌ فهذا حق كما قال النبيُ صلى الله عليه وسلم:

"وهل تُنصرونَ وتُرزقونَ إلا بضعفائِكم" أي بدعائِهم، وصلاتِهم، وإخلاصِهم؟

فإن القواعدَ الشرعية، والعقائدَ السليمة التي سَلَكَها السلفُ وأفعالُ الصحابة الكرام والتابعين تضافرتْ جُلُّها على صحةِ هذا الإعتقاد الطيب.



الفصل في قضية
الذاكرين

قال الله تعالى:

- "فاذْكُرُوني أَذْكُرْكُم".

- "الذينَ يذكرونَ اللهَ قِياماً وقُعُوداً وعلى جنوبهم".

- "الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبهم بذكرِ الله ألا بذكرِ الله تطمئنُ القلوب".

- "والذاكرينَ اللهَ كثيراً والذاكرات أعدَّ اللهُ لهم مغفرةً وأجراً عظيماً".

- "يا أيها الذينَ آمنوا أذكروا الله ذكراً كثيراً وسبِحوهُ بُكرةً وأصيلاً هو الذي يُصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلماتِ إلى النور وكانَ بالمؤمنينَ رحيما".

- "واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون".

هذه الآيات الكريمات يمدح الله تعالى فيها الذاكرين، ويحثهم على مداومة الذكر حتى يذكرهم وتطمئن قلوبهم، وقد وعدهم بالمغفرة والأجر العظيم، وأنهم إذا ذكروه يغفر لهم بالصلاة عليهم ويخرجهم من ظلمات الجهل والدنيا إلى نور الإيمان والعلم والتوفيق، وفي نهاية المطاف يجعلهم من الفالحين الموفقين.

وإني أكتبُ هذا الموضوعَ وأحمل في قلبي غصةً وحزناً، وأزدادُ حسرةً وألماً، وتحدثني نفسي الرضيةُ بما أكتب، وتخاطبُني أنْ ألتمسَ عذراً لأولئكَ الذينَ يعترضون على أهل الذكر، وينكرون عليهم، ويتهمونهم بالتقصير، وأنهم يتقاعسون، وما هذا إلا كراتٌ من الحسدِ، ووابلٌ من الغَيْرة، وكم مرةً حدثتني نفسي، وحاولتُ أنْ أقنعَها إنَّ أمثالَ أولئك معذورون، لأنهم لم يتذوقوا هذه الحلاوة، ولم يجدوا لذةَ المناجاةِ والذكرِ والبكاءِ والإبتهالِ والمناداةِ، إلاَّ أنها تردُّني قائلةً: كيفَ ذلك، وأن منهم العلماءَ والفقهاءَ وأهلَ المعرفة، فكيف يحق لهم الإنكار بعد ذلك.

وبالمناسبة فقد قال لي أحدُهم مرة: ما معنى أنكم تجلسونَ في المسجد حِلقاً وتقولون: يا الله، أو تقرأونَ أسماءَ اللهِ الحسنى فهذا أمرٌ غيرُ صحيحٍ ولا تُؤجَرون عليه، وهو من العلماء القاطنين في بلدة مجدل عنجر في البقاع، وغيره كثير هداهم الله تعالى.

ومن البديهياتِ المعلومةِ من الدينِ بالضرورةِ، ومنَ النصوصِ القرآنيةِ الظاهرةِ في كتاب الله، والأحاديثِ النبويةِ الواضحةِ من أحاديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، يتبينُ أنَّ اللهَ تعالى قد مَدَحَ الذكرَ والذاكرينَ وأثنى عليهم ثناءً جميلاً، ورغَّبهم في فعلهِ والمداومةِ عليه تكثيراً للثواب، وتقرباً إليه، سواءٌ كانَ الذاكرُ في حالةِ الإفراد، أم كانَ في حالةِ الجمع، وليسَ هناكَ أيُ دليلٍ على الموانعِ التي يتعللُ بها بعضُ المحرومين من البشرِ، والذينَ اتخذوا بعضَ التأويلاتِ الواهيةِ زعماً منهم بأنَّهم هم أصحاب الطريقةِ السلفيةِ السالفة، وهل كانَ السلفُ ـ وهم أهلُ الذكرِ ـ لا يذكرونَ ولا يجتمعونَ على الذكرِ، ولا يحضونَ عليه، عجباً مِنْ هؤلاءِ وعجباً لهؤلاء.

فأروني أيَ تعارضٍ بينَ نَهجِ السلفِ ومجالسِ الذكرِ، وأيَ فرقٍ بينَ عملِ السلفِ وبين صفاءِ القلبِ وجلائه بذكرِ الله، أو النظرِ بعيوبِ النفسِ والزهد في حُطامِ الدنيا وعروضِها.

إنْ هي إلا قسمةٌ ضيزى، حكّمَ فيها أصحابُها الهوى على العقلِ، والجورَ والظلمَ على العدلِ والإنصاف، ولذلكَ سأسوقُ لكَ أخي القارئَ الشواهدَ وهي كثيرةٌ، من الآياتِ الأحاديثِ على فضائلِ مجالسِ الذكرِ والذاكرين، وفضيلةِ الاجتماعِ على هذه المجالسِ الطيبةِ الراقية، وسأقتصرُ خشيةَ الإطالة.

فقد جاءَ في حديث مسلمٍ: أن للهِ ملائكةً يطوفونَ في الأرض، فإذا صعدوا إلى السماءِ سألَهم اللهُ وهو أعلمُ بهم: من أينَ جئتم؟ فيقولونَ: جئنا من عندِ عبادٍ لكَ في الأرض يسبحونَك ويكبرونَك فيقول: قد غفرتُ لهم وأعطيتُهم ما سألوا وأجرتُهم مما استجاروا فيقولون: ربِّ فيهم عبدٌ خطّاءٌ إنما مرَّ فجلسَ معهم فيقول: وله غفرتُ، هم القومُ لا يشقى بهم جليسُهم.

وقد كانَ رسولُنا الأكرمُ صلى الله عليه وسلم، دائمَ الذكرِ والتسبيحِ لا يفترُ لسانُه ولا قلبُه عن هذهِ الأذكارِ الزاكياتِ، وقد رغّبنا كثيراً في ذلك.

ففي الحث على الذكر والتمسك به

فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه قال: كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يسيرُ في طريقِ مكةَ فمرَّ على جبلٍ يقال له: جمدان، فقال: "سيروا هذا جمدانُ سَبَقَ المفرِّدون" قالوا: وما المفردون يا رسولَ الله؟ قال: الذاكرونَ اللهَ كثيراً. رواه مسلم.

وروى الحارثُ الأشعري رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الله أوحى إلى يحي بنِ زكريا بخمسِ كلماتٍ أن يعملَ بهنَّ ويأمرَ بني إسرائيلَ أنْ يعملوا بهن "قلتُ فذكرَ الحديثَ بطوله إلى أنْ قال: وآمرُكم بذكرِ اللهِ كثيراً، ومَثَلُ ذلكَ كمثلِ رجلٍ طلبه العدو سراعاً في أَثْرِه حتى أتى حِصْناً فأحرزَ نفسَه فيه، وكذلكَ العبدُ لا ينجو من الشيطانِ إلا بذكرِ الله". رواه الترمذي وصححه وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وقال "صحيح" على شرطهما.

وروَت أم أنسٍ رضي الله عنها أنَّها قالتْ يا رسولَ الله أوصني: قالَ: أهجري المعاصي فإنَّها أفضلُ الهجرةِ، وحافظي على الفرائضِ فإنَّها أفضلُ الجهادِ، وأكثري من

ذكر الله فإنك لا تأتين الله بشيء أحب إليه من كثرة ذكره". رواه الطبراني بإسناد جيد.

وقد خصص رسول الله عليه الصلاة والسلام المسلمين الذاكرين بخصوصيات رائعة، تنشرح بها الصدور، وتطمئن بها النفوس، وتثلج القلوب، وتجعل في الحياة لذة لا يدركها إلا الذاكرون المتقون.

فقد قال في حق الذاكرين تعويضاً عن الإنفاق وقيام الليل والجهاد في سبيله لمن لا يستطيع القيام بذلك

فيما روى ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "مَنْ عَجَزَ منكم عن الليل أن يكابده، وبَخِل بالمال أن ينفقه، وجَبُنَ عن العدو أن يجاهده فليكثر ذكر الله" رواه الطبراني.

وفي ثواب حلق الذكر والاجتماع عليه قال:

عن معاوية رضي الله عنه: أنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسَلَّم خرج على حَلْقةٍ من أصحابه فقال: "ما أجلسكم" قالوا: جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام

ومنّ به علينا؟ قال: "آلله ما أجلسكم إلا ذلك" قالوا: آلله ما أجلسنا إلا ذلك، قال: "أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله عز وجل يباهي بكم الملائكة" رواه مسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان عبد الله بن رواحة إذا لقي الرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: تعال نؤمن بربنا ساعة، فقال ذات يوم لرجل: فغضب الرجل فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ألا ترى إلى ابن رواحة يرغب عن إيمانك إلى إيمان ساعة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يرحم الله ابن رواحة إنه يحب المجالس التي تباهى بها الملائكة". رواه أحمد بإسناد حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله تعالى ملائكة يطوفون في الطريق يلتمسون أهل الذكر فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله عز وجل تنادوا هلمّوا إلى حاجتكم فيحفّونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - ما يقول عبادي؟ قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، فيقول: هل رأوني؟ فيقولون: لا والله ما رأوك، فيقول: كيف لو رأوني؟ قال:

يقولون لو رأوك لكانوا أشدّ لك عبادةً وأشدّ تمجيداً وأكثر لك تسبيحاً، فيقول: فماذا يسألونَ؟ قالَ: يقولون: يسألونكَ الجنة، قالَ: يقول: هل رأوْها؟ قال: يقولون: لا والله يا ربّ ما رأوْها، يقول: فكيف لو رأوْها؟ قال: يقولون: لو أنهم رأوْها كانوا أشدّ عليها حرصاً وأشدّ لها طلباً وأعظم فيها رغبةً؟ قال: فمِمَّ يتعوّذون؟ قالوا: يتعوّذون من النار، قالَ: فيقولُ: وهل رأوْها؟ قال ويقولون: لا والله ما رأوْها فيقول: كيف لو رأوْها؟ قال يقولون: لو رأوها كانوا أشدّ منها فراراً وأشدَ لها مخافةً، قال: فيقولون: فأشهِدُكم أني قد غفرتُ لهم، قال: يقولُ ملكٌ من الملائكة: فيهم فلانٌ ليس منهم إنما جاء لحاجة، قال: هم الجلساء لا يشقى جليسهم" رواه البخاري ومسلم، وفي رواية لمسلم "إن لله ملائكةً سيارةً فضلاء يبتغون مجالسَ الذكر فإذا وجدوا مجلساً فيه ذكرُ الله قعدوا معهم وحفَّ بعضهم بعضاً بأجنحتِهم حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء فيسألُهم الله عز وجلَّ. وهو أعلمُ. من أين جئتُم فيقولون: جئنا من عند عبادٍ لك في الأرض يسبحونَك ويكبرونَك ويهللونَك ويحمَدونَك ويسألونَكَ قال: وماذا يسألوني؟ قالوا: يسألونَكَ جنتكَ قال: وهل رأَوا جنتي؟ قالوا: لا أيْ ربِّ قال: فكيف لو رأَوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك، قال: ومِمَّ يستجيرونَني؟ قالوا: من نارِك يا ربّ، قالوا: وهل رأَوا ناري؟ قالوا: لا، قال: فكيف لو رأَوا ناري؟ قالوا: يستغفرونَكَ، قال: فيقول: قد

غفرتُ لهم وأعطيتُهم ما سألوا وأجرتُهم مِمَّا استجاروا، قال: يقولون: ربِّ فيهم فلانٌ عبدٌ خطاءٌ إنما مرَّ فجلسَ معهم فيقول: له غفرتُ هم القومُ لا يشقى بهم جليسُهم".

وعن أبي سعيدٍ الخُدري رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقولُ الله عزَّ وجلَّ: يومَ القيامةِ سيعلمُ أهلُ الجمعِ مَنْ أهلُ الكرمِ؟" فقيل: ومن أهلُ الكرمِ يا رسول الله؟ قال: "أهلُ مجالسِ الذكر" رواه أحمد وابنُ حبان.

وعن أنسٍ رضي الله عنه عن رسولِ الله صلى الله عليه وسلم قال: "ما من قومٍ اجتمعوا يذكرون الله عزَّ وجلَّ لا يريدون بذلك إلاَّ وجهَه إلاَّ ناداهم منادٍ من السماء أن قوموا مغفوراً لكم قد بُدِّلتْ سيئاتُكم حسناتٍ" رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني وفي إسنادِه ميمون المَرائي وبقيةُ رجالِه ثقاتٌ وله شواهد.

وخرَّج الطبراني بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: مرَّ النبي صلى الله عليه وسلم بعبدالله بن رواحة وهو يذكِّرُ أصحابَه فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنكم الملأ الذين أمرني ربي أنْ أصبرَ نفسي معهم"، ثم تلا هذه الآية (واصبرْ نفسَك مع

الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي) "أما إنه ما جلس عدتكم إلا جلس معهم عدتهم من الملائكة إن سبحوا الله تعالى سبحوه، وإن حمدوا الله حمدوه، وإن كبروا الله كبروه، ثم يصعدون إلى الرب جل ثناؤه وهو أعلم بهم فيقولون: يا ربنا عبادك سبحوك فسبحنا وكبروك فكبرنا وحمدوك فحمدنا فيقول ربنا: يا ملائكتي أشهدكم أني قد غفرت لهم فيقولون: فيهم فلان الخطاء فيقول: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم".

وخرج البزار بإسناده عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله سيارة من الملائكة يطلبون حلق الذكر فإذا أتوا عليهم حفوا بهم ثم بعثوا رائدهم إلى السماء إلى رب العزة تبارك وتعالى فيقولون: ربنا أتينا على عباد من عبادك يعظمون آلاءك ويتلون كتابك ويصلون على نبيك محمد صلى الله عليه وسلم ويسألونك لآخرتهم ودنياهم، فيقول تبارك وتعالى: غشوهم رحمتي فهم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم".

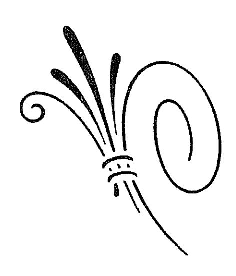
وعن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر فارتعوا في رياض

الجنة" قالوا: وأينَ رياضُ الجنة؟ قال: "مجالس الذكر فاغدوا وروحوا في ذكر الله واذكروه".

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا مررتم برياضِ الجنة فارتعوا" قالوا: وما رياضُ الجنة؟ قال: "حلَقُ الذكر" رواه الترمذي وقال: حديثٌ حسن.

وفي ذكرِ الله تعالى للذاكرِ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم

وعن أبي هُريرة رضيَ الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يقولُ الله: أنا عند ظنِّ عبدي بي وأنا معه إذا ذكَرني فإن ذكرني في نفسِه ذكرْتُهُ في نفسي وإن ذَكَرني في ملأٍ ذكرْتُهُ في ملأٍ خيرٍ منهم وإن تقرَّبَ إلي شِبراً تقربْتُ إليه ذراعاً وإن تقرَّبَ إلي ذراعاً تقربْتُ إليه باعاً وإن أتاني يمشي أتيْتُه هرولةً" رواه البخاري ومسلم.



وعن ابن عباس رضي اللهُ عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "قال اللهُ تبارك وتعالى: يا ابن أدم إذا ذكرتني خالياً ذكرتُك خالياً، وإذا ذكرتني في ملأ ذكرتُك في ملأ خيرٍ من الذين تذكرني فيهم" رواه البزار بإسنادٍ صحيح.

وعن معاذ بن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال اللهُ جلَّ ذكرهُ لا يذكرني عبدي في نفسه إلاَّ ذكرتُه في ملأٍ من ملائكتي ولا يذكرني في ملأٍ إلاَّ ذكرتُه في الرفيق الأعلى" رواه الطبراني بإسنادٍ حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقولُ: أنا مع عبدي إذا هو ذكرني وتحرَّكتْ بي شفتاهُ" رواه ابن ماجه وابن حبّان.

<u>وفي جلاء القلوب وصفائها في الذكرِ والمداومةِ عليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم</u>

عن عبدالله بن عمرو رضيَ اللهُ عنهما عن النبي صلى اللهُ عليه وسلم أنَّه كانَ يقولُ: "إنَّ لكلِّ شيءٍ صِقالةً وإنَّ صِقالةَ القلوبِ ذكرُ اللهِ وما من شيءٍ أنجى من عذاب الله

من ذكر الله" قالوا: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: "ولو أن يضرب بسيفه حتى ينقطع" رواه ابن أبي الدنيا .

وفي المحافظة في الأوقات على ذكر الله تعالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس يتحسّر أهل الجنة إلاّ على ساعة مرّت بهم ولم يذكروا الله تعالى فيها" رواه الطبراني والبيهقي. في الشعب. بإسناد جيد .

وخرّج البيهقي بإسناده عن عائشة رضي الله عنها أنّها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ما من ساعة تمرّ بابن آدم لم يذكر الله فيها بخير إلاّ تحسّر عليها يوم القيامة" .

وفي مدح مَنْ كان لسانه رطباً بذكر الله تعالى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن أبي المخارق قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: "مررت ليلة أسري بي برجل مُغيّب في نور العرش" قلتُ: من هذا؟ مَلَكٌ؟ قيلَ: لا . قلت: نبي؟ قيلَ: لا، قلتُ: من هو؟

قال: هذا رجلٌ كان في الدنيا لسانُه رطبٌ من ذكرِ اللهِ وقلبُه معلَّقٌ بالمساجدِ ولم يستَسِبَّ لوالديه" رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الذكر.

وعن معاذ بن جبلٍ رضيَ اللهُ عنه قال: آخرُ كلامٍ فارقتُ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنْ قلتُ أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى الله؟ قال: "أنْ تموتَ ولسانُكَ رطبٌ من ذكرِ الله" رواه الطبراني وابن حبان.

وخرَّج ابن أبي الدنيا بإسنادِه عن أبي ذرٍ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ما من يومٍ وليلةٍ إلاَّ وللهِ عزَّ وجلَّ فيه صدقةٌ يمُنُّ بها على من يشاء مِنْ عبادِه وما منَّ الله على عبدٍ بأفضل مِنْ أن يُلْهِمَه ذكرَه".

هذه الأحاديث الرائعة المكرمة قدوةٌ للذاكرينَ وتسليةٌ للمتقين، أضعُها نُصْبَ أعينِ المخلصينَ لكي يجعلوها نبراساً ودليلاً واضحاً بيناً لا لبسَ فيه لمن أرادَ أن يذَّكَّر أو أراد شكوراً وذكراً.

ثواب من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله

إنّ للذكر حلاوةً يقذفُها اللهُ تعالى في قلوبِ من اختارهم مِنْ عباده، فتزكو منهم القلوبُ، وتطمئنُ منهم النفوسُ، فيخلقُ اللهُ تعالى على جوارحِهم وأعضائِهم بديعَ قدرتِه، وروائعَ إرادتِه، فتظهرُ من أيديهم جمالاتُ الرقائق، وبدائعُ الصنائع مِن المعارفِ والعلومِ، والتوجيهاتِ الزاكياتِ، فتُصورُ لهم الدنيا بجمالها، وحولها هالةٌ من المشاعرِ والأنوارِ، وتتباهى بهم ملائكةُ اللهِ الواحدِ القهارِ.

والذكر ثوابه وألفاظه متنوعةٌ متعددةٌ كثيرةٌ غزيرةٌ، وها أنا أذكرُ لكَ أعلاها وأفضلَها وأشرفَها، مستدلاً بأحاديثِ البشيرِ النذيرِ سيدِنا محمد عليه الصلاة والسلام.

فعن عبادةَ بن الصامتِ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "منْ شهدَ أنْ لا إله إلا الله وحدَهُ لا شريك له وأن محمداً عبدهُ ورسوله وأن عيسى عبدُ الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريمَ وروحٌ منه والجنةَ حق والنارَ حق أدخله الله الجنةَ على ما كان من عمل" . رواه البخاري ومسلم .

وفي رواية لمسلم: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ "منْ شهدَ أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله حرّمَ الله عليه النار" .

وعن أنس رضي الله عنه: أن النبيَ صلى الله عليه وسلم - ومعاذ رديفَهُ على الرحل - قال: يا معاذ بن جبل: قال: لبيكَ يا رسول الله وسعديْكَ ثلاثاً قال: ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله صِدْقاً من قلبه إلا حرّمَه الله على النار قال: يا رسولَ الله أفلا أُخبر به الناس فيستبشروا ؟ قال: "إذاً يتكلوا" رواه البخاري ومسلم .

وعن رفاعة الجهني رضي الله عنه قال: اقبلْنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كنَّا بالكديد أو بقديد فحمدَ الله وقال: خيراً: وقال: أشهدُ عند الله لا يموتُ عبدٌ

يشهدُ أن لا إله إلا الله وأني رسولُ الله صِدقاً من قلبه ثم يسدد إلا سلكَ في الجنة" رواه أحمد بإسناد حسن .

هذه الأحاديثُ الكريمةُ وأمثالُها من أعظمِ البشارات، والكراماتِ العظمى التي أنعمَ اللهُ تعالى فيها على الذاكرين، ولفظُ النبي صلى الله عليه وسلم مَنْ قالَ . . . . . دلالةٌ بينةٌ على فضيلةِ وكرامةِ وثوابِ هذه الكلماتِ والعباراتِ إذ هي أعلاها وأكملُها وأكثرُها ثواباً .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم "ما قال عبدٌ لا إله إلا اللهُ مخلصاً إلا فُتِّحت أبوابُ السماءِ حتى تُفْضيَ إلى العرشِ ما اجتنبتِ الكبائر" رواه الترمذي وقال حديث حسن .

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: جَدِّدُوا إيمانَكم" قيل: يا رسول اللهِ وكيفَ نُجددُ إيمانَنا قال: أكثروا من قولِ لا إلهَ إلا اللهُ" رواه أحمد بإسنادٍ حسن .

وعن يعلى بن شداد قال: حدثني أبي شداد بن أوس وعبادة بن الصامت حاضرٌ يصدقه قال: كنّا عند النبي صلى الله عليه سلم فقال" هل فيكم غريب" يعني أهلَ الكتاب قلنا لا يا رسولَ الله فأمرَ بغلْقِ الباب وقال: ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله" فرفعنا أيدينا ساعةَ ثم قال: الحمدُ لله اللهمَّ إنك بعثتني بهذه الكلمةِ ووعدتني عليها الجنةَ وإنك لا تُخْلِفُ الميعادَ ثم قال: ألا أبشروا فإن الله قد غفر لكم" رواه أحمد بإسناد حسن.

وهذا كله يزيد الذاكرين ثباتاً وتبياناً وتأكيداً وبشارةً من المولى تعالى على لسانِ نبيه صلى الله عليه وسلم حتى يُثابِرَ أهلُ الذكرِ على أذكارِهم وتبقى ألسنتُهم رَطْبَةً بذكرِ الله تعالى.

وعن عمر رضي الله عنه قال سمعت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: إنّي لأعْلَمُ كلمةً لا يقولها عبدٌ حقاً مِنْ قَلْبِهِ فيموتَ على ذلك إلا حُرِّمَ على النارِ لا إله إلا الله" رواه الحاكم وقال صحيح على شرطهما.

وخرّج أحمدُ والبزارُ بإسنادِهما عن معاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم "مفاتيحُ الجنّةِ شهادةُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ" .

وخرّج البزار بإسناده عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنّ لله تبارك وتعالى عموداً مِنْ نورٍ بين يدي العرش، فإذا قال العبدُ لا إلهَ إلا اللهُ اهتزّ ذلكَ العمودُ فيقول الله تبارك وتعالى اسْكُنْ فيقول كيف أسْكُنُ ولم تَغْفِرْ لقائلِها فيقول إنّي قدْ غفرْتُ لهُ فيسكنُ عندَ ذلك .

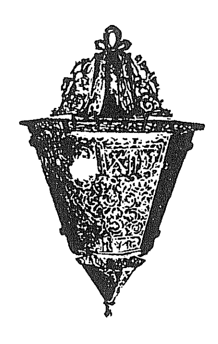
هذا كله من جمالِ كمالِ الخالقِ جلّ جلالُه فهو المتفضلُ المُنْعِمَ على عبادِهِ الذاكرينَ حيثُ يبشرُهم ربهم برحمةٍ منه ورضوانٍ لا يتبعُهم شقاءٌ، ولا يلحقُهم عناءٌ، وهم الذين يُباهي ربنا بهم ملائكتَه دوماً .

وترغيباً للمداومةِ على ذكرِ اللهِ تعالى كانتْ كلمةُ الإخلاصِ مكفرةً للسيئاتِ مكثرةً للحسناتِ، مُرجّحةً لكِفّةِ ميزانِ حسناتِهم ليسَ بينها وبين الله تعالى حجابٌ .

فقد خرّج أبو يعلى بإسناده عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ما من عبْدٍ قال لا إله إلا اللهُ في ساعةٍ من ليلٍ أو نهارٍ إلا طُمِسَتْ ما في الصحيفةِ من السيئاتِ حتى تَسْكُنَ إلى مِثْلِها من الحسنات .

كما أنّ مِنْ سِماتِ وصفاتِ أهلِ الله الذاكرين المحافظينَ على كلمةِ الإخلاصِ والتوحيدِ لا هَوْلَ ولا وَحْشةَ عليهم عند موتِهم وفي قبورِهم .

فقد خرّج الطبراني والبيهقي في الشعب بإسنادهما عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم "ليسَ على أهلِ لا إلهَ إلا اللهُ وحشةٌ في قبورِهم ولا مَنْشَرِهم وكأني أنظرُ إلى أهلِ لا إلهَ إلا اللهُ وهم ينفُضُونَ الترابَ عن رؤوسِهم ويقولون: الحمدُ للهِ الذي أذهبَ عنّا الحزن" وفي رواية للطبراني: ليس على أهلِ لا إلهَ إلا اللهُ وحشةٌ عندَ الموتِ ولا عِنْدَ القبْر" .



وخرّج الترمذي بإسناده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: التسبيح نصف الميزان والحمد لله تملأه ولا إله إلا الله ليس لها دون الله حجابٌ حتى تخلص إليه.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبركم بوصية نوح ابنه قالوا بلى: قال أوصى نوحٌ ابنه فقال لابنه يا بُنيَّ إنّي أوصيك باثنتين وأنهاك عن اثنتين أوصيك بقول لا إله إلاّ الله فإنّها لو وُضعت في كِفة ووُضعتْ السموات والأرض في كِفَة لرجحتْ بهنّ ولو كانتْ حلقة لقصمتْهُنّ حتى تخلص إلى الله "قلت فذكره بتمامه رواه البزار والحاكم بنحوه، وقال صحيح الإسناد إلا إنه قال فيه "وآمرك بلا إله إلا الله فإنّ السموات والأرض وما فيهما لو وُضعت في كفة ووُضعت لا إله إلا الله في الكفة الأخرى كانتْ أرجح منهما ولو أن السماوات والأرض وما فيهما كانت حلقةً فوضعتْ لا إله إلا الله عليهما لقصمتْهُما وآمرك بسبحان الله وبحمده فإنها صلاة كل شيء وبها يُرزق كل شيء.

ذكر الله تعالى وثواب من قال سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليبعثن الله أقواماً يوم القيامة في وجوههم النور على منابر اللؤلؤ يغبطهم الناس ليسوا بأنبياء ولا شهداء".

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله" رواه ابن ماجه والنسائي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

وخرج الطبراني بإسناده عن زيد بن ارقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة" وما إخلاصها ؟ قال: "أن تحجزه عن محارم الله" وفي رواية "عما حرم الله عليه".

ثواب سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر

تتعددُ الأحاديثُ، وتتكررُ التوجيهاتُ، وتتوالى الترغيباتُ، ليبقى الذاكرُ في حالةِ حضورٍ مع اللهِ تعالى، لأنَّ الذكرَ نوعٌ من أنواعِ العباداتِ الراقيات، التي وصلَ بها الذاكرونَ إلى المعرفةِ الحقيقة، وإلى مقامِ الإحسانِ العالي وهو: أنْ تعبدَ اللهَ كأنَّكَ تراهُ فإنْ لم تكنْ تراهُ فإنَّه يراكَ، من أجلِ هذا نوَّعَ رسولُنا الأكرمُ توجيهاتِه للذاكرين.

فقد روى أبو مالكٍ الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: الطَهورُ شطرُ الإيمانِ والحمدُ للهِ تملأُ الميزانِ وسبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ تملآنِ أو تملأُ ما بينَ

السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها" رواه مسلم.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلثمائة مفصل فمن كبّر الله وحمد الله وهلّل الله وسبّح واستغفر الله وعزل حجراً عن طريق المسلمين أو شوكة أو عظماً عن طريق المسلمين أو أمر بمعروف أو نهى عن منكر عدد تلك الستين والثلاثمائة فإنه يمسي يومئذ وقد زحزح نفسه عن النار" قال أبو توبة وربما قال "يمشي" يعني بالشين المعجمة" رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس" رواه مسلم.

وعن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أفضل الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر" رواه أحمد بإسناد صحيح.

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "أحبُ الكلامِ إلى اللهِ أربعٌ سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبر لا يضرُك بأيهنَ بدأتَ" رواه مسلم والنسائي زاد "وهن من القرآن".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "لقيتُ إبراهيمَ عليه السلامُ ليلةَ أسري بي فقال: يا محمدُ أقرِئْ أمتكَ مني السلامَ وأخبرْهُم أنَّ الجنةَ طيبةُ التربةِ عذبةُ الماءِ وأنَّها قيعان وأنَّ غِراسَها سبحانَ الله والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبر" رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

وخرج الطبراني بإسناده عن سلمان رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقولُ: إنَ في الجنةِ قيعاناً فأكثروا من غِراسها قالوا يا رسولَ الله وما غِراسُها؟ قال: سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إله إلا اللهُ واللهُ أكبر".

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ النبيَ صلى الله عليه وسلمَ مرَّ به وهو يغرسُ غرْساً فقال: يا أبا هريرةَ ما الذي تغرس قلتُ غِراساً قال "أدُلكَ على غراسٍ خيرٍ منْ هذا؟

سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبر تَغْرِسُ لكَ بكلِ واحدةٍ شجرةً في الجنة" رواه ابن ماجه بإسناد حسن والحاكم بنحوه وقال صحيح الإسناد .

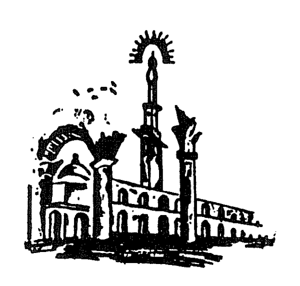
وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللهَ اصطفى من الكلامِ أربعاً سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلا اللهُ واللهُ أكبر فمنْ قال: سبحانَ اللهِ كُتِبَتْ له عشرونَ حسنة وحُطَتْ عنه عشرونَ سيئة ومنْ قالَ الحمدُ للهِ ربِ العالمينِ منْ قِبَلِ نَفْسِه كُتِبَتْ له ثلاثونَ حسنة وحُطتْ عنه ثلاثونَ سيئة رواه أحمد والنسائي والحاكم بنحوه وقال صحيح على شرط مسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم قال: خذوا جُنَّتكم" قال: يا رسولَ الله عدوٌ حَضَرَ قال لا ولكنْ جُنَّتكم من النَّار قولوا: سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ واللهُ أكبرُ فإنَّهمّ يأتينَ يومَ القيامةِ مجنَّباتٍ ومعقِباتٍ وهن الباقياتُ الصالحاتُ" رواه النسائي والحاكم بنحوه وقال صحيح على شرط مسلم . قوله "جنتكم" بضم الجيم وتشديد النون معناه ما يستركم ويقيكم من النار . وقوله مجنبات" بتشديد النون وفتحها أي مقدماتٌ بين أيديكم يوم القيامة . وقوله معقبات بكسر

القاف أي يأتين من خلفكم أيضاً ويحتمل أن يكون بفتح القاف ومعناه تعقبوهن يوم القيامة في الإتيان واتلوهن والله أعلم.

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ مِمَّا تذْكُرونَ مِنْ جلالةِ اللهِ التسبيحُ والتهليلُ والتحميدُ يَنْعَطِفْنَ حولَ العرشِ لهنَّ دويٌّ كدويّ النَّحلِ تُذَكِّرُ بصاحبِها، أما يُحِبُّ أحدُكم أنْ يكونَ له - أولا يزالُ - له من يُذَكِّرُ به" رواه ابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

بعد هذه العُجالةِ الرائعةِ من الأحاديثِ الكريمةِ أجزمُ أنها لنْ تتركَ لمُعْتَرِضٍ أو مُنْكِرٍ أيَّ بابٍ للشكِ أو للطعنِ، أو للغوصِ في التشكيكِ في طريقِ الذكرِ والذاكرينَ وإلا فقد غدا متعنتاً ومستبداً خاصةً بعدَ هذه الأحاديثِ الكريمةِ والبشاراتِ الجليلة.



ثواب سبحان الله وبحمده

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال لي رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: "ألا أخبِرُكَ بأحبِ الكلامِ إلى اللهِ" قلتُ: يا رسولَ الله أخبرني بأحبِ الكلامِ إلى اللهِ تعالى، فقال: إنَّ أحبَ الكلامِ إلى الله سبحانَ اللهِ وبحمده" وفي رواية أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل أيُ الكلامِ أفضل قال: ما اصطفى اللهُ لملائكتِه أو لعبادِه سبحانَ الله وبحمده" رواه مسلم.

وعن عبد اللهِ بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: من قال سبحانَ اللهِ وبحمدِه غُرِستْ له نخلةٌ في الجنة" رواه البزار بإسناد جيد.

وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى اللهُ عليه وسلمَ قال: من قالَ: سبحانَ اللهِ العظيم وبحمدِه غُرِستْ له نخلةٌ في الجنة" رواه الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وخرج الطبراني عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: من هالَهُ الليلُ أنْ يكابدَه وبَخلَ بالمال أنْ يُنفقَهُ أو جَبُنَ عن العدو أنْ يقاتلَه فليُكْثِرْ من سبحانَ اللهِ وبحمدِه فإنّها أحبُ إلى الله من جبلِ ذَهَبٍ ينفقُه في سبيلِ الله عز وجل.

فإن أحبَ الكلامِ ذكرُ الله تعالى، وغِراسُ الجنة أذكارٌ كريمةٌ رائعةٌ، حتى أنّ الذكرَ كادَ أن يساوي أو يساوي الإنفاقَ الكثيرِ والقتالَ في سبيل الله تعالى، الحمدُ لله على هذهِ الفضائلِ العظيمةِ والتوجيهاتِ إلى الأذكارِ الجليلة.

ثواب من قالها مائة مرة في يوم

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: منْ قالَ سبحانَ اللهِ وبحمدِه في يومٍ مائةَ مرةٍ غُفِرَتْ له ذنوبُه وإنْ كانتْ مثلَ زبدِ البحرِ" رواه مسلم.

وعن اسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة عن أبيه عن جدهِ وهو زيد بن سهل الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ قالَ: "لا إلهَ إلا اللهُ دخلَ الجنةَ أو وجبتْ له الجنةُ، ومن قال: سبحانَ اللهِ وبحمده مائةَ مرةٍ كَتَبَ اللهُ لهُ مائةَ ألفَ حسنةٍ وأربعةً وعشرينَ ألف حسنة قالوا: يا رسولَ الله إذاً لا يهْلَكُ منَّا أحد قال: بلى إنّ أحدكم ليجيءُ بالحسناتِ ولو وُضِعَتْ على جبلٍ أثقلتْهُ ثم يجيءُ النِعمُ فتذهبَ بتلكَ ثم يتطاولُ الربُ بعدَ ذلكَ برحمتين" رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد ورواه الطبراني.

ثواب سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: كلمتانِ خفيفتانِ على اللسانِ ثقيلتانِ في الميزانِ حبيبتانِ إلى الرحمنِ سبحانَ اللهِ وبحمده سبحانَ اللهِ العظيم" رواه البخاري ومسلم.

وخرج البزار بإسناده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: سبحانَ الله وبحمده سبحانَ الله العظيم استغفرُ اللهَ وأتوبُ إليه من قالها:

كُتبتْ كما قالَها ثم علِقتْ بالعرشِ لا يمحوها ذنبٌ عَمِلَهُ صاحبُها حتى يلقى اللهَ يومَ القيامة وهي مختومةٌ كما قالها .

إنَّ ذكرَ اللهِ تعالى فيه طمأنينةٌ للروحِ والقلب قال تعالى: (الذين آمنوا وتطمئنُ قلوبُهم بذكرِ الله ألا بذكرِ الله تطمئن القلوب) . وقيل إذا سكنَ قلبُ العبدِ إلى مولاه واطمأنَ إليه قوي حالُ العبد ، فإذا قوي حاله آنسَ اللهُ العبدَ فأمدَّهُ بالسعادةِ ومنحهُ الإطمئنانَ الخالص .

وسئل ابنُ عطاءٍ رحمه اللهُ تعالى ما يفعلُ الذكرُ بالسرائرِ فقال: "ذكرُ الله تعالى، إذا وردَ على السرائرِ بإشراقه أزال البشرية في الحقيقةِ برعوناتها" .

وقال سهل (ليس كلُ من أدّعى الذكرَ فهو ذاكرٌ، وسُئل عن الذكرِ فقال: تحقيقُ العلمِ بأنَّ الله تعالى مشاهدُك، فتراهُ بقلبِك قريباً منك، وتستحي منه، ثم تؤثرهُ على نفسِك وعلى أحوالِك كلها) .

اللهم اجعلنا من الذاكرين الذين لا تغفلُ قلوبُهم ولا تفترُ ألسنتُهم عن ذكرِك وثناءِك يا خيرَ منْ ذُكِرَ وأفضلَ منْ أُثني عليه سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

ذكر الله تعالى وثواب من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له

وعن جابر رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أيها الناس إن لله سرايا من الملائكة تحل وتقف على مجالس الذكر فارتعوا في رياض الجنة قالوا: وأين رياض الجنة قال: "مجالس الذكر، فاغدوا وروحوا في ذكر الله واذكروه بأنفسكم من كان يحب أن يعلم منزلته عند الله فلينظر كيف منزلة الله عنده فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه" رواه أبو يعلى والبزار والحاكم وقال صحيح الإسناد.

إن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يخبرنا أن صاحب كلمة التوحيد والإخلاص وأهل الذكر يجعل الله لهم الكرامات العظمى، ويستجيب سؤالهم ويحقق رغباتهم التي تقربهم إلى الله تعالى.

عن يعقوبَ بنِ عاصمٍ عن رجلينِ من أصحابِ النبي صلى الله عليه وسلم أنَّهما سمعا النبيَ صلى الله عليه وسلم يقولُ: "ما قالَ عبدٌ قط لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَهُ لا شريكَ له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ مخْلِصاً بها روحَهُ مُصَدِقاً بها قلبُه ناطقاً بها لسانُه إلا فتقَ اللهُ عزَّ وجلَ له السماءَ فتْقاً حتى ينظرَ إلى قائلها وحُقَّ لعبْدٍ نظرَ اللهُ إليه أنْ يُعْطِيه سُؤْلَهُ" رواه النسائي.

وعن أبي أمامة رضي اللهُ عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: من قال: لا إلهَ إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ لم يسبقْها عملٌ ولمْ يبقَ معها سيئةٌ" رواه الطبراني بإسناد حسن.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: إن النبيَ صلى الله عليه وسلم قالَ: "خيرُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفَةَ وخيرُ ما قلتُ أنا والنبيونَ من قَبْلي لا إلهَ إلا اللهُ وحْدَهُ لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ" رواه الترمذي وقال حديث حسن.

وعن أبي أيوب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قال: لا إله إلا الله وحدهُ لا شريكَ له، لهُ الملكُ ولهُ الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ كانَ كعِدْلِ محرَّرٍ أو محرَّرين" رواه الطبراني بإسناد جيد.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسولَ الله صلى اللهُ عليه وسلم قالَ: إنَّ اللهَ يستخلصُ رجلاً مِنْ أمتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ فينشرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجلاً كلُ سجلٍ مثلُ مَدِّ البصرِ ثم يقولُ أتنكرُ من هذا شيئاً؟ أظَلَمكَ كَتَبَتي الحافظون؟ فيقولُ لا يا ربِ فيقولُ: أفَلَكَ عذرٌ؟ فقال: لا يا ربِ، فيقول الله تعالى: بلى إنَّ لكَ عندنا حسنةً فإنَّه لا ظُلْمَ عليكَ اليومَ فيُخْرَجُ بطاقةٌ فيها أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولهُ فيقول: أحْضِرْ وزنَك فيقولُ يا ربِ ما هذهِ البطاقةُ معْ هذهِ السجلات؟ فقال: فإنَّكَ لا تُظْلَمُ فتُوضَعُ السِجلات في كِفةٍ والبطاقةُ في كِفَّةٍ فطَاشتْ السجلاتُ

وثقلت البطاقة ولا يثقل مع اسم الله شيء" رواه الترمذي وحسنه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم.

سبحان الله العظيم الذي له لوامع الأذكار، يتزود بها الطائعون الذاكرون على الدوام، حيث الذكر غذاء لأرواحهم، وقلوبهم ونفوسهم، بعد هذه البشارات النيرة، والأقوال الحسنة، والتوجيهات النبوية الرائعة، نجزم أن الذكر وفضائله وثوابه من الخصوصيات الربانية التي خص الله تعالى بها عباده وأوليائه وأصفيائه.

اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين.

ثواب من قالها (في يوم) مائة مرة

كثيراً ما يظن أحدهم فيقول: المراد من الأحاديث التي مرت، وأمثالها من توجيهاته صلى الله عليه وسلم أن يذكر المرء المسلم المؤمن كلمة التوحيد مرة واحدة في حياته، وأن يقر بذلك بلسانه وأن يعتقد بها بجنانه، وأن يدل على ذلك بالعمل بأركانه،

هذا كله جيدٌ ومفيدٌ ومرادٌ، بيْدَ أنَّ رسولَنا الأكرمُ صلوات ربي عليه زادنا بشارةً وتأكيداً بأن المرادَ المداومةُ على الذكرِ والثباتِ، والمحافظةِ عليه.

من أجل هذا صرّحَ عليه الصلاة والسلام فقالَ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مَنْ قال: لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له له الملكُ وله الحمدُ وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرةٍ كانتْ لهُ عدلَ عشرِ رقاب وكتبتْ لهُ مائةُ حسنةٍ ومُحيَتْ عنه مائةُ سيئةٍ وكانتْ له حرزاً من الشيطانِ يومَه ذلكَ حتى يُمسي ولمْ يأتِ أحدٌ بأفضلَ ممّا جاءَ بهِ إلا أحدٌ عمِلَ أكثرَ منْ ذلك" رواه البخاري ومسلم.

وعن أبي المنذر الجهني رضي الله عنه قال: قلت: يا رسولَ الله علمني أفضلَ الكلامِ قال: يا أبا المنذر قل: لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريكَ له له الملكُ ولهُ الحمدُ يحيي ويميتُ بيدهِ الخيرُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ مائةَ مرةٍ في يومٍ فإنَّكَ يومئذٍ أفضلُ الناسِ عملاً إلاّ منْ قالَ مثلَ ما قلت" رواه البزار وكذلك ثوابُها إذا قيلَتْ في الصباحِ والمساءِ وغيرُ ذلك إنْ شاءَ اللهُ تعالى.

وخرّج الطبراني بإسناده عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليس مِنْ عَبْدٍ يقول لا إله إلا الله مائة مرةٍ إلا بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر، ولم يُرفع لأحدٍ أفضلُ مِنْ عمله إلا من قال بمثل قولِه أو زاد.

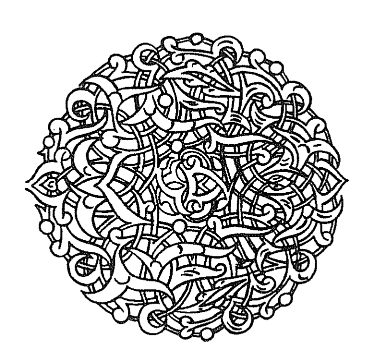
ثواب من قالها عشراً

عن أبي أيوبٍ رضي الله عنه: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمدُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ عشر مراتٍ كان كَمَنْ أعتق أربعةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إسماعيل" رواه البخاري ومسلم.

ثواب ذكر من نوع آخر

وخرّج أحمدُ والبزار بإسنادهما عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "من قال لا إله إلا اللهُ وحدهُ لا شريك له أحدٌ صمدٌ لم يلدْ ولم يولد ولم يكنْ له كفواً أحدٌ كتبَ اللهُ له ألفيْ ألف حسنة.

خرّج الطبراني بإسناده عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقولُ: منْ قالَ: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ لهُ الملكُ وله الحمدُ يحيي ويميتُ وهو الحيُ الذي لا يموتُ بيدهِ الخيرُ وهو على كلِ شيءٍ قديرٌ لا يريدُ بها إلا وجهَ اللهِ أدْخلَهُ اللهُ بها جناتِ النعيم.



الخاتمة:

إن ما يحتم علينا قوله، وما يوجب علينا التمسك به دوماً اعتبار الشريعة الغراء، والتي أكرمنا الله تعالى بها شريعة نيّرة باقية إلى يوم الدين، فقد جعل فيها كل ما يحتاجه الإنسان المعاصر حيث قال الله تعالى: ما فرطنا في الكتاب من شيء.

وقد قعّد لنا رسولنا الأكرم عليه الصلاة والسلام فجعل القرآن لمن كان قبلنا، وجعله لنا، وكذلك لمن يأتي بعدنا، من هنا نعلم سعة الشريعة وانتشارها وضرورة العمل بها للناس كافةً.

وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين.

إضافةً إلى ذلك أنّ ما قام به الأفذاذ من العلماء الذين خدموا الشريعة، والصوفية أصحاب التربية الروحية الأولياء، والذين أفنوا حياتهم في خدمة الدين والعلم والتعليم، حيث أظهروا روح الإسلام وروعته الحضارية، والتي واكبت الدنيا كلّها وما زالت حتى كانت خدمتهم إظهاراً لروح هذه الشريعة، حتى بدت بهذه الحُلّة العظيمة والتي كادت أن تكون خافيةً على كثير من الناس في العصور السالفة، فقد استنبطوا الأحكام الفقهية، والقواعد الكلية من النصوص الشرعية.

زدْ على ذلك الجانب الروحي، والصفاء والحضور القلبي، الذي جعلوه في نفوسهم حتى صفت، وفي قلوبهم حتى زكت ورقوا به أعلى عقبة.

وبهذا أوصلوا العبدَ بخالقه، وربطُوه بعبادتِه، صِلَةَ ذكرٍ وثناءٍ وعبادةٍ ومراقبة، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صِلُوا الذي بينَكم وبينَ ربكم، بكثرةِ ذكركم له، من حديث رواه ابن ماجه وهذا لا يُكتَسب بعبارةٍ اكتساباً، ولا تُحالِله كلمةٌ، ولا تُظْهِرهُ جُمْلةٌ.

ومن المؤكدِ أن التزكيةَ الروحية، والصفوةَ الصوفية هي التي جعلتْ للشريعةِ تلازماً في تطبيقِها، والسير على نهجها.

ولن نقول إنَّ هذا الجانبَ الروحي والصفاءَ الخلقي الصوفي، قد تغافلَ عنه الكثيرُ من العلماءِ فتمسكوا بالظواهرِ والقشور، وتركوا اللباب، بل إنَّهم أرادوا الوقوفَ على النصوصِ، واتِّباعِها وهذا غايةُ المطلوبِ وهذا هو المرتجى صدقاً.

إلا إن لكلِ نصٍ روحاً، ولكلِ قاعدةٍ مقتضى ولكل عبارةٍ فحوى، فاتباعُ الروحِ والمقتضى والفحوى يزيد البهاءَ بهاءً والصفاءَ صفاءً.

وأنا على يقينٍ بأنَّ الجدالَ والحوارَ والنزاعَ بين هاتينِ الفكرتين، والطائفتينِ المجتهدتينِ سيبقى مستمراً على مدى الأيام، كما مضى وانقضى، وعاجلاً أم آجلاً ستنقشعُ الغمامةُ عن سماءِ الحقيقة وتنجلي الغشاوةُ عن العيونِ، وتتفتحُ العقول، ولتصل إلى تلك المعارفِ واللوامع وما

تناولته من مواضيع في هذا الكتاب ما هي إلا عن دراسة حسية، ومشاهدة عينية، وتذوق ملموس.

ولو أردت أن استفيض لوصل بنا الأمر إلى مجلدات "وليس براء كمن سمع".

والحق أقوله: أنه لن يغير المرء هذا الجانب الروحي مطلقاً، لأنه متولد في طياته على تطبيق الشريعة.

وكذلك الجانب الشرعي هو الذي يؤكد عملياً الجانب الروحي، فهما متلازمان تلازم الروح بالجسد، والماء بالعود الأخضر، فلا ينفكان مطلقاً على مدى الأيام والأزمان.

فالغاية واحدة وهي بلوغ حقيقة العبودية الموصلة إلى رضاء الله والفوز بالحسنى.

وخلاصة ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: استحيوا من الله حق الحياء، قلنا: إنا نستحي من الله يا رسول الله، -والحمد لله- قال: ليس ذلك، ولكن الإستحياء من الله حق الحياء أن تحفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى، وتذكر الموت والبلى، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا، وآثر الآخرة على الأولى، فمن فعل ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء، رواه الترمذي.

والحمد لله أولاً وآخراً، وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً بقدر عظيمة في كل وقت وحين. ربي اغفر لي ولوالدي رب ارحمهما كما ربياني صغيراً.

كتبه الشيخ صلاح الدين خضر فخري

١٤١٨هـ / ١٩٩٧م





الفهرس